

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مولود معمري، تيزي-وزو
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها



مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

محاضرات في التربويات والإسلاميات

صالح بلعيد

منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

2015

صالح بلعيد

محاضرات في التّربويات والإسلاميات

منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

2015

جميع الحقوق محفوظة للخبير

الإيداع القانوني: 2015 – 4287

رقمك: 8 – 35 – 381 – 9947 – 978

المقدمة العامة

يسعدني أن أقدم للقارئ هذا العمل الجديد الموسوم (محاضرات في التّربويات والإسلاميات) والذي تدور محاوره الكبرى في ميدان التّربية وما يتعلّق بالقضايا الدينية، وما يدور حول خدمة الشّأن العامّ، وأراه يتنزّل في باب التّربية والتّوجيه حيث يضمّ بين أوراقه سلسلة من المحاضرات التي أُلقيت عبر منابر وطنية وأجنبية؛ بعضها أُلقي في منابر متخصصة، وبعضها أمام جمهور عامّ. ولهذا تراوحت لغته بين المستويات المختلفة، ولكنها لم تتسلخ عن الفصاحة، وذلك ما روعي في اختيار موضوعات هذا الكتاب الذي ينحو التّركيز على الأخلاق والقيم والتّعايش والتّسامح، وكلّ ما يدخل في باب (أخلاق المجتمع) وما أشدّ مجتمعنا احتياجاً لها في هذا الوقت لما يعيشه من غزو فكري، وسلب للرأي، والانحواء في الآخر. وإنّ أمثال هذه القضايا تحتاج أن تتطّرح في منابر الفكر لردّ الاعتبار للأخلاق والأصالة وفعل الأجداد.

وسيجد القارئ الموضوعية والعلمية والأمانة والتّحرّز والتّحرّج؛ وصولاً إلى تحقيق المنهجية والصّدق والمصادقية والنّزاهة العلمية، وعهدي بهذا العمل أن أربيّ الطّلاب من أن يقصدوا في علومهم اعتماد المنهج العلمي الذي يكون مُوجّهاً ورافداً ومسلكاً في حياتهم البحثية، فإذا تحلّوا بصفات الأمانة والمنهجية العلمية لن يضيعوا أبداً؛ لأنّهم يملكون بوصلة الوصول إلى النّتائج ببصيرة ويُسّر.

كما سيجد القارئ بعضاً من التّهجمات أو النّقدات، فغرضها البناء، ويشهد التاريخ أنّ الأمم التي ترقّت وتقدّمت لم يحصل لها ذلك إلّا بفعل النّقد والمعارضة

والغاية من هذا الفعل النقدي أن نستقيم ونتحسن، ليس إلّا. فبلدنا عميق وكبير وتقديم النقد يعني العمل على التّموّج والتّحسن، وهو الخيار الأفضل الذي أروم منه نيل المراتب العلا. ولذا أحمل بعضاً من التّجريح تجاه بعض الأمور التي تحتاج إلى إعادة النّظر، ونقول للمسيء أسأت، فأعدّ تقييم الأمور ونقول للمحسن أصبت فواصل وقدم الأحسن، وهكذا نتقدم. ولقد ورد في الأثر أن الأمّة العربية لم تكن تحتلّ رتبتها الأولى إلّا بالنّقد والتّقييم والتّقويم، وهكذا الأمم المعاصرة التي عرفت النّقد، فلم تكن تُجامل القبيح، بل كانت تشنّ حملة على المستكره. ويحمل الإعلام في الوقت المعاصر حملات ضدّ كلّ مُستهجن أو مُجامل، بل يعمل على الإطاحة بكلّ من يغيّر الحقائق، أو يزيّف النّوع الحرّ، ولذلك سادت تلك الأمم واستأسدت وحقّ لها أن تكون وتقود لأنّها لا تُجامل، فهل نكون أقوى إذا أبقينا على الرّداءة؟ وهل نتقدّم بالإساءة؟ وكيف نسير إلى الأمام، ونحن نكره النّقد؟

أيّها القارئ، عهدي بك أن تنتفع بما تقرأه من منشورات (مختبر الممارسات اللّغوية في الجزائر) كما عهدته، وسنبقى نعطي ونعطي للقارئ من جهدنا ولو نُجحد، وأعرف أنّ القارئ المُنصف، والطّالب المُريد لن يكونا من المُشنعين لفعل (مختبر الممارسات اللّغوية في الجزائر) الذي بقي وفياً لاختصاصه ومادته ومنهجه؛ بفضل تلك الفِرَق التي أنارت جامعات الجزائر، فلا يذكر هذا المختبر إلّا وتأتيك التّشكرات على تلك المنتوجات، وما أنجز في علوم اللّغة. ومن ذلك النّوع الرفيع نزع أن هذا العمل يكون قيمة مُضافة لركام ومنتوج سالف، إن لم أقلّ إنّهُ إضافة نوعية كنتَ تنتظرها أيّها الطالب الباحث، وهي التّخصيص في الجانب التّربوي والديني الذي نحن بحاجة إليه في وقتنا المُعاصر؛ حيث القيمُ غائبةٌ

والمظاهر زائفة، والأخلاق في تدهور، والأمور في تكور، والناس لا تعرف إلى أين تؤول، وفي أيّ مجال تصول، فهل من موجهٍ لما نحن فيه من هول؟ قلتُ هذا ذاتَ زمانٍ، وحينَ وقتِ الرّهان، وعلينا أن نشدّ الإزار، ونهتكَ الإصارَ ونقدّم الحلولَ بانتصار، وذاك مبتغايَ من هذا الكتاب، وأروم أن يكون إليه المآب للطلاب وللتّطلاب، وقد يجدون ضالتهم المنشاد، أو ربّما يحصل لهم التّضاد، بما لم يعرفوا عني من التّواد. وغايتي في كلّ حال، نشدان الكمال، وبخاصّةٍ في ما أضفته من عمل طلبة (الماستر 2 علوم اللغة) الذي أقدّر جهدهم الكبير، في عمل قاموا به عن جدارة واقتدار، ودافعوا عنه وهم تخصّص اللّغويات، فأبدعوا حتى في التّربويات والدينيات، فأبشّرُ بهم من طلابٍ نجباء! وهكذا يكون الطّلاب مريدين للمشيخة التي آمل أن تعود إلى جامعاتنا لنخلق الكراسي العلمية والمناهج والتّخصصات، وتكون جامعاتنا مقصد الطّلاب من الخارج.

أيّها القارئ، لقد حصل في نفسي الارتياح والانبساط، ومن خلالهما جاءني العزم والنشاط، فآن لك أن تقول كلمتك بالتّرويج لهذا العمل، أو بإهداء العيوب فعليك أن تستفيق للتّقييد، وتعمل نظرك العتيد، في ما قد تستكشفه من نقائص تُسديها للكتاب وقد تكون من النّفائس، ويتحسّن بها في التّبرير، إنْ أصبت الإبريز. وأنا من خلاله أنظر إلى القارئ المُضيف؛ الذي يفعل فعله وينيف، ولا يهمّه التّجاهل، كما لا يهمّه الاستهزاء، ولا يهمّه عندما يحارب؛ لأنّه يدرك أنّه ينتصر فكذاك أريد كلمتك في هذا العمل.

يلمس القارئ محاضرات حديثة، وبعض الكلام فيها من المكرور، بل وفيها بعض من المنقول عن بعض، وذلك ما تتطلّبه التّراتب؛ لأنّها سلسلة في عقد سبحة

واحدة، ومن فكر واحد، فلا شكّ أن يحصل التّكرار، وهو ليس إلّا التّرسّخ
والمنال. محاضرات جمعتها بغية الإفادة، وغرضي أن تصل إلى كلّ البحتة
وأرجو منهم إبداء النّصح والتّرشيد؛ كي نتحصّن في لاحق من الأعمال.

أ د صالح بلعيد

تيزي-وزو في: 5 جويلية 2015م.

التربية والتعليم في عالم متغيرٍ ♥

— المقدمة: في البداية أُرْجى خالصَ الشكر والتقدير لمكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بولاية برج-بوعريرج، على الدعوة التي تلقيتها للإسهام في تقديم مُداخلة في الملتقى الدولي السنوي الثامن للجمعية، حول: (دور التربية والمناهج التعليمية في ظلّ تحديات العولمة). وإنهم أحسنوا اختيار الموضوع، بل أصابوا المَفْصَلَ؛ حيث حَيَّنُوا موضوعَ (التربية والتعليم) الذي يُعَدُّ انشغالَ العالم المعاصر؛ باعتباره من الموضوعات التي تُؤَلِّيه الأممُ المتقدِّمةُ أهميةً قصوى للرفق بمجتمعاتها نحو مجتمع المعرفة، إضافةً إلى رَبْطِ هذا الموضوع بتحديات العولمة وهو موضوع كبير؛ حيث العولمة تأتي على دَحْرِ اللغات الوطنية، وهَدْرِ الهويات ومسح التاريخ والسعي إلى تَمِيطِ العالم، وبخاصة الشعوب التي ليس لها وِصَفَات التَّحْصِين، ونحن منها. كما أصابَ مَنْظُمُو الملتقى فضلَ اختيار الموضوع بأنَّ جمعية العلماء المسلمين كان هدفها منذ التأسيس قائماً على إصلاح التربية والتعليم فهي التي أقامت صَرْحَ الهوية والإصلاح عن طريق تلك المدارس التي فتحتها بأولئك المُعَلِّمين المُجاهدين الذين تركوا بصماتهم في الجزائر؛ بأنَّ أَحْيَا العربية التي عرفت الاندثار، فقد كَوَّنت الجمعيةُ جُيُوشاً من المُعَلِّمين الباديسيين؛ كانت بالمرصاد لسياسة فرنسا التَّغريبية.

ومن هنا، يبدو أنَّ الجمعية تُريدُ فَتْحَ هذا الملف الهامَّ والخطير في هذا الوقت الذي ننتطع إلى إصلاح الإصلاح، وتريد وضع بصماتها في عمليات التحسين التربوي، فهذا فعلٌ نبيلٌ؛ لأنَّ الآفةَ المعاصرة والخطيرة في هذا الوقت لا تكمنُ في الفقر ولا في الأمراض، بل في الجهل. ولهذا وقع اختياري على موضوع يدخل في باب التربية، وَوَسَمْتُهُ: **التربية والتعليم في عالمٍ مُتَغَيِّرٍ**، وَيَتَنَزَّلُ في محور: التحديات وأساليب مُواجهتها. أَتناوله وأنا مُشارك ومُنْتَقِد ومُصْلِح في نفس الوقت فلسْتُ مُتَفَرِّجاً، وأعتبرُ ملفَ التربية والتعليم ليس ملكاً لوزارة التربية والتعليم، بل

كلّ المجتمع الجزائري شريك في إدارة هذا الملف، ومن حقّ كلّ مواطن أن يُعطي رأيه في المدرسة، وكيف يُريدُها أن تكون مُعاصرة، ومن حقّه أن يقترح البدائل النوعية التي تُرقي هذه المدرسة؛ لتُواجه الرّهانات الحديثة.

أتناول دراسة هذا الموضوع؛ من باب العلم بأننا نعيش تحديات مُتشابهة، ونحن في عالم سريع الحركة يقع فيه التأثير، ونحن لا نُؤثّر، بل نستقبل التأثيرات وبعضها صدمات قوية، وتدخل في أعماقنا؛ وبخاصّة لدى هذا الجيل الجديد الذي لا يحمل سُبُل الحماية، فما موقعه في إطار تلك التحديات التي تفرض المضايقات التي يقبلونها دون مشاركة، ودون رأي، ودون رفض، بل ينغمسون فيها، وإلاّ سوف يكونون من المنقرضين. ومن خلال هذا رأيت تقسيم محدّدات الموضوع إلى ما يلي:

1 - إكراهات الحاضر: لا ننكر أن هناك مفارقات مُعاصرة تولدت مع الحياة المُعاصرة في ظواهر التّعقيد والتركيب في شتّى المسائل، فالمجتمع المُعاصر له تركيبه وطقوسه وعلاقاته المُتداخلة والتي يصعب التفريق بينها في بعض الأحيان وقد ظهرت حديثاً في أشكال وصُور مُختلفة، وتفرض التّغيير والتّميّط؛ بفعل الثّورة الرّقمية، وتضع العالم أمام تحديات وأسئلة جديدة في عصر العلم والتّقانة وثورة المعلوماتية، وغزو الفضاء، واقتحام المُحيطات، وعصر التّفجّر المعرفي. كما أنّ الزّمن المُعاصر يفرض التّفاعل مع الغير، ضمن عولمة لا تُراعي الخصوصيات، فنرى الشّد والجذب بين الغالب والمُغلوب، وفي الأخير نحن مُغلوبون على أمورنا، لأنّنا لم نسهم في تقانات الشّبكة، لم نشارك في صنع هذا المصير المحتوم؛ لتحقيق معادلة الاندماج العولمي ضمن الخصوصية. وإنّ قانون القويّ غير الموازنين، فحوّل طبيعتها إلى المنفعة، وقلّب معالِم الرّبح والخسارة وأحياناً يغلب الفشل على الفوز، بله الحديث عن تلك الأسئلة التي تبقى حيارى في الرّدّ عليها، أسئلة تُطرح في وضع أضحى شبيهاً بطوفان عاثٍ يُجرف بقوة

الخارقة مجتمعات مُشكّكة في هُويّاتها، ويخلق أزمة في القيم في عالم مُتغيّر، أزمة تغريب القيم في ظلّ العولمة، وأزمة الاختراق التي تحمل صراع الثقافات.

وضمن هذا وذاك "أكون أو لا أكون" مقولة قالها (William Schakspear وليام شكسبير) ومفادها ينطبق علينا في هذا الزمّن المُعولم، زمن رافقته مجموعة من المُعطيات، وأخطرها "تلك المُتصلة بمخاطر الاقتلاع الثقافي والقيمي والخوف من فقدان الهوية؛ حيث أصبحنا مُهدّدين بالتأثيرات السلبية والخطيرة للعولمة على هُويّتنا القومية، وخصوصيّاتنا الثقافيّة؛ لذا فمعاركنا في هذا الجانب تقتضي قبل مُواجهة الآخر (الغرب) تجاوزَ رواسب الماضي، وأطرَ التّقليد، وآليات الاستلاب الفكري والهيمنة الإيديولوجية، وإعادة بناء وحدة الفضاء الثقافي والتّربوي العربي والمسلم، بما يُدعم حرية تداول الأفكار والمنتجات الفنية والأدبية، إلى جانب تدعيم النّشاط الإبداعي. إنّ هذه المقاومة الثقافيّة المشروعة لا يجب أن تتفصل عن قضية التّحرّر والتّغيير الاجتماعيّ والتّنمية الحقيقة ضمن صيرورة إنجازات اقتصادية وسياسية، ونبذ إرث الاستبداد، وسلطة الفرد، ومنطق الهيمنة والإقصاء، فالتّخطيط للثقافة والتّربية على قيم ديمقراطية حديثة مطلب أساسي لتجاوز رواسب العصور التّيوقراطية والأوتوقراطية، والتي ولّدت في لا شعورنا الفردي والجمعي السّياسي والاجتماعي الرّغبة في الهيمنة والتّسلّط¹. هي تحديات تصنع مصيرنا بأن "نكون أو لا نكون" أو يُسجّل علينا الزمّن بأننا من التّاريخ، فقد كنّا ذات يوم، فمن نكون الآن؟

2 – التّحديات التّربوية الحاضرة والمستقبلية: هي كثيرة، ولكن يمكن التّركيز على: توفير التّعليم وتعميمه وإجباريته، وتحسين قاعدة العاملين في التّربية وتطوير التّجهيزات، ومراعاة النّمو الديمغرافي الذي يُصاحبه زيادة في الأميّة. وإلى جانب هذه التّحديات، يمكن الحديث عن ذلك الفراغ الذي نعانيه في:

— الفجوة العلمية بيننا وبين الشّعوب المُتقدّمة.

— الفجوة الرّقمية الواسعة.

— كثرة وسائل الإعلام وتعدّد لغاتها.

— مزاحمة اللهجات للغات الرسمية.

— البطالة والإجرام والعنف.

— الغزو الثقافي المُقلع للهوية.

والسؤال الجوهرى: كيف نعدّ جيلاً يقف أمام هذه التّحديات؟ هذا ما يجب التّفكير فيه، بل تعود الكلمة للنّخبّة التي تُقدّم القراءات العميقة لمن يُهمّه الأمر، علّه يصنع القرار. وأهمّ نقطة جامعة في هذا المجال هي مسألة تخطيط السّياسة اللّغوية والتّربوية، فإذا وقع التّخطيط العقلي والمنطقي، لا شكّ أنّ عوامل النّجاح مُحقّقة². ولهذا كان علينا العمل بما يلي:

1— التّخطيط التّربوي العلمي القائم على الكمّ والنّوع في كلّ المجالات.

2— بناء مناهج جديدة تُسائر تلك التّطورات.

3— إعداد مُعلّمين أكفّاء.

4— إجراء البحوث التّربوية الميدانية.

5— قبول المراجعة والتّقويم.

ومن ثمّ نطرح سؤالاً آخر وهو: ماذا نعلّم للتّلميذ المُعاصر؟

كلّنا يعرف أنّ هذا الجيل يختلف في قالبه عن سلفه، فهو جيل سريع سرعة الزّمن المُعاصر، جيل له نظرة مُغايرة لنظرتنا أيام كُنّا شبّاباً، ولهذا أصبح جيلُ اليوم/ التّلميذ المُعاصر مركزَ اهتمام البحث التّربوي، فإذا أردنا الوصول بالمجتمع المُعاصر إلى المستوى الأفضل، علينا الاهتمام بالطفّل المُعاصر؛ فهو ليس مثل الطّفل القديم. الطّفل المُعاصر مُزوّد بكثير من آليات الذّكاء، ويعرف حقوقه، ولا يقبل الضّرب، ويُعلّم أبويه بما يجري بينه وبين مُعلّمه. الطّفل المُعاصر طفّل مُشاكسٌ ومُناقشٌ وأحياناً مُناقضٌ، لا يقبل حشوّه بالمعلومات، وله مُتطلّباته التي لا تنتهي، فهو يريد توجيهه على تنمية تفكيره، ومُحادثته والاستماع إلى رغباته ومُناقشته ومُقابلته وجهاً لوجه، وإقناعه بالحجّة، وإشراكه في الدرس... ولهذا

فالمُعَلِّمُ المُعَاوِرُ عَلَيْهِ أَنْ يُشْرِكَ تَلْمِيذَهُ، وَيَخْلُقُ لَهُ الْجَوَّ الْمُنَاسِبَ لِلتَّعَلُّمِ، وَيُشْرِكُهُ فِي طَرَحِ الْأَسْئَلَةِ وَالْإِجَابَةِ عَنْهَا، وَعَلَى الْمُعَلِّمِ الْمُعَاوِرِ، كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ وَاعِيًا بِالنَّمُوِّ الْمَعْرِفِيِّ وَالْوُجْدَانِيِّ وَالزَّمَنِيِّ لِلطِّفْلِ الْمُعَاوِرِ، وَمَدَى قَابِلِيَةِ هَذَا الْآخِرِ، وَقُدْرَاتِهِ وَاسْتِعْدَادَاتِهِ. وَعَلَيْهِ لَا بَدَّ أَنْ يَغْنِيَهُ بِرَصِيدَ مَعْرِفِي أَخْلَاقِي: وَعِظُ/ قِصَصُ/ أَمْثَالُ... وَبِرَصِيدِ إِنْسَانِي مِنْ مِثْلِ: حُبِّ الْوَطَنِ/ الْهُوِيَّةِ/ التَّارِيخِ/ الْمَوَاطِنَةِ... وَتَوْعِيَتِهِ بِالْأَخْلَاقِ عَنْ طَرِيقِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ.

وَوُفَّقَ مَنْظُورَ التَّرْبِيَةِ وَالْعُلُومَةِ، نَجِدُ فِيهِمَا الطِّفْلَ الْمُعَاوِرَ يَتَوَزَّعُ بَيْنَ الْهُوِيَّةِ وَالتَّفَتُّحِ، بَيْنَ الثَّبَاتِ وَالتَّغْيِيرِ، بَيْنَ ثَنَائِيَةِ الْأَصَالَةِ وَالْمُعَاوِرَةِ/ الْإِتْبَاعِ وَالْإِسْتِلَابِ... كَمَا يَعِيشُ عَلَى وَقْعِ التَّجْدِيدِ التَّرْبَوِيِّ، وَأَحْيَانًا يُعْلَنُ تَمَرُّدَهُ ضِدَّ الْمَسْكُوكَاتِ النَّوَاهِي وَالْمَحْفُوظَاتِ الْأَوَامِرِ، وَالْكَلِيشِيَهَاتِ الْبَرَّاقَةِ، وَالشَّعَارَاتِ الزَّرَافَةِ الَّتِي لَا تَأْتِي بِالنَّتِيجَةِ. الطِّفْلُ الْمُعَاوِرُ يَكْرَهُ الْإِسْتِعْبَادَانِيَّةَ وَالْأَبْوَانِيَّةَ وَالْيُولِيسَانِيَّةَ، وَلَا يَقْبَلُ بِالْقَهْرِ، وَلَا الْأَوَامِرَ الزَّجْرِيَّةَ. وَلِذَا نَشْهَدُ تَلَامِيذَ يَنْشُدُونَ التَّغْيِيرَ وَالتَّجْدِيدَ، وَيُطَالِبُونَ بِالْعَبَّةِ، وَتَقْلِيصِ النَّصُوصِ، تَلَامِيذَ يَحْمِلُونَ بِاللَّامِمْكِنِ، بَلْ مَسَحُوا الْمُمْكِنَ، فَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ مُمَكِّنٌ، وَهِيَ تَنَاقُضَاتٌ لَا شَكَّ أَنَّهَا سَتُعْجَلُ بِتَحْرِيكِ التَّحْدِيثِ وَالتَّجْدِيدِ فِي ثَوْرَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ تَقْيِيفِيَّةٍ، وَفِي مَطْلَبِ حَضَارِيٍّ جَمْعِيٍّ... وَفِي ظِلِّ هَذِهِ الْمُسْتَجِدَّاتِ هَلْ يُمْكِنُ لِلْمُعَلِّمِ أَنْ يَعْمَلَ عَلَى تَحْقِيقِ أَعْدَادِهَا، وَهَلْ يَسْتَطِيعُ رُكُوبُ الثَّوْرَةِ التَّنْوِيرِيَّةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ تَعَبُّنَةً لِلْجُهِودِ وَمُشَارَكَةً عَامَّةً، وَتَقَبُّلاً لِلْآخِرِ، وَتَسَامُحاً لَغَوِيّاً مَقْبُولاً.

كَلَّمْنَا مَعْنِيُونَ بِالْمَسْأَلَةِ، وَلَكِنْ الْمُعَلِّمُ يَتَحَمَّلُ الْعَاقِبَةَ، وَلِهَذَا عَلَيْهِ أَنْ يَضْطَلَعَ بِدَوْرِهِ فِي تَقْدِيمِ الْحَقَائِقِ، وَيَخْرُجُ مِنَ التَّعَلِيمِ التَّقْلِيدِيِّ إِلَى التَّعَلِيمِ التَّكْنُولُوجِيِّ، وَهَذَا يَتَطَلَّبُ مِنْهُ حَسَنَ احْتَوَاءِ الْمَعْلُومَاتِ، وَامْتِلَاقِ الدَّافِعِيَّةِ، وَلَنْ يَكُونَ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ بَاحِثًا نَشِيطًا، وَمُصَمِّمًا لِنَشِيطَةِ تَعْلِيمِيَّةٍ، وَعَامِلًا عَلَى تَوْفِيرِ الْوَسَائِلِ وَالتَّقْنِيَّاتِ الْإِلَازِمَةِ. وَهَنَا يَدْخُلُ عَالَمُ التَّكْنُولُوجِيَّاتِ الْحَدِيثِ فِي الْعَمَلِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ، بِاسْتِخْدَامِ الْآلَاتِ

والأجهزة التعليمية، لتسهيل مهارات التدريس. ولا يحصل ذلك لدى معلّم الجيل الماضي، ولهذا نحتاج إلى معلّم الجيل لتعليم الجيل.

بالفعل ماذا يمكن أن نعمل أمام تلك التحديات الدّاعية لفعل التّغيير، وفي نظرنا هو فعل عقوقي، وهذا ما غرسه مدرسة الهيمناتية، ويبدو لي بأننا سوف نشهد المزيد من التسامح في كلّ شيء، هناك عولمة إيديولوجية في بنية اقتصادية إعلامية مالية، ومن خلالها سنشهد جموح أولادنا اللامحدود، وسنُشرّ بزمان قادم تلعب فيه (اليوتوب/ youtube) دور التّوجيه، بما ترفعه من أحلام وردية وتطلّعات ورهانات وأوار في دفع العديد من الشّباب إلى الثّورة على منظوماتهم وعلى قيمهم، فماذا أعدنا للتّحوّل القادم؟ وهناك إنذارات كثيرة تتمثّل في تبخيس التّاريخ والتّتكّر للأجداد، والعيش في التّناقضات، والمسّ بالمقدّسات، وسوف نعيش رأسمالية متوحشة، وأولادنا يرغبون في ذلك، بل يرفع بعضهم النّعرات القبلية والنّزاعات الطائفية، والدعوة إلى الانفصال، أو هدم ما تمّ بناؤه، فماذا أعدنا كي لا يقع ذلك الويل؟ وكان يجب رسم أبعاد التّصدّي، أو وضع الحدود الكبرى التي نسعى ألا يخرج منها أولادنا ونعمل على تحقيقها، وهذا بـ:

— "المحافظة على الحياة الإنسانية وتطويرها وتجديدها باستمرار نحو الأحسن بما يُلائم التّطورات والحاجيات والمُتطلّبات والمُستجدات.

— التّدرب على الحياة الاجتماعية، واكتساب عادات العيش مع الآخر في تعاونٍ وتضامنٍ وتكاملٍ جماعي بغضّ النّظر عن اختياراته وميوله وعقيدته...

— التّدرب على الديمقراطية، وتعلّم ممارسة الحرية والمسؤولية، واكتساب الوعي الاجتماعي والاستقلال الذاتي...

— اكتساب مهارة التّكيّف مع الحياة الواقعية دونما استسلام أو تفريط في المبادئ والاختيارات التّحريرية واستشفاف آفاق المستقبل نحو حياة مأمولة مطلوب المساهمة في بنائها، وجعلها حقيقة ملموسة من خلال فعل النّاس، وذكائهم وفكرهم في جوّ من الحرية والمسؤولية...

— اكتساب دُرْبة ممارسة الأنشطة الخلاقة والخيال المُبدع، والتّخطيط للمنجزات المفترض تحقيقها... —

— البحث الدّؤوب في أسباب الإعاقة الاجتماعية والاقتصادية، وأسباب التّخلف والتّصدي لها بالبحث والدراسة والمواجهة دون تردّد، مهما كانت، وكيفما كانت وفي مختلف الطّروف.

— امتلاك القدرة على حلّ المشكلات بمختلف أنواعها، والتّدرب على كفايات التّفكير...³

ومن خلال هذه المُحدّدات نجد التّربية والتّعليم تُسهم في عمليات التّغيير الثقافي السّلمي، أو ربّما نُقل من الصّدّامات، كما نجد عامل تكافؤ الفرص مُطبّقاً، وما يتبع ذلك من ديمقراطية التّعليم، ونكون بذلك قد جسّدنا التّوسّط بين هذه المفارقات الكبيرة، والتي لا يجب أن نُعلّقها على المدرسة وحدها، وإن تتحمّل الجزء الأكبر في ذلك.

3 — المدرسة والمُجتمع: يجب أن نُعلن الحقيقة في البداية بأنّ الأسرة على وجه الخصوص قد رفعت يدها عن تربية أبنائها، وحملت ذلك للمدرسة، فلقد تتصلّت من مَهامها، وأضحت تُعادي التّربية، وهذا الفعل ضدّ الزّمن المُعاصر الذي يسعى إلى ربط وظيفة الأسرة بالتّربية لتمارس التّربية قبل المدرسة أولاً وبالشّراكة مع المدرسة ثانياً. فالأسرة المعاصرة ضدّ التّربية، ولهذا لا يمكن أن يستقيم أمر التّربية في ظلّ جناح متخلّ عن وظيفته، ويستحيل الوصول بعملية التّدريس إلى آمالها "يستحيل التّفكير بالتّربية خارج الحيز الذي يولد فيه الطفل ويستقبل ويتعرّع: الأسرة. فَطالما اعتبر هذا الضرب من (المجتمع الطّبيعي) الذي يتمتّع بخصوصية التّأليف بين البيولوجي والاجتماعي، منبعاً وأساساً لكلّ جماعة منتظمة. وهكذا فإنّه ظلّ يستحيل على كثيرين حتى منتصف القرن التّاسع عشر، تصوّر هيئة للتّربية غير الأسرة؛ باعتبار أنّ الأسرة هي أصل الرّباط الاجتماعي ودعامته، وعليها تقع — كما كتب أحد تلامذة إميل ليتريه Emile Littré

في العام 1876- مسؤولية التربية حتى بلوغ الطفل سنّ الرابعة عشرة. غير أنّ الأمور تغيّرت ابتداءً من اللحظة التي لم يعد يمكن تصوّر التنظيم السياسي فيها وكأنّه صورة مُكبّرة لأسرة تتعلّق برئيس يحميها ويحظرّ عليها، ويأذن لها⁴. وإنّه لا يمكن وجود تربية في غياب أسرة؛ فلأسرة مهام التهيئة الأولى وللمدرسة مهامّ نوعية؛ حيث تعدّ الطفل للمعارف المُجرّدة وللتّقاليد العامّة.

صحيح إنّ المدرسة هي التي تشكّل سلوك الطفل المعيشي، ومن المدرسة تصنع الأجيال، وسبق أن قال (لوثر): من يريد أن يتحكّم في النفوس والعقول عليه أن يتحكّم في المدرسة) فالحديث "عن المدرسة وعن برامجها أو مناهجها يعني وبكلّ بساطة تحديد (البروفيل) المجتمعي لأجيال الغد. وبكلّ بساطة وبداهة أيضاً، فإنّه عندما يريد مجتمع ما أن يغيّر من مساره التاريخي أو أن يصلح منه، تُثار فيه موضوعات التّعليم والتّربية، وفق المثل العليا أو النّموذجية التي يمتلكها ويسعى إليها؛ أي بمعنى أصحّ، وفق لائحة القيم التي لا يستند إليها⁵. يجب تأكيد تلازم هذا الثنائي في أنّ المدرسة جزء من المجتمع، والأسرة جزء من المجتمع، وكان على هذا المجتمع/ الأسرة الإسهام في حمّل انشغالات المدرسة عن طريق الأولياء في الحوارات واللقاءات، وتقديم النّصح والإرشاد؛ فيسهم وليّ التلميذ في البلدان المتقدّمة بتقديم أفكار للمعلّمين ولأصحاب القرار؛ حتى تستجيب المدرسة للحاجات التّعليمية لكلّ طفل، ويتحمّل المدرّسون القسم الأكبر لتحقيق المُتفق عليه، فلا تنفي المدرسة دور الأهل بوصفهم مُربين، أو تتخوّف من فتح الباب لهم، فإنّها تقلّل من أهمية مُعلّميها، وتُظهر قلة النّفوذ بخبرتهم الخاصّة. وفي الحقيقة يجب تعاضد الطرفين "ولا تعمل المدرسة في فراغ اجتماعي، ولا الأهل يجهلون، فكلا الجانبين ملتزمان بالتفاعل المُستمرّ مع المجتمع المُحيط. وهما في الوقت نفسه الأكثر تأثيراً على الطفل، وحيثما تكون تأثيرات أحد هذين الجانبين غير مُلائمة يكون الطفل هو الخاسر⁶". فهل يمكن للمدرسة أن تستجيب بالشراكة مع الأولياء للأمور الجديدة وتوجد الوصّفات التي تجعلها تحمل الشّأن العامّ؛ ومن أجله وُجِدَت، وفي ذات

الوقت تعمل على إيجاد توازن يسعى إلى تعميق الوعي بالذات من جهة، والعناية بتعميق النظر عند الإنسان من جهة أخرى.

وللإجابة عن موقع تحديات التربية والتعليم في هذا العالم المتغير بسرعة، كان عليّ وصف واقع التربية التي تعتبر الفاطرة العاملة على تحقيق/ مواجهة هذه التحديات بما تنتجه من بشر، في ظل مدرسة عربية لا تعمل على تمكين التلميذ امتلاك آليات التفاعل والاندماج في شبكة العلاقات الاجتماعية في ظل قوانين الشد والجذب بين الهوية وعلاقات الثقافة داخل عالم تقاصت أبعاده الجغرافية وتصارعت تياراته الفكرية. هي تحديات كبيرة يمكن قراءتها قراءة تأملية صعبة التنبؤ بمصيرها:

- 1— أكثر من 80 مليون أمّي في الوطن العربي من أصل 420 مليون.
- 2— خمس الأطفال الذين بلغوا سنّ المدرسة لا يستطيعون الالتحاق بالمدارس مع نسبة الهدر.
- 3— أربعة من خمسة 5/4 من المعلمين يجهلون التعامل مع المستجدات الحضارية.

4 — وصف التربية والتعليم في وطننا: حقيق علينا أن نصف التربية والتعليم في مدرستنا كما هي، وهذا لسدّ النقائص، وبغية التحسين، فإنه لم يزدهر الإبداع إلا بوجود النقد، ولم تنقو البلاد المتقدمة سياسياً إلا بوجود معارضة قوية، وهكذا تفعل الأمم الحية والتي لا تخاف من النقد، وفي ذات الوقت لا يجب أن نقف عند السلبيات، ونعتبر كلّ المنجزات عدماً؛ ويعني ذلك نكران هذا التطور النوعي الذي حصل في المجتمع الجزائري عبر المدرسة الجزائرية بما عرفته من تحديات، ومع ذلك كانت لها مخرجات نوعية من منتوجها، والذي نعيه في بعض النقائص، وكنا نأمل أن تكون أحسن بعد مرور ما يقرب من ستين (60) سنة على الاستقلال. ولكن للأسف ضاع الأمل أمام التراجع الذي شهدته المدرسة؛ بدءاً من نهاية التسعينيات، وازداد تخلفها بعد إصلاحات 2004/2003. بل استفحلت ظاهرة

التردي في إخفاق الإصلاحات بترسانتها الكبيرة، وما استهلكته من الميزانية العامة؛ وهي من عرق الفلاح البسيط الذي كان ينظر إلى ابنه على أنه الأمل فينفق عليه بسخاء. ولكن الإصلاحات أتت بتحول رديء، إصلاح لم يكن في مستوى إصلاح السبعينيات، فكأننا لا نتقدم، بل نتراجع القهقري. فالإصلاحات التربوية لم تتجح بالنظر إلى حجم ما كان ينتظره المواطن الجزائري من ضمان العمل، وتغيير الواقع، وأهم إشكاليين معاصرين لم تواجه الإصلاحات هما:

1/3 - إشكال المنهج التعليمي، إنّ مناهجنا تنطلق من الرؤى العربية الوطنية ومن الرؤى الكونية؛ لإكساب المتّمدّس المعرفة بما يتوافق وعمره العقلي وبطرائق حديثة، وإشباع حاجاته العامة بالعلم والثقافة، وإكسابه مختلف المهارات التي تجعل منه رجل المستقبل، هذا في المستوى النظري، ولكن في التطبيق عكس هذا، فنجد تناقضاً بين المأمول والواقع، ولذلك تُصنّف بلادنا تربوياً في الدّول المتأخّرة، ونرى مدرستنا الحالية ما تزال تعيش بين ثقل الماضي، وكهولة الحاضر، فقد دخلت مُنْعرجاً حَرَجاً، وما تزال تعيش وضعيّة اللاتطابق Indéquation بين مُخرجاتها وقطاعات الشّغل، وتجلّى ذلك في عدم كفاية المردودية المتّملّ في الضّعف اللّغوي والبطلالة، مع ما يُسجّل من مُعضلة الأميّة التي لا تزال جراحاتها عميقة في وطننا، و7 مليون أمّي ليس بالمسألة الهينة، بل هو ما يطرح سؤالاً كبيراً حول نجاعة النّظام التّربوي وتلك الخطط التي وضعت للقضاء على الأميّة، ولم تستطع تقليص العدد، ومتى تحين ساعة الديمقراطية ويصل الجميع إلى أنوار المعرفة؟ ومتى نربح رهان مجتمع المعرفة؟ ولربح "رهان مجتمع المعرفة؛ يقتضي تحديثاً سياسياً حقيقياً، يُحدّد الاختيارات الكبرى والاستراتيجيات المناسبة لبناء المواطن/ الإنسان وفق رؤية واضحة ولغات محدّدة. وأيضاً اقتصاد يضع في صلب أولوياته تأهيل الصّناعة الوطنية بأيادٍ وطنية، وكذا بلورة مشروع ثقافي/ قيمي مُرتبط بهويّة البلد يعزّز من القيم الأصليّة وفي نفس الوقت مُنفتح على الثّقافات الأخرى، بنفس استيعابي تواصلِي، غير مُستلب⁷."

ويُضاف إلى ذلك ضحالة ما يحمله المنهاج المدرسي من مفردات ومفاهيم لا تعمل على الرقي بفكر التلميذ، بقدر ما تُعيقه عن النظر إلى الأمام، وتغرس فيه النظرة الماضوية بكل ما يحمله الماضي من مساوئ، وما كنّا نتعلّمه من مسكوكات عفا عليها الزمان (سيرُوا على قدر ضُعفائكم) والمسألة الأدهى أنّ المنهج التعليمي في كثير من المقامات مُستورد من بلاد غير بلادنا، ويريد المسؤولون أن يُطبّقوه على مُجتمع لا يتمشى وأرضيته المعرفية، ولا مع سلوكه الوطني، ولا مع تاريخه، ولا مع حضارته، وكأنّي بهم يريدون تنميته وفق أفكار الآخرين، وعلى أساس ذلك هو التّوير.

2/3 - إشكال تكوين المُعلّم. من أسباب ضعف المستوى اللّغوي لدى التّلاميذ ضعف المُعلّم في المقام الأول؛ لأنّ المُعلّم النّاجح هو الذي يصنع المنهج، ويوجد المحتوى، ويبدع في طرائق التّلقين، فهو قُطْب الرّحى كما يُقال "يعدّ المدرّس قطب الرّحى في العملية التّربوية، وإليه يرجع الفضل في نجاحها غالباً، أو يرجع إليه السّبب في إخفاقها في الأعمّ الأغلب؛ إذ مهما تكن المناهج مبنية على أُسس علمية فإنّها لا تحقّق أغراضها إلّا إذا كان يقوم بتطبيقها مدرّسٌ كفيّ، ويمكن أن يُرمّم المدرّس إذا كان كفيّاً ومُتمكناً بعض التّعثرات في المناهج حتى لو لم تكن مبنية على أُسس علمية واضحة"⁸. إنّ المُعلّم المُعاصر يعيش في عالم رقّميّ، من خلال تعامله مع العِلْم والمعارف الجديدة، والتّلاميذ لهم مُستويات مُتباينة في استعمال الأجهزة، فهم مُقبِلون على الحاضر والمُستقبل، فهل المُعلّم سيعمل على التّغيير لملاحقة مَعلومات عصره ويكون رقّميّاً؟ وهل يتأقلم مع الفسبة والتّوترة واللّويحة والشّابكة؟ في الوقت الذي يلعب التّلاميذ بهذه الأشياء لعباً مُريحاً، فأين محلّ المُعلّم المُعاصر منها؟ علماً أنّ الكثير من المُعلّمين لا يمسون مفاتيح هذا الأجهزة المُعاصرة، فهنا الخلل، وكيف يمكن أن تتمّ عمليات التّحويل والتّغيير والتّوير والتّوجيه والتّقيف بمحرّك لا يقبل الشّحن. بالإضافة إلى الدّور المنوط به تربوياً وهو التّوجيه والإرشاد والتّعزيز والتّشجيع والبحث، فهل يقوم المُعلّم بهذه الأطوار؟

والسؤال المعاصر: كيف يُتلافى القصور في تأهيل المُعلِّم، أو في صنع مُعلِّم الغد؟ ولتأهيل المُعلِّم لا بدّ أن يكون العملُ ضمن المُعطيات التالية: التمكن من المادة — وتمثّل المنهج التربوي — واعتماد المرونة في اختيار طرائق التدريس — والتّركيز على التّطبيقات — والعمل بأسلوب التّشجيع والتّعزيز — والقدرة على التّعامل مع التّقنيات المعاصرة — والقدرة على تفهم نفسية التلاميذ واحداً واحداً — القدرة على توظيف مناهج التّقويم.

ولذلك قلتُ: إنّه حصلت أزمة التّعليم في بلادنا، وهذا ما يقضّ مضجع المواطن الذي يدفع فاتورة كبيرة لتعليم أولاده، ويستهلك ميزانيةً مُعتبرةً من الدّولة، ودون مرّدود مُرضٍ، فأين الخلل؟ انشغال كبير هو انشغال العامّة على اعتبار أنّ المدرسةَ محطةً اهتمام الجميع، فأخفاقها هو الذي هزّ قواعدها، وأتاحت موجات الانتقادات حولها.

5 — المُعلِّم في عالم مُتغيّر: إنّ مُعلِّم هذا القرن تنتظره مهامٌ عديدةٌ، ومنها القضاء على ضعفه اللّغوي والعلمي والحاسوبي، ويكونُ مُنتجاً ومؤلّفاً، ويعمل على ترقية تلاميذه في الدافعية والتّعلّم، وفي المشاركة الإيجابية، ويعمل على التّغيير الإيجابي. ومن هذا التّحليل يمكن القول: إنّ هذا المُعلِّم الذي يعيش في واقع مُتغيّر عليه أن يلعب دوره، ويؤدّي وظيفته ضمن:

"1 — الإسهام الإيجابي في بناء القرن الحادي والعشرين، سواء على مستوى البيئة المباشرة للمدرسة أو المجتمع الوطني أو العالم.

2 — تنظيم البيئة التّعليمية (المدرسة) كمركز للتّفكير في التّحديات المحليّة أو العالميّة، وليس كمركز استقبال للمعلومات فقط.

3 — الإسهام في حركة التّغيير الاجتماعي والتّنمية البشرية على المستوى المحلي الذي تقع فيه المدرسة، وكذلك على المستويين الوطني والعالمي.

4 — نوعية التّلاميذ بطبيعة مجتمع الحادي والعشرين، وتدريبهم على الممارسات والمعارف التي يحتاجها هذا العصر.

5 — التَّحوُّلُ من دور ووظيفة ناقل للمعلومات إلى دور ووظيفة الإرشاد والتَّوجيه التَّربوي والاجتماعي؛ بمعنى أن يكون المُعلِّم مصدرًا للمعرفة الحديثة للطَّالب؛ سواء أكانت هذه المعرفة في المحيط المباشر للمدرسة، أو في المجتمع ككلّ...

6 — مساعدة التَّلاميذ على تكوين المهارات المعرفية والاجتماعية اللازمة لحياة العالم المتغيّر في القرن الحادي والعشرين...

7 — مساعدة التَّلاميذ من ذوي الحاجات الخاصّة سواء أكانوا من الطَّلبة المُتفوقين أو من الطَّلبة بطييء التَّعلُّم.

8 — مساعدة الطَّالب على فهم ثقافته والمحافظة عليها، وفهم عناصر التَّجديد فيها. وفي ذات الوقت مساعدته لفهم الثَّقافة العالميّة ومُعطياتها، والتَّعامل معها بشكل بناء غير مُنعصّب أو مُتحيّز؛ أي المُحافظة على هُويته الثَّقافية القوميّة والتَّفتح على الثَّقافة العالميّة والاستفادة منها⁹.

يجب العُلْمُ بأنّه إذا حَصَلَ تكوينُ المُعلِّم تكويناً جيّداً، يمكن التَّغلّب على كثير من المُضايقات المُعاصرة، فهو مُحرِّك العمليّة التَّعليميّة، بل هو الذي يصنع المجتمع وفق تطلّعاته، ووفق المحافظة على خصوصيّاته. فإذا على المُعلِّم أن يزرع في تلاميذه ما يلي:

— زرع ثقافة الهوية والمواطنة: على المُعلِّم أن يكون واعياً بمسألة الهوية التي تحتاج إلى تحصين لتكونَ مانعةً؛ لأنّ هُويتنا مَغزُوة بثقافة أورومتوسطيّة؛ ثقافة فرنسيّة فالضرورة تستدعي أخذ هذه الإكراهات بعين الاعتبار، خصوصاً وأنّها باتت حاضرة في حياة الأوطان مثلما هو الحال بالنّسبة للبلدان المغاربيّة؛ ذلك أنّنا عندما نفهم آليّاتها. كما نحاول نحن هنا، فإنّ ذلك سيمكّننا من تدبيرها عوضَ تحمُّل تبعاتها، بل وإدارتها على النّحو الذي يتيح أحسن استفادة مُمكنة، مع الحدّ من تداعياتها وآثارها السَّلبية¹⁰. وعن طريق زرع ثقافة الهوية يمكن أن نتصدّى للتَّتميط، على أساس احترام الخصوصيّات، ولا يعني الانغلاق، بقدر ما يعني الأخذ

والعطاء بصورة نديّة. فالرّهان مأمول في إيجاد التّوازن بين الخُصوصي والكوني/ المحلي والعالمي، وعلى المُثُل العليا أن تكون ظاهرةً على المستوى الأخلاقي النظري، حيث يظهر الدين في الأمل، وفي الممارسة.

— زرع ثقافة تعزيز المواطنة اللّغوية: إنّ التّربية المعاصرة والعولمة اللّغوية لا تقدّسان اللّغة الأمّ/ اللّغة الأُمّة بقدر ما تنظران إلى نفعية ومردود اللّغة، كما تنظران للغة بما لها من علميّة ووظيفة، كما أنّ مجتمع المعرفة يتطلّب رأسمال معرفي؛ يدير المدرسة المُعاصرة وفق إكراهات اليوم والمستقبل، وضمن مُضايقات التقانات. ووفق هذا المنظور، ما مقام العربية في الرّأسمال المعرفي الذي تفتقر فيه إلى الحدود الدنيا؟ وهذا ممّا يطرحه الطّفل المعاصر الذي يرى لغته بعيدة عن الاستعمال في القطاعات الحيوية؛ لأنّها تقوم عليها مدرسة هزيلة لا زالت تعيش على مُخلفات الماضي، ولم تدخل عصر التّكنولوجيا بعد. غابت التقانات المعاصرة عن مدرسة تُعلّم العربية وبالعربية، فما مقام اللّغة الأمّ/ اللّغة الأُمّة التي تُضيق على التّلميذ الحدود؛ حيث يعتب المحيط الخارجي إلى التّعليم العالي فيجد تلك الثّنائية وغلبة الفرنسية، وقلة وجود اللّغة الأمّ في الوسائل المُعاصرة، وفي العِلْم الحديث فيقع حائراً مُتسائلاً: كيف قضيت اثنتي عشرة (12) سنة بلغة لا أتواصل بها، ولا أستخدم من تقنيات العصر؟ هنا تبدو الحيرة، ويظهر القلق، ومن ثمّ الشكّ، وعند ذلك تُطرح أسئلة اللّغة: ما فائدة لغة لا تُؤكّني الخبز، لغة لا أتواصل بها مع شخص يخالفني اللّغة... هنا تبدأ ملامح الخُصوصية في الاضمحلال أمام الهيمنة والقهر اللّغوي الفرنسي، ويُلاحظ اللّبيب كيف تنهار اللّغات الأمّ أمام لغات العِلْم ويظهر بُعد المال في الوعي بمأزق التّتميط، فلا جدال بعد ذلك، بأن اللّغة العربية بما لها من مقام أصبحت لا تُنشد في ذاتها، فما العمل؟ وإنّ الجامع الأكبر في كلّ هذا هو سؤال الهويّة اللّغوية، والآن نعيش زمن ضياع الهويات، هويتنا اللّغوية في خطر؛ ولإنقاذها من الخطر، كان علينا ترقية هذه اللّغة لتكون علميّة، وللنفاذ إلى مصادر المعرفة؛ وإذا عملنا بهذه الأمور، سوف تتقلّص الفجوة الرقمية، وتتل

العربية مقامها في أوطانها أولاً، ثم بين اللغات العالمية، وفي مواقع التواصل الاجتماعي. وأمام التعرّف في التواصل العادي، وأمام الكثير من المضايقات، إلى أين تسيّر الأمور، وتبقى معنا ثلاثة اختيارات:

1— "القطيعة مع الآخر، واختيار سجن الآخر (السلفية).

2— القطيعة مع الأنا، واختيار سجن الآخر (التغريب).

3— القول بالتفاعل وما يقتضيه من ثمن (التوفيق)¹¹.

وفي الحقيقة لسنا في موقع الاختيار، ولا بدّ من تدخل أولي القرار، لأنّ العربية في ذاتها لغة طبيعية وعلمية وهي لغتنا وقدرنا، وكلّ لغة وقع الاهتمام بها تترقى ولكنّ المعطيات الحضارية المعاصرة، وفعل العولمة يسعيان للقضاء على اللغات الوطنية، فهل يعني ذلك الرضوخ والاستسلام للأمر الواقع؟ يجب الوعي بأنّ العرب جميعاً لا حياة لهم بدون هويتهم اللغوية المُمثّلة في العربية، وكان عليهم العمل على أن تكون حاضرة كأداة ووسيلة الوجود، وبدونها لا يساؤون جناح بعوضة، وبدونها لا يصلّون إلى صنّع إبرة، وما سمعنا بأنّ مجتمعاً تقدّم بلغة أجنبية بتاتاً. إذاً لماذا لا نقصد طريق تعميم استعمال العربية في مواطنها، ونغلق هذا الملف بصورة نهائية لماذا لا نطرد من أنفسنا فعاليات وتوجهات الفرنكفونية والكمونيستية، ونصبح مثلاً مثل الشعوب التي تُقدّس لغاتها، وهي مُحترمة بلغاتها لماذا نحن العرب نكرات في هذا المجال.

وكان لا بدّ من ترسيخ أهمية اللغات الوطنية، فهي قضية يجب الدفاع عنها بتعزيز مكانتها في المجتمع؛ فتعزيزها من تعزيز الدين، وتحبيبها للتلاميذ أكثر من ضرورة، بل وجعلها قضية أولية، وربطها بالوجود والأمن، فلا أمن ولا استقرار دون لغة وطنية موحّدة. ولهذا تحتاج المسألة اللغوية إلى برنامج استعجالي يأخذ أمور التربية بالتراتب:

1— تعميم تدريس العربية في كلّ المراحل.

2— تكوين المُكوّنين وفقّ الدرس اللساني المعاصر.

3 — وضع حكمة تربوية متينة في التوجيه والتسيير.

4 — الاهتمام بالتدريس الجيد للغات الأجنبية؛ باعتماد منهج البرغماتية الذي تنصّ عليه اللسانيات التطبيقية.

5 — العمل على كسب رهان المعاصرة، وفق: المقاربات النقدية — تأسيس ورش العمل — تفريغ الباحثين التربويين للبحث التربوي — تكثيف التأليف المدرسي — إقرار فلسفة تكافؤ الفرص — تأسيس مدارس خصوصية وفق برامج الوزارة.

وبأمثال هذه البرامج، وبتقديم المشاريع التربوية يحصل التوفيق بين لغات الوجدان ولغات العلم، بدل أن نعيش الفوضى اللغوية التي بدأت تنعكس علينا، وهي تهدّد مستقبلنا في سياق تطويع الفوضى اللغوية، وقبول القياس على ما لا يُقاس. إذاً الحلول موجودة، وهي في أفكار بعض نخبتنا، ويمكن اختصارها في: الانطلاق من الواقع اللغوي، واعتماد المرجعيات الحضارية والعلمية، وتهيئة مُستلزمات النّفتح التي لا تعني قلع السّقف، كما يقول مولود قاسم، والتّموقع اللّغوي الذي يسميه أحمد بوكوس La glocalisation للتّوفيق بين لغاتنا: العربية + المازيغيات + لغة الانفتاح، والتّمييز بين المراحل التّعليمية التي تقبل التعدّدية اللّغوية، وتغليب لغات الهوية والقيم.

أيها الإخوة، هناك حقائق تجاهلناها، فقد تغافلنا عن زرع القيم الوطنية، رفعنا أيادينا عن الإسهام في التّربية، لم نرافق أولادنا في استعمال التّقانات المعاصرة ولم نزرع التّربية مثلاً زرعنا العلم، ولم نُجب عن أسئلة الحاضر، وإن أجبنا عن بعضها بخبر (كان أبي) ولم نُعالج ضحالة أوضاعنا الاقتصادية والفكرية والتّربوية والتّقافية ولم نُعالج تخلفنا العميق والحادّ، وتركنا الأمور تتعقّد حتى تتاسلت فينا قيم التّعصّب إلى جانب اللامبالاة... وإلى متى سيستمر الصّمت عن الأوضاع التّربوية المشينة ونستمر في تقديم التّوصيات عقب كل ملتقى دون بديل نوعي فعّال، ودون إحداث التّغيير؟ متى نجعل ملفّ التّربية والتعليم هاجساً أمنياً؟

إنّ واقع التّردّي التّربوي التّعليمي يتطلّب ثورةً ثقافيّةً لأجل التّغيير، ولا بدّ من كسر فرملة الحركية الاجتماعية، وكسر ثقافة الاستبداد، وطرح أسئلة الحاضر وهي:

— كيف نكون لنا معرفة أساسية متعدّدة الأبعاد تستند إلى مناهج البحث والنّماء والتّجديد؟

— كيف لنا أن نتحصّل على كفايات التّحويل والانتقال والتّخلّص من الجمود والثّبات؟

— كيف نتمكّن من امتلاك الفكر النّقدي والتّخصيص والمرونة في مواجهة المشكلات وفي صنع القرار؟

وإنّنا بحاجة إلى إصلاح حقيقي؛ إصلاح الإصلاح التّربوي الذي يُراعي الاهتمامات والحاجيات الحقيقية للأمة في الحاضر والمستقبل، وعليه نروم تقديم هذه الأفكار بمناسبة هذا اللقاء الذي قدّمت فيه جمعية العلماء المسلمين أفكارها الوطنية والتّحسينية منذ نشأتها، بل كانت السّباقة في الحفاظ على الهوية/ المواطنة اللّغوية، وما كان من وجود للعربية في وطننا، إلّا بفضل تلك المدارس التي زرّعها علماء الجمعية في كلّ مدن ومداشر الجزائر، كما أنّ أوّل مدرسة دولة الاستقلال لم تكن تظّهر فيها العربية إلّا بتلك النّخبة المُجاهدة التي أنارت عقول إدارتنا بالعلم، فأنعم بها من مُريدي الجمعية! وكان لا بدّ من محو هذه الضبابية بتقديم الأفكار الجديدة التي قد تعمل على تفعيل المدرسة الجزائرية وفق الراهن والمأمول، وعليه نقول: نحن بحاجة إلى وصفات مُعاصرة للعيش في عالم مُتغيّر بحاجة إلى:

أ — تفعيل المؤسّسات العالمية والعربية: ولا بدّ في هذا الموقف من مساعلة اليونسكو والألكسو وما قدّمته من تعاونٍ علميٍّ في مجال تقديم المساعدات العلمية والثقافية للشّعوب الضّعيفة، وما هي تلك المشاريع التي تجعل هذه الشّعوب مُحفّظة

بخصوصياتها، في ظلّ الوحدة في التّوّع. هناك تحديات نابعة من أداء المؤسّسات العالمية، وكان عليها أن تدافع على التّميّز، في عصر التّنافس.

ب — مدرسة المُستقبل بحاجة إلى تربية المُستقبل: إنّ مدرسة المُستقبل تعني تحريك الواقع الحالي نحو الواقع القادم؛ هذا الواقع الذي يحمل مَخاطر وضُغوط ومخاوف، ويفرض وُعوداً قد لا تتحقّق، وعليه لا بدّ من التّحرّك ضمن مُتحرّكين: أني وتالي:

"فأما الآنِي يتمثّل في:

- 1 — إدراج الفكر المُستقبلي في المناهج والمقرّرات خاصّة الجامعات العربيّة.
- 2 — إعادة تأهيل المُعلّم الحالي على أساليب التّدرّس المنطلقة من منهجية المُستقبل.

وأما المُتحرّك التّالي:

- 1 — فتح المدرسة على الثّقافة العربيّة بهدف تجديدها لا ترديدها أو تلقينها.
- 2 — فتح المدرسة العربيّة على الثّقافة العالميّة بهدف التّفاعل معها لا الوقوف منها لا موقف المنبر أو الخائف المُتردّد المنعزل¹².

إنّ مدرسة المُستقبل التّعليميّة بمُدخلاتها ومُخرجاتها ستواجه تحديات البيئّة ومكان العمل، وتحديات علاقة المؤسّسة التّربويّة بالدولة، والتّحوّلات العميقة في علاقة الفرد بالمجتمع، وما يطرح في الوقت المُعاصر من مُواطنة ومُجتمع المعرفة. وهناك تحديات خارجيّة، من مثل:

- " — رهان حيازة القدرة التّنافسيّة الذي فرضته عولمة الاقتصاد، والذي بدأ يفرض على المؤسّسة التّعليميّة بتعديلات ضخمة من أجل إعداد مُتعلّمين بمستوى عالٍ من المهارات، والاستعدادات عبر شتى التّخصصات والمعارف المُستحدثة.
- تَعَاظُم دور القوى الخارجيّة في توجيه السّيّاسات التّعليميّة.
- تعدّد مصادر المعرفة الذي وفرته وسائط المعلومات والاتّصال والتي ستحوّل أنماط التّمدرس التّقليديّة وتعلّم الصّغار كافيّة التّعامل مع المعلومة.

— تداخل العلم والثقافة والمعرفة في التأثير على الحياة اليومية، وبرز مهارات وأنماط تفاعل وعلاقات اجتماعية ومهنية جديدة بدأت تؤثر على تعريف الفرد المتعلم، وتدعو إلى ضرورة استجابة المؤسسة التعليمية لذلك، وتحضير الطالب إلى مجتمع الغد القائم على المعرفة والعلوم المعقدة والتقنيات.

— دخول مؤسسات اقتصادية للاستثمار في قطاع التعليم.

— الاحتلال الأجنبي في فلسطين والعراق والجولان السوري المحتل من قبل الكيان الصهيوني والمؤامرات التي تتعرض لها بعض الدول العربية الأخرى¹³.

وأمام كل هذا لا نزال نحلم بالغد الذي لم نقدم له ما يمكن أن يُقدم، لا تزال أعمالنا دون طموحنا، لم نقم بما يجب أن يُنجز في سبيل مدرسة جديدة مُعاصرة تقبل الاستفادة من الماضي، وتغوص مع الحاضر.

ج — معلّم مدرسة المستقبل: تتطأب مدرسة المستقبل مُعلّماً كفاً يلمّ بمهارتين معاً: التخصّص العلمي والتأهيل التربوي. وتنصّ مختلف الدراسات على:

"1— أن يكونَ مصدر معرفة حديثة، ويكون قادراً على إرشاد تلاميذه إلى مصادر المعرفة في المحيط المباشر للمدرسة وفي المجتمع الكبير.

2— أن يكونَ قادراً على مساعدة التلاميذ لتكوين المهارات المعرفية والاجتماعية اللازمة للقرن الحادي والعشرين مثل سرعة الاطلاع، وتحليل المشكلة، واستخدام المعلومات المتوفرة لتكوين اتجاه علمي نحو قضية أو ظاهرة أو مشكلة.

3— أن يكونَ قادراً على مُساعدة الطلّبة ذوي الحاجات الخاصة؛ سواء كانوا من الطلّبة المتفوقين أو الطلّبة بطيئ التعلّم.

4— أن يكونَ قادراً على مساعدة التلميذ على فهم ثقافته والمحافظة عليها، وفهم عناصر التجديد فيها. وفي نفس الوقت فهم الثقافة العالمية ومعطياتها، والتعامل معها بشكل إيجابي بغير تعصّب أو تحيّز؛ أي المحافظة على هويته الثقافية، والتفتح على الثقافة العالمية في آن واحد.

- 5- أن يكون قادراً على تنظيم البيئة المدرسية بما في ذلك الفصل الدراسي بحيث تُشكّل المدرسة أو الفصل وحدة تفكير تحليلي وإيجابي.
- 6- أن يكون معلماً وخبيراً بالطبيعة الإنسانية في آن واحد.
- 7- أن يمتلك روح المبادرة للتجريب والتجديد، ويشجّع تلاميذه الذين يُظهرون ميولاً ابتكارية وإبداعية.
- 8- أن يكون مؤمناً برسائلته ودوره في مجتمع المستقبل.
- 9- أن يكون مُدرّباً ومؤهّلاً مع عالم المعلومات والاتصالات.
- 10- أن يكون ملماً بالتقنيات التربوية الحديثة، بما في ذلك استعمال الحاسوب وتقنيات تحليل المعلومات والبيانات.
- 11- أن يكون قُدوة اجتماعية وعلمية وأخلاقية لتلاميذه وبيئة المدرسة المحلية ومحيطها الاجتماعي الأوسع¹⁴.

- الخاتمة: مرة أخرى، يجب الوعي بأننا في عالم غير عالم الأمس، عالم يُسمّى عالم الاختراق الثقافي الذي يدعو إلى مسح الهوية الوطنية، والقَبُول بالعولمة كما هي، دون مُراعاة لخصوصيات الاختراق في منظومة القيم، وقَبُول التسامح اللغوي بأمر واقع، وتدجين التربية الإسلامية، وحذف كل ما يُشير إلى التشدّد على الآخر وتليين أدب الطُفَل بمنظومة القَبُول دون مُناقشة، وعدم البحث في الأسباب ولا في المآلات... وهذا كلّهُ بدعوى القَبُول بالأمر الواقع، دون الاستشارة لأننا في زمن الغلبة للأقوى، ونحن ضعاف، فلا مجال للمناقشة، بل البحث فقط في آليات التطبيق. وإننا في عالم ينظر إلى المُتعلّم = التلميذ/ الطالب بدلال، وإنه ملكٌ يَحْتَاج إلى خَدَمٍ وحشَمٍ ليرضى عنا، ويصحبه ما ظهَرَ من تربية قيمية لم تكن في الماضي، وهي المُناداة بحقوق الطُفَل في التدريس، وفي إنزاله مُتعلّماً يملك قدرات واحترام سلوكه وأفكاره، وعلى المُعلّم أن يُرافقه ويُدرّبه ويكوّنه، ويؤكد ضرورة الابتعاد عن الوظيفة التسلطية والوظيفة التوجيهية إلى وظيفة تربيّة لا غير.

أيها الحضور: إنَّ ما تمَّ تقديمه لا يعني أنَّها الخلاصةُ النهائيَّةُ والحلولُ المثاليَّةُ بل يمكن اعتبارُ ذلك ورقةَ عملٍ مطروحةٍ للمناقشة، وأرجو أن نتوصَّلَ إلى نتائجٍ إيجابيةٍ؛ في إطار التَّجديدِ التَّربويِّ لمواكبةِ مُتطلَّباتِ مُجتمعنا الذي يعولُ كثيراً على التَّربيةِ والتَّعليمِ؛ باعتبارهما صانعي رجال الغد، وهما باب الدخول إلى مجتمع المعرفة.

الهوامش:

-
- ♥ — أُعدت هذه المداخلةُ للملتقى الدولي الثامن لجمعية لعلماء المسلمين الجزائريين، فرع برج-بوعريج، أيام: 6-7-1436 هـ، جُمادى الثانية/ 27-28 مارس 2015. تحت عنوان: دور التَّربيةِ والمناهج التَّعليمية في ظلِّ تحديات العولمة.
- 1 — حسن علوز "أزمة القيم في عالمٍ مُتغيِّر -ملاحظات نقدية- مجلة عالم التَّربية. الرباط: 2012، المجلس الأعلى للتَّعليم، عدد (التَّربية على القيم) رقم 21، ص 189-190.
- 2 — ينظر: صالح بلعيد، السياسة اللُّغوية والتَّخطيط اللُّغوي في الجزائر: الواقع والمأمول. مقالة غير منشورة. أُلقيت في اليوم الدراسي حول (السياسة اللُّغوية والتَّخطيط اللُّغوي) بجامعة سعيدة يوم: 11 مارس 2015.
- 3 — المحبوب حبيبي، في الثَّورة الاجتماعية والتَّغيير والتَّجديد في التَّربية والثقافة أولاً... المغرب: 2010، مطبعة المتقي برينتر بالمُحمدية، ص 13.
- 4 — عمل جماعي، أوضاع التَّربية وشروطها، ط1. بيروت: 2014، منشورات مؤسَّسة الفكر العربي، سلسلة (حضارة واحدة) ص 11.
- 5 — مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، التَّربية والمواطنة في العالم العربي. تونس: 2005، سلسلة (خارج السلسلة رقم 4) ص 11.
- 6 — Joan Freeman التَّربية الأساسية النُّخبة وتطوير الكفاءات، تر: صالحة سنقر. دمشق: 1998، المركز العربي للتَّعريب والتَّرجمة والتَّأليف والنَّشر، ص 220.
- 7 — رشيد جرموني "المنظومة التَّربوية المغربية ومجتمع المعرفة تحديات ورهانات" مجلة علوم التَّربية. الرباط: 2011 المعاهد، العدد السَّابع والأربعون، ص 127.
- 8 — محمود السَّيد، دراسات تربوية. دمشق: 2010، وزارة الثقافة/ الهيئة العامَّة السُّورية للكتاب ص 82.

- 9 — علي الحوات "المعلم في عالم مُتغيّر" مجلة علوم التربية. الرباط: 2000، المعاهد المجلد الثاني، العدد التاسع عشر، ص 20-21.
- 10 — أحمد معتصم "اللغات المغاربية في مواجهة التفوّق الثقافي الأوروبي ومتوسطي" تر: البشير تامر، مجلة المدرسة المغربية. الرباط: 2011، منشورات المجلس الأعلى للتعليم، عدد (اللغات في المدرسة المغربية) العدد (3) ص 65.
- 11 — محمد الشيباني "الطفل العربي بين اللغة الأمّ والتّواصل مع العصر: أبعاد المسألة وإطارها المنهجي" مجلة اللغة والتّواصل. الرباط: 2008، د ت ن، ص 117.
- 12 — علي الهادي الحوات، التربية العربية رؤية لمجتمع القرن الحادي والعشرين، ط1. طرابلس: 2004 منشورات اللجنة الوطنية الليبية للتربية والثقافة والعلوم، الإصدار الأول (1) ص 70-71.
- 13 — المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، خطة تطوير التعليم في الوطن العربي. تونس: 2008، ص 39.
- 14 — علي الهادي الحوات، التربية العربية رؤية لمجتمع القرن الحادي والعشرين، ط1. طرابلس: 2004 منشورات اللجنة الوطنية الليبية للتربية والثقافة والعلوم، الإصدار الأول (1) ص 182-183.

العُنفُ في مُجتمَعِنَا، هلْ مِنْ حلٍّ؟

— المقدمة: تكمنُ أهميَّةُ هذا الموضوع في هذا الوقت؛ كونهُ يأتي في إطار تصاعد ظاهرة العُنف في المجتمع الجزائري بشكل غير سابق، ولم نُفكر أن ندرُسَ هذه الظاهرة الخطيرة التي قد تكون سبباً لما لا يُحمد عُقباه، أو نقترح الحلول التي قد تَحُدُّ من الظاهرة. كما تأتي أهمية هذا الموضوع في أنه يطرح القضية للمناقشة بصدد إيجاد الحلول اللازمة، ولَفَتَ نظر الجميع إلى البحث في تجفيف منابع العُنف ولا يكون ذلك إلا بتعاضُد الجميع، ونروم من الباحثين النزول إلى الميدان لمعرفة الأسباب؛ التي تجعل المجتمع يعمل أو يُسهِم في تقديم الوصفات اللازمة.

ولقد سَكَنَّا عن هذه الظاهرة التي أصبحت فعلاً حتى طالَ القتلُ أحدَ اللاعبين (IBOSY إيبوسي) وعند ذلك استنفرت القيادة العامة العموم والخصوص، على أنَّ العُنف في الملاعب يأخذ مجرىً آخرَ، ولا بدَّ من التَّدخُّل السَّريع، وعشنا مرحلة أسبوع تحت شعار (لا للعُنف في الملاعب) ثمَّ سَكَنَّا عن الظَّاهرة، وكأنَّ لا حدثَ مرَّ من هنا وكان منّا. والحقيقة إنَّ العُنف له مجاري كثيرة، وهو مُتَنَوِّع ومُتَعَدِّد ومُتَنامي، وهو موجود في كثير من مناحي حياتنا، ولكنه يظهر في الملاعب بشكل تلقائي، لما له من حِمِيَّة طافحة من شباب كُروي مُتَشَجِّج، شباب يحمل أفكار التَّهْيِيج، بما غُذي من شعارات التَّحريض. وإنَّه لو وقع الاهتمام بتلك الظواهر المُخلَّة لفعل الاحتفاء لَمَّا وصلنا إلى الحدِّ الذي نُوصم به من التَّخَلُّف، أو بالشَّعب الذي يعنف أكثر من الآخرين، وبالشَّعب الذي يقتل اللاعبين.

وما يمكن أن يُقال في هذا الموضوع، فإنَّه لَوْحِظَ نوعٌ من التَّسَيِّب أو الاستقالة التي رُفِعت من قبل المدرسة والأسرة، ومن لا اهتمامَ من المجتمع في أخذ زمام تربية الشَّباب بالنَّواهي، بدل رميهم إلى الدَّولة دون مراسي، والدَّولة ماذا تفعل وهي مُتسامحة مع تلك الكثرة، وأحياناً هزيلة لا سلطةَ لها مع الشَّباب أو مع المُراهقين والأحداث؛ بدعوى السنِّ القانونية، إضافة إلى غياب دور مُؤسَّسة

المسجد في غرس الوازع الأخلاقي، وزرع ثقافة احترام الآخر، وعدم فهم المسألة الجوهر بأنّ التعدي على ملك الغير من الحرام، وأنّ الملك العام يحتاج أن يُصان وأنّ بعض الشباب الطائش ينظرون إلى الملك العام على أنّه من البايك، يجوز فيه الاستحواذ والفساد، وكأنّه ملك للدولة الأجنبية. كما ظهر نوع من اللامبالاة في المجتمع الجزائري؛ حيث لا أحد يهتمّ الشأن العام، ولا من يعمل على التنبيه إلى الخطأ.

ظهر العنف في المجتمع الجزائري، وطفأ كيّله بالقوّة في الملاعب؛ والتي تتحوّل في غالب الأحيان إلى (انصر فريقك رابحاً أو خاسراً) (معاك يا الخضرا رابحاً ولا خاسراً) فتحوّلت ملاعبنا إلى ميدان رشق بالحجارة، وكسر للمحال التجارية، وإنزال وابل من العقاب على الفريق الغالب/ الضيف، بل إنّ معظم مدّنا يوم المباراة تغلق أبوابها خوف الفساد، ونحن لم نعمل على احتواء الظاهرة المؤدّية إلى الخطورة، ولم نعمل على سنّ القوانين الرادعة التي تُحافظ على الأمن العام ولم نضع القوانين التي تحوي قوانين الشغب.

لقد ظهر الفساد في الأرض الجزائرية بكلّ أسف، وقلّ من ينطق بالحقّ، بل كلّ من ينطق بالحقّ يُحارب، فنحن الكبار والمسؤولين لم نكن في مُستوى القدوة والمرجعية والأمل والتوجيه، كباراً لم يكونوا في مستوى المثال للصغار، فكيف نغدو مثلاً، ولم نكن من المثال، فقد تسامحنا كثيراً، وطعنا فينا: أنا وبعدي الطوفان+ المادة ثمّ المادة+ تخطي راسي. ظهر العنف بشكل غير معقول؛ حيث لم يكن في عقلية شباب الأمس، وأخطر مظاهره هو العنف المدرسي "وهو من أكثر أنواع العنف انتشاراً؛ حيث بات يشكّل أهمّ إفرزات واقعا الاجتماعي المتوتر الذي أصبح مشبعاً بثقافة العنف إلى درجة أصبح فيها العنف هو السمة الغالبة على جلّ العلاقات التي تبنى بين شريحة واسعة من أطفال مختلف المؤسسات التعليمية في الجزائر (مدارس ابتدائية، متوسطات، ثانويات...) حتى أصبحت العملية التربوية بأسرها موضع تساؤل... فالعنف المدرسي بات منتشراً بشكل واسع

النّاطق في المجتمع الجزائري وتحوّل إلى ظاهرة لافتة للنّظر¹. ففي دراسة ميدانية في شرق الجزائر، أبانت تلك الدراسة على أنّ العنف المدرسي له أسباب مُتعدّدة، وهي كما يلي:

1— "تأثير الأسرة في انتشار ثقافة العنف في المؤسّسات التربوية والتّعليمية في الجزائر.

2— تأثير وسائل الإعلام في انتشار ثقافة العنف في المؤسّسات التربوية والتّعليمية في الجزائر.

3— تأثير ممارسة العنف في انتشار ثقافة العنف داخل المجتمع في المؤسّسات التربوية والتّعليمية في الجزائر.

4— تأثير المحيط المدرسي في انتشار ثقافة العنف في المؤسّسات التربوية والتّعليمية في الجزائر.

وخلصت الدراسة بأنّ أفراد العينية يحترمون داخل المؤسّسات التربوية التّلميذ العنيف أكثر من التّلميذ المُسلم².

بالفعل ظهرت بوادرُ اللامبالاة في مُحاربة ظاهرة العنف في الملاعب، والتي وصلت إلى حدّ القتل، وبذلك فهمُ أولو الأمر ظاهرة ما ستؤول إليه من خطورة وكان ذلك مدعاة إلى علاج الظاهرة على السّريع واتّخاذ بعض الحدود على القريع. علماً بأنّ العنف عمّ كثيراً من المرافق، وساد المجتمع في كلّ المناطق، وإن كان طغى وظهر قوياً في الملاعب، بل هو مستفحل في كثير من سلوكنا، وهو متنوّع في عاداتنا، وأصبح جزءاً من خصوصياتنا، وهي صورة التّميّز في آدابنا. والأمر في كلّ هذا لا يمكن أن نحتويه إلّا بالتجنيد العامّ، وهذا ما لمسنّاه في تلك المجتمعات التي عاشت الظاهرة، وعملت على التّجنيد العامّ، واستطاعت التخلّص من خطورتها. ولهذا نقول: إنّ المسألة لها مظاهر عديدة، فعلينا جميعاً العمل على صدّ الظاهرة بكلّ ما أوتينا من أفكار وتحسيس وتجنيد ومرافقة وتوجيه، كلّ في مكانه للوصول بالشّباب إلى زرع ثقافة العيش في سلام، ودون خسران، بل دون

عُنف وبُهتان. وإنّ هذه الظاهرة في وقتنا المعاصر ترتبط بنظرية نقول: كلّ دولة متخلّفة فكرياً واقتصادياً يكثر فيها العنف، والعكس صحيح، ولكن كلّما ارتقى المجتمع في أخلاقه قلّ عنفه، فهل هكذا كنّا سنوات الستينيات والسبعينيات والثمانينيات؟ لم نكن هكذا، وما كنّا لنعنف أبداً، بل إنّ هذه الظاهرة ظهرت واشتعلت في هذا الوقت، بل إنّها من الفتن التي يجب مُحاصرتها للوصول بالمجتمع الجزائري إلى برّ الأمان؛ حيث لم نعد نقبل ما يُسمى برأي الآخر، وليس في قاموسنا: رأيك خطأ يحتمل الصواب، ورأيي صوابٌ يحتمل الخطأ.

ولقد تُتوسّى أو استُبعدَ الاهتمامُ بالشّأن العامّ؛ وهذا للعديد من الأسباب التي لا تُحصى، ومنها رفعُ اليد عن التّربية، وتخلّي المدرسة عن الضرب لمن يستحقُّ الضرب. وبهذه المناسبة أذكرُ مسألة هامّة تحدثت عنها وسائل التّواصل الاجتماعي بأنّ ثانويةً من ثانويات مدينة (واشنطن) أحرزت 5 مرات متتاليات على نجاح كلّ التلاميذ في البكالوريا، وزارها الرئيس (أوباما) وهنّأ طاقم الأساتذة، وعلى رأسهم المدير، وسأل (أوباما) مديرَ الثانوية: كيف أحرزت على نسبة النّجاح مئة في المئة عبر خمس سنوات؟ فأجابه والعصا بيده قائلاً: لم يكن ذلك ليحصل لو لم تكن هذه بيدي، إشارة إلى العصا. والشّاهد في هذا أنّ المدرسة الجزائرية لما تخلّت عن الشّدّة تدنّى مستواها، وضاعت ثقافتها، وأصبحنا في آخرها.

ولكني أعتقد أنّ أمثال هذه الجلسات والمحاضرات والندوات سوف تزرعُ بعضاً من الأمل؛ بأنّ المفتاح في أيدينا، وما ضاع الخيرُ فينا، ومن وراء هذا نبتغي التّنبّيه إلى خطورة ما هو قادم إذا لم تُحتو هذه الظاهرة. وكان لا بدّ من جلسات الحوار مع المعنيين، والسّماع للرأي الآخر، والتّحاور مع الفئات العُمرية، والعمل على حلّ صعوباتهم. ويجدر بنا الحديث عن النّقطة الأهمّ؛ وهي كيفية الاستثمار في التّمتية البشرية؛ فهي باب حلّ مظاهر العنف. وهذا ما حلّ بالمجتمعات الأخرى، ولكنّها عملت على الحدّ من الظاهرة عن طريق أخلفة مجتمعاتها بالاستثمار في البشر.

— ما هو العنف **Violence**؟ العنف لغة: عَنَفَ يُعَنَفُ عُنْفًا. عَنَفَ عليه= بمعنى احتدَّ وشاكسَ وخاصَمَ وغضبَ وتعدَّى وضربَ. ويقال: عَنَفَ يَعْنِفُ عَنِيفٌ، عَنَفَ عليه: أخذه بشدَّة وقسوة، لأمه بشدة. تعنيف: مصدر عَنَفَ. عَنَفٌ مصدر عَنَفَ طولًا تلجأ إلى العنف "استخدام القوة استخداماً غير مشروع أو غير مطابق للقانون. عَنِيف ج عُنْف: من يأخذ غيره بشدة وقسوة "لا تكن عنيفاً". اصطلاحاً: كلَّ عملٍ يدويٍّ يأخذ صيغة الفعل والتَّعدِّي على الآخر. كلَّ فعلٍ قولي يتعدَّى أو يجرح أو يشتمُّ أو يُخلُّ بالقيَم فهو عُنْف. كلُّ نقيصةٍ تُلصق بغير صاحبها فهو عُنْف. كلَّ تعدٍّ جسديٍّ/لفظيٍّ على غير حقٍّ فهو عُنْف.

— من الذي يعنف؟ في الحقيقة إنَّ الذي يعنف هو من لا حجةَ له، فالعنف سلاح خالي الوفاض، والذي يردُّ بالعنف على من له الحجةُ والدليل. وقد أبانت الدراسات بأنَّ صاحب الحقِّ لا يعنف، وأنَّ القوي في البرهان لا يعنف، وأنَّ المعتدى عليه لا يعنف. فمن هو الذي يعنف؟ يعنف من لا يملك البرهان والدليل، ومن ليس له التعليل، فيبقى سلاحه العنف بدلاً، والشتم وسيلة، لنيل ما ليس له فيه الحق، ولا يملك فيه السبق.

— الفرق بين العنف والجريمة: العنف في غالب الأحيان ليس مُميتاً، والجريمة مُميتة. العنف يكون في سَقَطَات الأمور، والجريمة لكبائر الأشياء. كلَّ جريمة عُنْف، وليس كلَّ عُنْف جريمة. العنف يقوم به الشَّباب/القُصَّر، والجريمة يقوم بها الكبار. العنف ليس مقصوداً، ولا مُخطَّطاً له، بينما الجريمة مقصودة ومُخطَّط لها. العنف محلي، والجريمة أحياناً تتعدَّى الحدود. ولكن في كلِّ هذا يجب العلم بأنَّ التسامح في العنف هو الذي يوصل إلى الجريمة. ولهذا يقال: غضَّ النظر عن سرقة بيضة تؤدِّي إلى سرقة جمل.

1 - أسئلة العُنف:

1- لماذا يعنف المجتمع الجزائري؟

2 - أين تكمن جذور العُنف؟

3 - ما هي أنواع العُنف؟

4 - ما هي المؤسسات التي تحدّ من العُنف؟

5 - هل هناك دول لا تعنف؟

6 - ما هي الحلول للحدّ من العُنف؟

1 - لماذا يعنف المجتمع الجزائري؟ ما يعرف عن الجزائري بأنّ نفسه

عطوفة، ورأسه شموخة، وأنفه مرفوعة، وفي كلّ حال يرى نفسه منصاراً؛ فهو يعيش النيف أو لخساراً، وهي من طبيعة هذا المجتمع الأبّي الذي وصفه ابن خلدون تـ 809 هـ بأنه "من حالقي الرؤوس، ولايسي البرنوس، وآكلي الكسكس" فمن حلق الرؤوس أصبحوا من العتاريس، ومن لبس البرنوس أضحوا يحملون المتاريس، ومن أكل الكسكس صارت أجسامهم مهاريس. ومع كلّ الصّواب الذي ليس له جواب، فإنّ المجتمع الجزائري محبوب، وفي صراحته مطلوب، وفي صدقه مرغوب، رغم ما يعيشه من صعبات وأتعاب، فله الكثير من الأحباب، وفي خلقه ما يماثله من الأصحاب، فليس فريداً في الإذئاب.

صحيح بأنّ الجزائري عنيفٌ على غرار بعض المجتمعات التي توصم بسُخونة الدم، وربّما هذا عامل من العوامل الداخلة في تكوينه الجيني؛ والتي أصبغت عليه بعض الحدة. إضافة إلى تلك الصّعوبات التي عاشها عبّر مراحل الاستعمار، وعبّر ما عايشه من أحداث جعلته يعيش القهر واللافرح، يعيش الغليان في حياته والأتراح في أيامه، ووقع عليه الضّغط والاحتقار، ومن ذلك ظهرت فيه قوّة ردّ الاعتبار، إضافة إلى غياب وازع الصبر، وشهادته على عدالة دولة متسامحة جداً وبذلك لا يريد إلّا أخذ الأمور في نصابها، والاعتبار لحالها، وإنّه لا يمكن أن

تحصلَ المعادلةُ الاجتماعيةُ إذا كان فريق الأمن يقوم بدوره كاملاً، وفريق العدالة مُتسامح إلى حدّ التسبّب ظاهراً.

إنّ الشعبَ الجزائريّ عنيف، وعنفه يكمن في شبابه، والشباب دائماً يعيش عنفوانه، حيث فيه 75 % من الشباب؛ والشباب من طبعه الخروج عن الأعراف أحياناً، ولا يخلدنَ ببالنا أنّ هذا الأمر يتعدّى إلى ذلك الانتقال الفجائي من الريف/ البداوة إلى شبه حضارة، وما صاحب ذلك من ظهور الطبقة والتفريط أحياناً في تطبيق القانون على البسيط، فويل لأمة إذا أفحش المسؤول تركوه، وإذا أحدثَ الضعيف خطأً حاكموه. ولا نعدم الإشارة بأنّ ازديادَ العنف ارتبطَ مع التعددية الحزبية؛ وهو نوع من التفريغ السياسي: من تكميم الأفواه إلى حدّ لغثيان... وكلّ هذا يُعتبر مرحلة لا بدّ منها؛ شرط أن يحتوي المجتمع هذه المسألة ويقترح لها العلاجات التي تعمل على الحدّ منها لاحقاً.

— الفئات العمرية المستعملة للعنف⁴: أثبتت الدراسات أنّ العنف بكلّ أنواعه يقوم به شباب بين 15-30 سنة عُنف ملاعب. وبين 25-40 قراصنة المواقع الاجتماعية. بين 20-30 عُنف محلي سرقات في الأحياء. فوق 40 سنة مجرمون. وهناك العصابات بين 12-18 سنة عصابات أشرار. ونلاحظ من خلال هذه الفئات أنّها فئات مُستهدفة شبانية، لم تلقَ الرّعاية التي يجب أن تلقاها، وهي تعيش هذا المخاض، وفي مرحلة الانتقال السنّي من مرحلة اللاوعي إلى الوعي.

2 — أين تكمن جذورُ العنف؟ هناك مجموعة كبيرة من العوامل التي تُعدّ جذوراً لمكامن العنف، ويمكن إجمالها في ما يلي: التخلّف الثقافي + أولوية التّعليم على التّربية + عدم الاحتكام إلى الأصالة + التسامح في تطبيق القانون + عدم التّجنيّد العامّ لمحاربة الظاهرة:

نماذج للردع = حزام الأمن + أم درمان + الرادار. غياب أماكن تفريغ دوافع الشباب: نوادي أدبية + ملاعب + جمعيات + مكتبات. الإعلام غير موجّه: استغلّ للدفع بالشباب إلى العنف وما يزال يفعل ذلك: حصص رياضية أكثر من الحصص

الثَّقَافِيَّة + غِيَابُ المَقَابِلَاتِ الشَّعْرِيَّة + عَدَمُ تَشْجِيعِ الشَّبَابِ البَاحِثِينَ والاحتفاء بهم. تَخَلَّى الأُسْرَةَ والمدرسة عن التَّربِيَةِ + المحيط العام لا يَشْجَعُ على الانضباط والنَّظَافَةِ، واحترام البيئَةِ، وعَدَمُ المحافظة على المصاعد في العمارات، واللَّعِبِ في الساحات، والمباهاة بالسَّرَقَاتِ العلانية، والتفاخر بالتعدي على البنات...

3 - ما هي أنواع العُنف؟ العُنف أشكال وأنواع، وأشهرها العُنف الجسدي وهو التعدي الجسدي على الآخر؛ سواء بالإيذاء على الأشخاص أو على الممتلكات، أو الإيذاء المسبب للجرح أو التكسير أو الموت أو الاحتجاز... فهو عُنف يقرب إلى درجة الإرهاب. وهناك العُنف المدرسي: عدم تلقين التَّربية وقيم المواطنة، والتسامح، وتمكين الأخلاق، وثقافة الاختلاف. والعُنف الإداري: سلب/ حجب الحقوق الإدارية. تُعسِّف الأجهزة الحكومية. والعُنف الأبوي وهو تسلط أبوي على الأبناء في عدم ممارسة حقوقهم. والعُنف المحيطي وهو خدش الشعور العام/ عدم احترام المقدَّسات: التاريخ + اللُّغَة + الوطن. وهناك العُنف المُعاصر وهو عُنف ظاهر وبيِّن، ويتمثَّل في: الإعلام بكلِّ قنواته، والشَّابكة، وG3 في عدم مراقبتها ومتابعتها. وهذه الشَّبكات تكمن خطورتها في استغلالها من الشَّبَاب في غير ما وُضعت له، وعدم مراقبة الأولياء لأبنائهم، واستغلال الفسبكية والتوترة واللُّويحة والتَّغريدات للأفعال المُخلَّة للأخلاق. ومحاولة الشَّبَاب تمثَّل ما يروونه فيها، ومن ثمَّ يعملون على حَرْق وكَسْر وتكوين عصابات أشرار، اقتداءً بما يروونه من أفلام ومُسلسلات عدائية لا تزرع إلَّا ثقافة الرُّعب والانحلال، ومن وراء ذلك نجد هؤلاء الشَّبَاب يُوظِّفون رَسائلَ البريد الإلكتروني وصُورَ السمرفونية للابتزاز، ويكوِّنون عصابات رقمية عن طريق نشر صُور للمساومات المالية.

4 - ما هي المؤسَّسات التي تحدُّ من العُنف؟ هناك مجموعة من المؤسَّسات أو العوامل تحتاج أن تتعاوَدَ جميعُها لكي يحصل النَّجاح، وإلا لا يمكن للمجتمع أن يعيش وَضْعاً اجتماعياً راقياً بجناح واحد. وعليه لا بدَّ من:

أ - الأسرة: إنّ الأسرة تخلّت عن التربية، ورمّت بأودها إلى المدرسة/ الشارع. وللأسرة دور مُتميّز في التّربية، فهي النموذج الوفيّ الذي يقتدي به الطفل. ويكون عن طريق: المُصاحبة/ التّوجيه/ المراقبة.

ب - المدرسة: مطلوب منها أن تربي أولاً، ثمّ تعلّم. وكان عليها ريادة المرجعية الأخلاقية/ الشّدة والغلطة/ المتابعة والمرافقة/ المعلم المثالي/ الكتب المدرسية/ المناهج التّربوية. ويجب الوقوف في هذه النقطة للقول بأنّ المدرسة لها رسالة خاصّة يجدر بها العمل على تقديم وقايات كثيرة للحدّ من هذه الظاهرة، وهذا عن طريق الانفتاح على المحيط، وإجراء الخرجات الثقافية، وكذلك النشاطات الترفيهية من مثل التمثيل وإقامة المسرحيات؛ فقد جرّبت المسرحيات فأعطت نتائج تربوية هامّة؛ باعتبارها وسيلة من وسائل تعلّم مكارم الأخلاق، وتهدف إلى تعليم الناس الطريق المستقيم وحسن المعاملة، وتحذّره من القبح والسوء. إنّ المسرح يعظ الناس ويوجّههم ويعمل على ترسيخ قيم العفو والتّسامح والاستقامة والوعظ وهي كلّها من وسائل إصلاح المجتمع "فالمسرحية فنّ من فنون الأدب العربي المعاصر، يقصد من ورائها - أصلاً- التّهذيب والتّوجيه إلى فاضل الأخلاق. والأدب من حيث هو ثمرة عليا تجارب الحياة الإنسانية... والأدباء هم هداة الطريق وهو مرآتها الصافية النقية التي ينبغي أن تصوّر واقعها ومواقفها وكلّ ما حلمت به في الماضي وتحلم به في الحاضر"⁵. وهكذا فعل المدرسة عظيم فلا ينتهي في حدود الدرس العلمي، بل لا بدّ من دروس الحكمة الاجتماعية والتّدبير اليومي والسلوك الحضاري، والخروج من النمط الذاتي.

وإذا لم يفلح كلّ هذا؛ يعني إنّ المدرسة فاشلة في أداء مهامها، وهذا ما يقرب من نتيجة يمكن الوصول إليها فما فائدة المدرسة إذا؟ لست بحاجة إلى مدرسة لا أثر لها في واقع التربية، أين اثر المدرسة في زرع الأخلاق، وهي علامة التحسّن والإيجاب، أين تلك القيم التي هي مقياس توجيه الأفكار والأشخاص والأشياء والموضوعات والمواقف، أين التّغيير نحو الأفضل إذا لم أجد ذلك في المدرسة.

ج - العدالة: أُعْطِنِي مُجْتَمَعاً لَا دِينِيّاً لَكِنَّهُ عَادِلٌ، أُعْطِكَ مُجْتَمَعاً مُسْلِماً غَيْرَ عَادِلٍ. تطبيق القانون على الجميع/ الغلظة على المُفسدين. وفي هذا المجال أن تكون أرمادة من القوانين التي تعمل على الضبط والتّغريم لكلّ من تسوّّل له نفسه المساس بحرية الآخر، وهكذا تفعل الشّعوب المتقدمة بشرط العدالة فوق المعارف.

د - المسجد: المسجد يعمل على بناء التوازن، وزرع ثقافة الوازع الديني وبثّ قيم التسامح واحترام الآخر أنا لستُ مع رأيك، ولكنّي أدافع على إسماعه للآخر + الدفاع عن الشّأن العامّ + ربط الصّلات الدينية عن طريق الزيارات + حلّ النزاعات بالتّراضي... وكان على الإمام أو الخطيب أن يكون مثلاً يقتدى به في السلوك العامّ، وأن يعمل على تحريك الوازع الديني في المتلقين بما له من سلوك وأخلاق، ويكون هاجسه الاستشهاد بالقرآن ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْفَلِتُونَ ﴿ الشّعراء 227. وقول الشاعر:

لَا تَظْلَمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِراً فَالظُّلْمُ يَرْجِعُ عِقَابَهُ إِلَى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ

هـ - الإعلام: أزمة العنف في الجزائر يأخذ الإعلام فيها دوراً كبيراً، وهذا من خلال ما يبثّه في كلّ القنوات: الدّعوة إلى الهيجان + الدّعوة إلى التّجنيد + الدّعوة إلى نصرّة الفريق الوطني خاسر أو رابح + حصص الرياضة فيها 70 % في أيام لعب الفريق الوطني، بينما لا تتعدّى حصص الثقافة 30 %. الإشهار الرياضي الذي يأخذ مساحات معتبرة، وفي كثير من الأحيان يخذل الرأي العامّ، ويجرح قواعد اللّغة، ويغرس ثقافة التهجين اللّغوي، ويا له من أموال تُبذل في سبيل رجلٍ شخص غير مريح أحياناً، ولا نغدق على فكر عالم منتج وباحث مُضيف، ونستقبل احتفاء الخاسر، ولا نعلم بالعالم الماهر الذي عاد من الخارج يحمل جائزته أو مداليته دون أن يعلم به أحد. فهل أوقفت الرياضة العنف، وهل تجسّد مفهوم الرياضة في التسامح بين الغالب والمغلوب، وهل قدّمت

لنا الرياضة وصفات إخراج الشباب من وحل المخدرات، وهل حَلَّت مشاكلنا المستعصية، فينطبق علينا في بعض الأحيان "يهدمون بيوتهم بأيديهم" أليس فينا رجل رشيد يقول: أوقفوا هذا النّزيف الإشهاري الذي يهدم أكثر مما يبني. وحتى إذا تحسّنا على جائزة العالم، فهل تخرجنا الكرة من التّخلف، أو هل عملت على حلّ مشاكلنا اليومية، ونحن نعاني نقص الكهرباء، واهتراء الطرقات...

5- هل هناك دولٌ لا تُعنف؟ العنف غريزي في الإنسان؛ باعتباره يجبُ نفسه ويؤثرها على الغير، لكن هناك: تربية+ مواطنة+ أخلاق؛ تعمل على الحدّ من العنف. فالإنسان مدنيّ بطبعه، ويقبل التّوجيه والتّحسين، ويستطيع فعل الخير واحترام الآخر، وعدم التّعدي على ملك الغير، ويقبل العيش معاً، كما يحافظ على الملك العامّ. ولكن هذه الأشياء التي تولد بالغريزة تحتاج إلى تعزيز وتنمية وتتطلّب التقوية، وهذا ما هو ملموس لدى بعض الشّعوب التي كانت مثلنا، ولكنها عالجت المسألة بالتّرووي، ووصلت إلى ما تبتغيه بالتّأني. فنجد فنلندا، والسويد وكوريا الشمالية، واليابان، والمجر، والسويد يقلّ فيها العنف. هي دولٌ اهتمّت بتنمية القيم الأخلاقية في المجتمع، قيم التّراحم والرّافة والمُساعدة، واعتماد ألفاظ التّعالي والصبر والعمل للأخلاق والأخلاق؛ حيث عملت على نمو الأحكام الأخلاقية ضمن مواطنة عادلة. دولٌ اعتمدت على مُوجّهات السّلك إلى الخير، وهي مرجعية الحكم على الشّخص، ومعيّار تقيّمه. وركّزت على القيم الأخلاقية التي تكمن أهميّتها في توجيه سلوك الأفراد، وهي فرع من القيم الدينية أو الإنسانية وفيها المحافظة على الشّأن العامّ، احترام الغير، واحترام ملك الآخر، والمُحافظة على المرافق العمومية. ومن وراء ذلك استطاعت أن تعمل على الحدّ من العنف بل نجد هذه الدول بمجتمعاتها فيها الأمن والأمان كلّ في شأنه، وكلّ له دور في التّوجيه مهما كان مُستواه. بل نجد هذه الشّعوب تحافظ على: النظافة — التّبليغ عن الفعل المخلّ بالأمن — مراقبة الأجنبي الدخيل — عدم السّماح بإحداث الخطأ

اللّغوي — تصحيح الخطأ — احترام الطابور — التّدخل في القضايا المشتركة — استعمال القوّة حالة ما يستدعي ذلك.

يجب تأكيد مسألة العنف من حيث التجارب السابقة، فالأمم المذكورة استطاعت تفعيل الرأي العامّ وخرجت بنتائج إيجابية لصالح تربية المواطن تربية بناءة، تربية تُحافظ على الهدوء والأمن العامّ، فلا تسامح في تطبيق القانون. نجحت هذه الدول بما أولته من أهمية للعلم قبل اللّعب، فلم تعطِ أمريكا للعب إلاّ حصة بسيطة؛ يقوم بها الطالب في نهاية يومه، كما أنّها لا تغدق على اللاعب مهما أتى بمعجزة وكذلك تفعل إسرائيل، بل لا تشيد الملاعب العملاقة بغية إلهاء الشباب في العمل والبحث وخدمة الوطن.

ومع هذا يمكن اقتراح سلسلة من المهام المنوطة بنا كشعب مسؤول، ودولة تعمل على الرفاه العامّ وعليه أرى:

- تقديم العلم على اللّعب، والاهتمام بالعلم والعلماء والإغداق عليهما؛
- جعل اللّعب ترفاً ومُتعة وزيادة في الصّحة، وله أوقاته الضيّقة؛
- سنّ أرمادة من القوانين في مجال المحافظة على الشّأن العامّ؛
- تطبيق القانون على الجميع؛ ولا يعلو أحدٌ على القانون مهما كانت رتبته؛
- ربط القوانين بالعدالة التي هي فوق المسؤول، ولها كامل الاستقلالية؛
- المثال والنّمودج يبدأ من المسؤول كلّ في موقعه؛
- عدم التّسامح في القضايا المشتركة التي تؤدّي إلى تغيير نوااميس الحياة، أو تؤدّي إلى ظاهرة اللاأمن.

وفي هذه النّقطة لا بدّ أن نثير مسألة هامّة تتعلّق بما ذكرتُ، وهي أنّ هذه الأمم نجحت في صدّ أو علاج ظاهرة العنف، وكان يضرب بالقوّة دواليب الدولة، وفي الأخير استطاعت القضاء على كثير من الآفات بسبب المرافقة والتوجيه، والسّهر على تطبيق القوانين، ونحن نسنّ القوانين، ولكن يُؤسف له أنّنا لا نعمل على تطبيق ما نصيبه 20 % فقط، ثمّ نأتي للندب على حظنا في مثل هذه المسائل التي لا

تحتاج إلّا لتطبيق القانون. فقد سئل أحدُ المسؤولين في سنغافورة: ما هي الوصفةُ التي تستعملونها في نجاح مشاريعكم؟ فأجاب: نأخذ المشاريعَ الخماسيةَ التي تقترحونها في بلادكم، ونعمل على تطبيقها حرفياً، وأنتم تقترحون مشاريعَ جيّدة وقوانينَ هامّة، ولكن لا تعملون على تطبيقها وتفعيلها.

6 - ما هي الحلول للحدّ من العنف؟ إنّ هذه المسألة تحتاج إلى علاج جذري يتمّ عن طريق أخذ المبادرة من الجميع، وكان لا بدّ من استئصال جذورها من المجتمع الجزائري وهو يعيش مرحلة المخاض السياسي والاجتماعي، والأجدر بنا أن نخرج سالمين. وبصفتي ولياً من أولياء التلاميذ أرى تقديم الوصفة التالية: علينا اليقظة في كلّ آن وأوان، وتجنيد الأمن تجنيداً دائماً، كما حدث في مسألة حزام الأمن. ولا نكتفي بهذا، بل يعمل المجتمع ككلّ في الملاعب على التّهدئة، والدعوة إلى الرياضة النفسية، وقبول الخسارة مثل الربح، ولا داعي للعنف. ولا بدّ منّا جميعاً العمل على كسب هذا الشّباب بالحوار والتّهدئة، وتقديم المثل العليا في علاج الهيجان الشّبابي، والمُرافقة من قبل الكشافة، وكلّ الجمعيات الشّبابية في مختلف التّجمّعات أو الملاعب، والتّدخل السّريع في فضّ/ وقف الاشتباك. ولا تقف مهمّة الجميع في هذه النّقطة، بل يتواصل العمل بكثافة على مُستوى تبليغ المُنافسة الشّريفة بقبول النّتيجة التي هي قبول الآخر، وعدم اللّجوء إلى العنف، وإيلاء الجانب العقلي والفكري الأوليّة في علاج المظاهر ذات العلاقة بالعنف. ومع ذلك أقرّحُ الآتي:

— التّجنيد والتأييد: وكان لا بدّ من تعاون الجميع لعلاج هذه المسألة للحدّ من تناميها، ويعلم الجميع أنّها طريق لانحلال المجتمع. والتّجنيد العامّ يكون بدءاً من المدرسة التي يجب ترقّيها لتؤدي رسالتها التّربوية؛

— القدوة والسلطة: وليكون المعلّم قدوةً والإمام قدوةً، ولا يحصل ذلك إلّا بإيلاء منظومة التّربية والتّعليم أهميّة مُعاصرة، والاهتمام بالمناهج الدراسية، وتطعيم مناهج التّعليم بتعاليم الدين؛ بما يُوازن بين مُتطلبات الحياة، ومُتطلبات الأخلاق؛

— الارتقاء بفكر المتعلمين إلى تحمّل المسؤوليات، وانتهاج العمل بصيغة المواطنة وعدم التعدي على الآخر؛

— غرس الوازع الأخلاقي، واعتماد خطاب الإمام المثالي الموجه؛

— توجيه وسائل الإعلام لتهذبة خطابها التجبيشي؛

— تفعيل جمعيات الأحياء، وفتح المكتبات والنوادي الثقافية، وتوجيه الشباب إلى الثقافة العامة، والتنافس في الابتكار؛

— المرافقة والمراقبة للشباب في تطلعاتهم بفتح مجال المبادرات؛ وتوجيهها إلى خدمة الشأن العام؛

— سنّ جوائز تشجيعية لأصحاب المبادرات التي تعمل على أخلاق المجتمع؛

— تفعيل دور جمعيات أولياء التلاميذ؛ لحمل رسالتها التوجيهية والتوعوية والتفعلية في أنها جمعية لها دور أخذ زمام حل مشاكل التلاميذ/ الشباب؛

— تفعيل دور الكشافة الإسلامية في خرجات للملاعب، ولللثانويات، وللشوارع لغرس ثقافة العيش معاً، وعدم العنف؛

— الأخذ بالأسوة الحسنة، والاطلاع على التجارب الناجحة، والتحفيز على التسابق في خدمة الشأن العام؛

— تكثيف اللقاءات الجوارية بخصوص أخلاق المجتمع، وعدم غضّ النظر عن التعطيل، وكلّ ما يعمل على التأخير، وعدم التسامح في كلّ ما يخلّ بالأمن العام والإخلال بالرأي العام والخاص؛

— تجريم التعدي على الآخر، أو استعمال العنف أو المباغته، أو المخادعة سواء بالكلام أو التعدي الجسدي، أو بالقرصنة أو بالإرهاب، وتجريم كلّ ما يخلّ بالأمن العام، وغرس ثقافة (حريتك تقف عند بداية حرية الآخرين).

— الخاتمة: ما أكثر العبر، وما أقلّ الاعتبار ! علينا تبني أفكار المدنية والمدينة، والخروج من فكر القبيلة والدوّار والعشيرة، وبني العائلة، والعمل على بناء ثقافة الجيرة، وتعزيز ثقافة المواطنة، واحترام الغير بالفضيلة، والدفاع عن

الشأن العام بالغيرة. وإننا بحاجة إلى تبني المجتمع المدني الذي يعمل على التوجيه والتنظير، مجتمع مدني يضع في برامج عمله مقاومة العنف بالتصدير، ويجرم القتل والتدمير وفي كل صغيرة وكبيرة يميز، ويعتمد ثقافة السلام باصرة؛ بتعطيل التسلح والتسليح دائمة. مجتمع مدني يعمل على غلبة العنف عبر تفعيل الحوار ومقاومة الازدراء والاستكبار، وعدم استضعاف الآخر بالتكبار. وهكذا نريدك أيها الشباب الجزائري، أن تكون أو لا تكون، كما قال الشيخ البشير الإبراهيمي تـ 1965م وهو يوجه خطابه للشباب الطامح الطافح، فأن تكون؛ كان عليك ترقية نفسك إلى مستوى الإنسانية، والخروج من مستوى الحيوانية، فأن تكون؛ وكان عليك أن تكون، بأن تجعل نفسك معطاءة؛ تخدم الشأن العام؛ فخدم الناس سيدهم ولتكون؛ أن تكون قدوة للناس؛ بما كان عليك أن تكون، فأنت السيد الذي يكون؛ بما عنده من تحمل التبعات، والخروج بالمنفعات العامات، وكذلك أريدك أن تكون معطاء ولو تجدد، وأن تكون عالياً بما لك من مستوى ورقي، وبما تسلحت به من فهم ووعي، وهكذا تكون أيها الشباب الجزائري أو لا تكون.

الهوامش:

♥ — أعدت هذه المحاضرة لصالح الجمعية الوطنية لأولياء التلاميذ. دار الثقافة (علي زعموم) بمدينة البويرة، بتاريخ: 16 مايو 2015.

1 — محمد خشمون "ثقافة العنف في المؤسسات التربوية والتعليمية الجزائرية، دراسة ميدانية" مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت: 2013، عدد (الجزائر إشكاليات الواقع ورؤى المستقبل) سلسلة كتب المستقبل (64) ص 129-130.

2 - محمد خشمون "ثقافة العنف في المؤسسات التربوية والتعليمية الجزائرية، دراسة ميدانية" مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت: 2013، عدد (الجزائر إشكاليات الواقع ورؤى المستقبل) سلسلة كتب المستقبل (64) ص 129-155.

3 — الألكسو، المعجم العربي الأساسي. تونس: 1989، طبع لاروس، مادة: عنس.

- 4 — أبحاث ماجستير ودكتوراه كثيرة في قسم علم الاجتماع بجامعة الجزائر 2.
- 5 — عبد الغني موسى "الفساد الاجتماعي ودور المسرحية العربية النيجيرية في محاربته: الطبقة العليا وبقاء مقدّر نموذجاً" كتاب المؤتمر. دبي: 2015، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية ① ص 548.

المَشِيخَةُ تَعْمِيقٌ لِلأَصَالَةِ ♥



— المقدمة: تكمن أهمية اختيار موضوع هذا الملتقى الدولي في ما يُنتجه من أفكار حضارية واعية، وما يطرحه من ضرورة التأسيس لمجلس مَشِيخَة دينية مجلس يفرضه الواقع المعاصر، بما نراه من ضعف الوازع الديني، وتعدد المذبيبات المُفرّقات، لا المذاهب الموروثة، والانتصار للرأي الأحاد، إلى درجة تناطح الأفكار في الرماد، وعدم السماع للرأي المضاد، وما يتبع ذلك من خلاف في الأفكار، وتؤدي في بعض الأحيان إلى الإقصاء واستعمال العنف لدى الأنصار هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فنحن في الجزائر شية نكرات في العالم؛ حيث لا نحتكم إلى العالم، ولا إلى مَشِيخَة/ مرجعية/ مدرسة دينية؛ تكون محل مؤسسة فتوى وتوجيه وإسداء النصح، والتدخل في القضايا الدينية ذات العلاقة بالأمور المعاصرة مثل: العنف/ سبل التواصل الاجتماعي/ العلاقات التألفية/ التبنّي/ الإجهاض/ زرع الأعضاء/ العلاقة بين العلم والدين/ خرق الآفاق/ التنبؤات البيئية... بالإضافة إلى العمل على تهدئة النفوس، وتوجيهها إلى الاطمئنان المحسوس، وعدم اللجوء إلى العنف والهدم وإزهاق النفوس. وهذا ما نقوم به

المرجعيات أو المشيخات الدينية على غرار ما يوجد في معظم البلاد الإسلامية من مثل: شيخ الأزهر/ مفتي الجمهورية/ شيخ الإمامة/ صدر الإسلام/ عمامة الإسلام/ سماحة الشيخ/ المولى/ المشيخة الصوفية/ آية الله/ شمس الشموس... ومن هنا فنحن بحاجة إلى **مُشِيخة/ مرجعية دينية** تعمل على التوجيه، وتُغلب الرأي الجامع وتقدم التسامح، وتُغذي الجانب الروحي بتعاليم الإسلام، وكلّ ما يُهدئ الأوضاع بسلام، وما يدعو إلى التسامح والوحدة والتضامن والتآلف الجمعي في الأنام وقبول الآخر، ونبذ كل أشكال التعدي واحتقار الآخر، والعمل على **أخلاق المجتمع** بمبدأ السلف الصالح: رأي صوابٍ يحتملُ الخطأً ورأيك خطأً يحتملُ الصواب.

إنّ الأمرَ جَلَلٌ، ونحن لم ندرسْ هذه الظواهر الجديدة، والتي قد تكون سبباً لما لا يُحمد عُقباه، فنرى الخميرة تنتفخ، وقد تولد لنا جَمراً، كما لم نقترح الحلول التي تُعالج مُتعلّقات الخروج عن الدين والقوانين والأصالة والأعراف، فيكون الحلُّ في بعض الأحيان فقط في **نُشدان القوة**، فهل هذا هو الصواب، فأين الخلل؟ ولماذا لا نحتكمُ إلى ديننا الحنيف؟ ولماذا لا نعود إلى أعرافنا وتقاليدنا التي سادت قُرُوناً وما اشتهى أحد من الآخر؟ ذلك ما يمكن أن يُقال في هذا الموضوع؛ حيث لُوْحِظَ نوعٌ من التسيّب أو الاستقالة التي رَفَعَتها المدرسةُ والأسرةُ والمسجدُ والمجتمعُ وثاجمعيث وحلقة العزّابة، في عدم الحثّ على غرس الوازع الأخلاقي، وتعزيز ثقافة احترام الآخر، وتبجيل الكبير، وإنزال العالم مقامه. كما ظهر نوعٌ من اللامبالاة في المجتمع الجزائري؛ حيث قلّ من يخدمُ أو يهتمُّ الشّأن العامّ، ولا من يعمل على التنبيه إلى الخطأ.

لقد ظهر الفسادُ في الأرض الجزائرية بكلّ أسفٍ، ظهر العنفُ في هذا الجيل وبخاصّةٍ لدى الشّباب ففي دراسة جرت في جهة من الجهات الوطنية أبانت عن "أنّ أكثر التلاميذ احتراماً داخل الثانوية أشدهم عنفاً، رغم أنّ العنف في جوهره ينافي التربية، فهو يهدر الكرامة الإنسانية؛ لأنّه يقوم على تهميش الآخر وتصغيره والحقّ من قيمته الإنسانية التي كرّمها الله، وبالتالي يُولّد إحساساً بعدم الثقة وتدني

مستوى الذات، وتكوين مفهوم سلبي تجاه ذات الآخرين¹. لقد قلّ من ينطق بالحق كما أننا - نحن الكبار - لم نكن في مستوى القدوة والمشيخة والمرجعية والتوجيه والأمل، كبار لم يكونوا في مستوى المثال للصغار، فكيف نعدّو مثالاً، ولم نكن من المثال ننال؟ غابت القدوات، وترك المجال للعضلات؛ فقد تسامحنا كثيراً، وطغأ فينا: القوة أولاً + أنا وبعدي الطوفان + تخطي راسي. ولكن أعتقد أنّ أمثال هذه الملتقيات والمحاضرات، وما يتبعها من الندوات سوف تزرع بعضاً من الأمل؛ بأنّ مفتاح الخير في أيدينا، وما ضاع الخير فينا، فنحن أمة معطاءة، وسنبقى نعطي ونعطي، ولا يهمنّا إذا كنّا نجحاً دائماً.

ويجدر بنا الحديث عن النقطة الأهم؛ وهي كيفية الاستثمار في التنمية البشرية وبطريقة حضارية وعلمية، وبناء فكريّ مضيئ؛ فكر يكره التدمير، فكر متورّ يعمل على الإضافة ومواصلة عمل السابق؛ فهو باب حلّ كلّ مظاهر العنف ونسأل في هذا المقام لماذا يعنف الشعب الجزائري؟ ما يُعرف عن الجزائري بأنّ نفسه عطوفة ورأسه شموخة، وأنفه مرفوعة، وفي كلّ حال؛ فهو يعيش النيف أو لخساراً، وهي من طبيعة هذا الشعب الأبّي. صحيح بأنّ الجزائريّ عنيف، وأسباب العنف كثيرة، والبواعث متعدّدة، والعوامل معقّدة، إلّا أنّها في عمومها عن واقعنا جديدة، ولكن يعنف المجتمع الجزائري على غرار بعض المجتمعات التي توصم بسخونة الدم، وربّما هذا عامل من العوامل الداخلة في تكوينه الجيني، إضافة إلى تلك الصعوبات التي عاشها عبر مراحل الاستعمار، وما مرّت به من أحداث جعلته يعيش القهر والقرح، فطبع فيه العنف؛ حتى أصبح جزءاً من تصرّفه اليومي.

وفي كلّ هذا؛ كان يمكن أن يُحتو هذا الموضوع؛ إذا كانت لدينا مشيخة ومرجعية وطنية ومدرسية وثقافية وعلمية ودينية وأخلاقية وتوجيهية وردعية، فهذا ما نفتقده في واقعنا الحالي، وكان علينا الاستثمار في التربية عبر المسجد والمدرسة بغرس الوازع الديني والأخلاقي والأدبي، وعبر المجتمع الذي يغرس ثقافة الأصالة والعرف والوطنية؛ حيث كان سلوك أجدادنا مرجعاً مثالياً، وما حدث

إِلَّا التَّاعُ وَالتَّكَامُلُ، وَلَمْ يَفَكَّرْ أَحَدٌ مِنْ آبَائِنَا فِي هَدْمِ الْمَسَاجِدِ، وَلَا حَرْقِ الْقُبُورِ وَلَا تَمْزِيقِ الْقُرْآنِ، وَلَا مَسْحِ اللَّافِتَاتِ الْمَكْتُوبَةِ بِالْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ، بَلَّةَ الْحَدِيثِ عَنْ التَّفَكِيرِ فِي الْخُصُوصِيَّةِ الدِّينِيَّةِ أَوْ الْمَذْهَبِيَّةِ، أَوْ تَكْفِيرِ الْآخَرِينَ، أَوْ الْمُطَالَبَةِ بِالْحُكْمِ الْكُونْفُدرَالِي... فَهَذَا مِنَ الْحَرَامِ وَمِنَ الْكُفْرِ الْمَرَامِ، وَيَتَّخِذُ مِنْهُ الْمَوْقِفُ الْحَازِمُ، وَقَدْ يَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْعَزَلِ الْجَارِمِ، وَبِذَلِكَ لَا يَجْزَأُ أَحَدُ الْجَهَرِ بِهَذَا، وَلَا يُمْكِنُ لِلْأَصِيلِ أَنْ يَجْعَلَهَا مَوْضِعَ التَّفَكِيرِ. هِيَ وَصَمَاتُ خَائِبَاتٍ، تَحْتَاجُ مَنْأً إِلَى وَضْعِ الْمُحَدَّدَاتِ كَيْ لَا يَتَّسِعَ الشَّرْحُ فِي مَا بَقِيَ مِنَ الشَّتَاتِ، وَنَقِي أَنْفُسَنَا مِنَ النَّعَلَاتِ.

1 - فِي مَعْنَى الْأَصَالَةِ: إِنَّ الْأَصَالَةَ هِيَ مِيرَاثُ أَجْدَادٍ، تَكُونُ مَصَاحِبَةً لِلْعَبْدِ فِي مُعَامَلَاتِهِ الدَّائِمَةِ بِاعْتِبَارِهَا أَخْلَاقًا وَقِيمًا تَنَامَتْ فِي الْحَرَكَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْفَرْدِ مِنْ خِلَالِ مُؤَسَّسَةِ الْمَجْتَمَعِ الَّتِي لَا يَحْمِلُ عَلَى الْإِكْرَاهِ وَلَا عَلَى الْجَبْرِ، بِقَدْرِ مَا يَعْمَلُ عَلَى النَّهْيِ وَالْحَذَرِ؛ مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْجُلُوسَاتِ الْعُرْفِيَّةِ لِعِلَاجِ قَضَايَا الْمَجْتَمَعِ فِي ثَاجَمَعِيثْ/ حَلْقَةِ الْعِزَابَةِ/ جُلُوسَاتِ الصُّلْحِ*. وَهَذِهِ الْمُؤَسَّسَاتُ تَجْرِي فِي عُمُومِهَا كُلِّ مَسَاءِ جُمُعَةٍ فِي رَوَاقِ الْمَسْجِدِ أَوْ مَا يَقْرُبُ إِلَيْهِ تَيْمَنًا بِالذِّينِ الْإِسْلَامِيِّ الَّتِي يَدْعُو إِلَى الصُّلْحِ ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النِّسَاء 128. وَهَذِهِ الْجُلُوسَاتُ الْعُرْفِيَّةُ هِيَ إِجْرَاءَاتُ لَتَهْدِئَةِ الْوَضْعِ وَبِعَدَمِ مُوَاصَلَةِ وَقُوعِ الْجَرِيمَةِ أَوْ الشُّحْنَاءِ، وَتَأْتِي فِي إِطَارِ رَأْبِ الصَّدْعِ. هِيَ جُلُوسَاتٌ قَدِيمَةٌ حُلَّتْ بِهَا مَشَاكِلُ أَمْتِنَاءٍ، دُونَ أَنْ يَظْهَرَ مُنْهَزِمٌ أَوْ مُنْتَصِرٌ؛ جُلُوسَاتُ جَبْرِ الْخَاطِرِ وَرَفْعِ الْمَعْنَوِيَّاتِ وَالتَّخْفِيفِ مِنَ الْأَعْبَاءِ الْمَادِيَّةِ، بِغِيَّةِ نِيلِ الْحَقِّ لِكُلِّ طَرَفٍ. جُلُوسَاتُ دَعَا إِلَيْهَا دِينُنَا الْحَنِيفِ مِنْ نَوْعِ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ النِّسَاء 35. بِالْقِيَاسِ الْمَعَاصِرِ فِي إِطَارِ التَّنَازُلِ عَنِ الْقَضِيَّةِ أَمَامَ الْجَمَاعَةِ. فَهُوَ حَلٌّ سَرِيعٌ يَعْمَلُ عَلَى إِطْفَاءِ الْغَضَبِ، وَلَمْ الشَّمْلِ وَجَبَرَ الْخَاطِرَ، وَالْحُكْمَ فِي الْآخِرِ إِلَى الْحَلِّ بِالتَّرَاضِيِّ. هِيَ جُلُوسَاتٌ قَدِيمَةٌ مُعَاصِرَةٌ تَعْمَلُ عَلَى غُلُقِ الْمَحَاكِمِ، وَالِابْتِعَادِ

عن تكاليف المُحامين، وهذا ما تتشده الدّول في وقتنا المعاصر، بل إنّ الأمن في كثير من البلاد يلجأ إلى رجال عقلاء لهم وزنهم في المجتمع يستشثرونهم في حلّ بعض القضايا الاجتماعية. وعن طريق هذه الجلسات التي تقوم بها هذه الجمعيات الأصلية تأتي الحلول الودّية، ويحصل التّعايش، وتبادل المصالح المرسلّة مهما اختلفت الأديان والصفات والأعراف. وعلى العموم، فإنّنا نعلم أنّ الجمعيات وجلسات الصلح عملت وما تزال تعمل على تقديم حلول لمشاكل مستعصية، بل إنّ بعضها بقي في دواليب المحاكم لأكثر من عشرين (20) سنة ولم تحلّ، فعملت على حلّها هذه الجمعيات في جلسة أو جلستين. ومما يُسجّل على دور هذه الجمعيات أنّها في المحال التي تعمل بشكل دائم، فإنّه قلّت الشكاوى، بل لم تعد المحاكم تصلها الشكاوى والعرائض، ولهذا فإنّ كلّ الدول والمشيكات تؤيّد هذا الفعل منذ زمان؛ لأنّ القاعدة العامّة التي تحتكم إليها هي: لا ضرر ولا ضرار، لا فائز ولا خاسر.

يرضى المتقاضون بحكم هذه الجمعيات، نظراً لمقام أعضائها، وهيبة الموقف والدعوة إلى نسيان ما سلف: هيبة المقام + مقام الشّيخ + نسيان الثّار + إعطاء الخير للجماعة + الالتزام بالنتيجة = الحلّ السّريع. هي ثقافة عربية مازيغية منذ عهد القبيلة، وبذلك كانت القبيلة تحكم بين أفرادها، وتوسّعت إلى الحكم بين القبائل فهي أصلتنا، وننادي للعودة إلى العمل بها، وتطويرها وفق معطيات فقه الواقع بإعطاء المشيخة دورها الفعّال، والاحتكام إلى مشكاة الإسلام، والتّحلّي بصفة التّصوّف الديني: التّخلي والتّحلي والتّجلي، وهذا ما كان في زوايانا الصّوفيّة التي أعلت هذا الدين بمشيخة الإسلام، فمن لا مشيخة له فالشيطانُ شيخه، والسالكُ بلا شيخ كمسافر بلا زاد.

2 - في الأصالة والصّوفيّة: إنّ الأصالة في أصلها صوفيّة اجتماعية متوازنة بين الحقيقة والشرع غايتها عدم تضييع الأصول، وأصلها خلوة مُتعهدة بالإيمان مزوّدّة بالعبادة والفقه، كي تكون موعظة وأصل الموعظة أصل الفقه، فكن فقيهاً

صوفياً، ولا تكن صوفياً فقيهاً، ولهذا يُقال: ليس العظيم من يُسدي لك المعارف الأجل هو من يُسدي لك كيف تصنع المعارف، كما قيل: مَنْ استحسن فقد شرَّع.

ومن خلال هذا، فإنَّ التَّصَوِّف حركة داخلية ليست انعزالية، أو انفجار داخلي تحديثي يسير في نشدان الحقيقة لعمارة الأرض؛ فالإنسان العامل لا يعمل إلاَّ بشُحنة تجعله يتحرَّك ويعمل وصولاً إلى الكرامة التي تعني الحركة، والوصول إلى الحقيقة، كما أنَّ الكرامة ليست تنزيراً ولا زهداً ولا خروجاً عن المُجتمع أو الانعزال عن الدور المنوط بالإنسان. الكرامة هي الاستقامة لتحقيق الولاية والتَّصَوِّف طاقة لتحقيق عمارة الأرض، ومن هنا، فإنَّ التَّصَوِّف المرغوب هو بركة الاتِّكال ونشدان الأسباب فما أحوجنا إلى رخصة من فقيه ثقة لتشذيب شجرة الصُّوفي النَّاسك، الصُّوفي الباطني الذي يقرُّ بالباطن، ويتكرَّر لعمل الفقيه لاهتمامه بالظاهر، فما أحوجنا إلى مشيخة تُفرِّغنا من الرذائل، وتملُّونا بالفضائل، وهذا هو المأمول من المشيخة التي تَرجو أن يسخرها الله لنكونَ بها سعداء. نريد مشيخة تُعمل النَّظَرَ في باب التَّركية على أنَّها ليست زهداً، بل هي استخلاف في الأرض وهذا هو التَّصَوِّف المنشود الذي عن طريقه نسدُ الفجوة بين أهل الذكر وأهل الفقه في علم التَّلقي وفي علم الأصول، فنريد شيخاً فقيهاً صوفياً مُتنبِّئاً مُتحرِّجاً مُختصاً له القلب المعمور بالإيمان يُشبع عطشَ الجميع.

ويجب العلم بأنَّ التَّصَوِّف مُعين على أكل الحلال وطلب الحلال، والنَّهي عن الدعاوى الفارغة والتَّقيد بالأحكام الشرعية؛ لأنَّ التَّصَوِّف والمشيخة رسالة وكياسة والتَّصَوِّف في الجزائر كان روح المقاومة الوطنية في كلِّ أبعادها حتى انتصرت جبهة التحرير الوطني.

ما أحوجنا إلى تصوِّف الأمير عبد القادر الجزائري الذي قال في حقيقة التصوِّف:

ليس التصوّف لبس الصوّف ترقعه ولا بكاءك إن غنى المغنون
ولا غناء ولا رقص ولا طرب كأن صرت مجنوناً
إنما التصوّف أن تصفو بلا كدر وأن تتبّع الحقّ والفؤاد والدين
وأن تُرى خاشعاً لله مكتئباً على ذنوبك طول الدهر محزوناً

وهذه الطريقة لها مقامها الذي قيلت فيه، ولكن الذي يهمّ هو أنّ التصوّف ليس دروشة أو لبس الخشن، أو الانعزال، أو موالاة الاستعمار، بل هو كينونة متفاعلة مع المحيط ومع المجتمع في إطار العمل الصالح، ونشدان سبل الحقّ بالقُدوة الحسنة التي هي في موروثنا.

3 - معنى المشيخة: تنصّ الكتب المتخصّصة بأنّ المشيخة تأسّست في حلقات الصُوفية وفي جماعاتهم، وانتشرت في الآفاق، وتميّزت بثلاثة عناصر بنيوية هي:

- "الشيخ المؤسّس باعتباره مرجعاً للتّباع، وقُدوة في الطريق، ورئيساً للجماعة ونظماً للرّابطة.

- الطّريقة الرّوحية والسّلوكية التي سنّها.
- نوع الرّوابط التي تصل بين أفراد الجماعة، وهي علائقُ تتوثّق حيناً وتضعفُ حيناً آخر.

هذه العناصر الثلاثة هي التي تحقّق لكلّ جماعة صوفية أصالتها ووحدتها وقوّتها، وتمدّ أعضائها بمشاعر الاطمئنان إلى الانتماء إلى تنظيمٍ قارٍّ مكين². كما تذكر المصادرُ بأنّ المشيخة من لَقَب (الشيخ) وهو لَقَب للمعلّم، أو رجُل الدين، أو رئيس الطّريقة الصّوفية الذي يأخذ عنه المريّدون، أو من كان كبيراً في أعين القوم علماً أو فضيلة أو مقاماً³. ومن هذا اللّقب خرج مُصطلح له علاقة بهذا الموضوع وهو (شيخ الإسلام) الذي ظهر في النّصف الثّاني من القرن العاشر، وكان مقصوراً على العلماء المتصوّفة. لُقّب به في القرن 11 رأسُ فقهاء الدين الشّافعية في خراسان إسماعيل بن الأثير، ومن بعده فخرُ الدين الرازي. أصبح اللّقبُ في مصر والشّام لقبَ تشريف وليس لقباً رسمياً. لا يُطلق إلّا على الفقهاء، وكان ذلك

على وجه خاصّ في أوائل العهد المملوكي. بلغ اللَّقبُ أوجَ مكانته بعد أن أُطلق على مفتي الأستانة الذي اكتسب منصبه في الدّولة العثمانية أهميةً سياسيةً ودينيةً لا نظيرَ لها في الدّول الإسلامية الأخرى، وتجلّى جلالُ المنصبِ في المحافل الرّسمية⁴... وهكذا، فإنّ المصطلح قديم، وكاد أن يُلغى في بعض الدّول لتغيّر المُعطيات؛ حيث لم يصبح للدين سلطته التي كانت في الماضي، كما أنّ اللائكية والعولمة ووسائل التّواصل الحديثة عملت على تقبير سلطة المشايخ، كما ضاعت الهيبةُ من الشّيخ، بفعل ما حصل في سلوك الشّيخ نفسه بفعل المجالبة؛ حيث لم يعد ذلك الشّيخ الذي يتخلّق حوله المريدون، ويأخذون أقواله وأفعاله؛ وتكون محلّ التّطبيق والتّجسيد. غابت الطّريقة القديمة في التّدرّيس، تغيّرت مُعطياتُ استماع المُريد للشّيخ، ضاع المنهج السّديد في شرح كفاية المُريد، ولا حاجةً للمُريد في شرح جواهر التّوحيد، ولا ينتصرُ المُريد لفكر شيخه العتيد.

تتصّ المعاجم اللّغوية على أنّ المَشِيخةَ من الشّيخ؛ والشّيخ من شاخَ يَشِيخُ شيخاً "وهو من أدرك الشّيخوخة، وهي غالباً عند الخمسين، وهو فوق الكهل، ودون الهرم. والشّيخ ذو المكانة من علم أو فضل أو رياسة. وشيخ البلد من رجال الإدارة في القرية، وهو دون العُمدة. ج شيوخ وأشياخ⁵". وإذا بحثنا في ما يقابله في اللّغة الفرنسية لا نجد المقابل الدقيق، بقدر يقابله مصطلح المُحيل والمَرَجِج Référent والإحالية يقابلها Référentialité ومربوط إحالي Lié référentiellement وصورة الشّيخ تنعكس في مريديه Caractère réfléchi. ولماذا لم يعكس المصطلح الفرنسي صورة (الشّيخ) لأنّ صيغة التّعليم المَسْجُدي، وعمل الإمام لم يكن يتجسّد في الصيغة المدرسانية أو ما يقوم به الكاهنُ تجاه مجتمعه.

إنّ المَشِيخةَ في الدين الإسلامي رمزٌ روحيٌّ، وهي رسالة تربية، وتوجيه وتهذيب وتعليم، وغايتها نشر الإسلام والدعوة إليه، وتقوية الاستعداد لفعل الخير وتغذية النّفس بما يمكنها من التّغلب على الشّهوات والأهواء والميول الفاسدة. والشّيخ في حقيقته رمز الكمال في شخصيته وخصاله، ورمز الاستقامة في سلوكه

ورمز النزاهة في زُهدِه وترفعه، ورمز المعرفة في سعة علمه وثقافته، ويتعلق الناس به لأنه مُتميز فكرياً ووعياً وحكمةً واستقامةً. كما أنّ هذا الرّمز هو في صورة مرجعية دينية وثقافية، يمكن أن تؤدي دوراً وطنياً ببناءً، ويكون مُكمّلاً لأجهزة الدولة. وكان على الدولة تشجيع المرجعيات العاملة على التأثير، والحاملة لفكر التنوير، ومرجعيتها التصوّف، وغايتها التّعفّف، ومنطلقها العبادة؛ وصولاً إلى العقيدة "والتاريخ يُحدثنا أنّ أقوى التكتلات هي التي تنطلق من منطلق الدين والعقيدة، وتبتدئ أولاً بالولاء لمرجعية دينية تملك قدرات روحية جامحة ومؤثرة والمشيخة الصوفية ذات الأثر التربوي هي الأقوى تماسكاً والأقدر على التّضحية وتدفعها عقيدة إيمانية، ويُغذيها شيخٌ يملك إمكانيات شخصية وعلمية وروحية وسرعان ما ينتقل دورُ هذه الجماعة من ذلك الدور التربوي المحدود إلى ذلك الدور الاجتماعي، وقد ترفع شعار الإصلاح الاجتماعي أو المقاومة الوطنية ضد خطر خارجي مُتوقّع أو قد ترفع شعارات سياسية لمقاومة سلطة قائمة، ونظراً إلى أنّ هذه الجماعات تملك قدرات على الحركة الاجتماعية فإنّها تملك إمكانيات الدّفاع عن النفس أو الدخول في معارك المغالبة مع الآخرين الذين يقفون في وجه حركة هذه الجماعة"⁶. ولذا، فإنّ تأسيس المشيخة تأتي في إطار تحمّل المسؤولية الوطنية وفي تعزيز قيم التضامن وبناء ثقافة السّلم. وكلامي في هذه المحاضرة ينتزل في السّياق الوطني المُعاصر الذي شاعت فيه ثقافة العُنف واستشرت، وتكاد تؤدي إلى الفرقة والشقاق والصّدام. وأعرف أنّ المشيخة الدّينية سوف تعمل على تفكيك الكثير من الألغام الموقوتة، وما قد ينجّر من صُعوبات ومُضايقات لاحقة. وبغيتي من عمل المشيخة الدّينية أن تخرج من: أنا لدي مشروع إلى أنا أمارس المشروع ومن: أنا أدري العوج، إلى تصحيح العوج، ومن ثقافة التّئيس والتّبخيس إلى ثقافة التّريس، ومن النّقد العويل إلى الحلّ البديل.

وأروم من المشيخة الدّينية المنتظرة الخروج من رواق المساجد، ومن خطاب الوعظ، والتزام التفكير الأخروي، وحمل خطاب التهديد، وتسويد الدنيا، وتكفير

النّاس... إلى التّعاون مع النّخبة المثقّفة؛ للوصول بالمجتمع إلى برّ التّفاؤل والأمل والأمان، وإلى العقلانية والاستمساك بالمعايير الخالدة للحقّ والعدل. أريد مَشِيخةً دينيةً تكون دُعاة سلام وتعارف وتآلف، وتتبذ كلّ تباغض وتناكر. مشيخة نخبة مبشرة بالسّلام بين الأمم والتّآخي بين الشّعوب؛ باعتبارهم دعاة يحملون رسالة فكرية حضارية، وكثيراً ما يتطلّع إليهم المجتمع في الأزمات للدّفاع عنهم؛ لأنّ المشيخة فئة متوّرة رمزيّة تعمل على فكر التّحرير؛ بما يقدّمون للجماهير من تنوير "فالمثقفون البارزون تربطهم علاقات رمزية بزمامهم، فهم يُمثّلون في وعي الجماهير العريضة معاني الإنجاز والشّهرة وذبوع الصّيت، وهي قيم تستطيع الجماهير تعبئتها لصالح الكفاح الدائر، أو لصالح مجتمع تُحاصره الصّعاب والتّحديات"⁷. لا يحتاج القول إلى تعليق بقدر ما يحتاج إلى تأكيد دور الخطاب الديني المتوّر، فهو يفعل فعله النبيل بأن يعمل على التحسين، بل يعمل على الدخول في فعل الحادثة، فلماذا تقدّمت اليابان، وتأخّرت مصر، في الوقت الذي عرفت فيه مصر فكر الحادثة قبل اليابان. تقدّمت اليابان وتراجعت مصر؛ لأنّ مصر اختارت اتباع النّمودج الغربي في أغلب مكوّناته، واستعاضت عن بُناها الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، فناقضت نفسها ففشلت، لكن اليابان أخذت بسبل النّجاح عند الغرب وحافظت على أصالتها وتقدّمت "ظلّت اليابان إمبراطورية تقليديّة متخلّفة إلى أواسط القرن التاسع عشر، وقد أثبتت كثير من الدراسات في التاريخ الاقتصادي المقارن لأنّ مصر كانت أكثر تقدّماً من اليابان في أواسط القرن التاسع عشر، وكان اقتصادها أكثر تطوّراً من الاقتصاد الياباني. وقد سبقت إصلاحات محمد علي الإصلاحات اليابانيّة في عصر الإمبراطور (نايجي) بأكثر من ثلاثة عقود على الأقلّ. كان اليابانيون فيها يعانون الجوع والفقر إلى درجة اضطرّتهم لبيع بناتهم لدور البغاء"⁸ فشلت الإصلاحات المصريّة لأنّها لم تقم على فكرة بناء البشر، ولم تهتمّ بإصلاح الجانب الرُّوحي.

وإنّ الهدف من كلّ هذا؛ أن تكون لنا مشيخة/ مرجعية جزائرية دينية حقيقية وفاعلة في الناس؛ حيث تكون في مصلحة الشعب والوطن، وهذا تقليدٌ أصيلٌ في تراثنا، أليسَ الأحرى أن نعص عليها بالنّواجز؟ ولهذا من الضّروري وجود مرجعية دينية شعبية تكون همزة وصل حقيقية بين الحكومة والشعب، وهو معمول بها في الكثير من الدّول حتى المتقدمة منها؛ كالصين التي يوجد بها مسؤول عن كلّ حي، والعديد من الدّول التي توجد بها في كلّ قرية وولاية شيخ البلد، وشيخ القبيلة، والعُمدة؛ تلجأ إليهم الحكومة لتصل إلى الناس، ويلجأ إليهم الناس ليصلوا إلى الحكومة، ومن أبرز مهامهم المحافظة على الإنجازات، والعمل على استتباب الأمن والاهتمام بالنّواحي الأمنية، والتّحري عن المجهولين والمطلوبين، والتّبليغ عن المحتاجين والمستحقين للمساعدات وغير ذلك كثير⁹. ولا يمكن أن ينكر أحد ما قام به شيوخنا على مدى العصور الماضية من أدوار وطنية في إيجاد وعي وحسّ حضاري؛ باحترام الدّولة وقوانينها، ودعم الاستقرار والصّلاح بين النّاس ومساعدة المحتاجين، وحلّ مشاكلهم. شيوخ في مستوى المتخرّجين من الأزهر الشّريف، وجامع الزيتونة، فقد حفلت بهم الجزائر، هم حاضرون في الصّقوف بعضهم يعملون في الخفاء، وبعضهم يُخطّطون للسرّاء وللضّرّاء، شيوخ قضوا وتركوا بصمات المشيخة، شيوخ تعود ذكراهم بما تركوه من أثر، ألا تعود يا شيخنا أحمد حماني؟ نحن بحاجة إليك في هذا الزّمان، بحاجة إلى فتاويك في كلّ أوان، وإلى نصائحك لكسب الرّهان.

أتعجزُ جامعةُ الأمير عبد القادر الإسلامية عن اللّحاق بالركب؟ وعن إنتاج رؤوس الفكر الديني أو أتباع المشيخة، ألا تخرج ذات الجامعة من التّلقين، وتترك أفعال اليقين، وتعيش التطوّر من خلال فعل التّغيير، وتمدّ المجتمع بأفكار التّطوير. أليست الجزائر بحاجة إلى مؤسسات تُخرج أجيالاً كباراً؛ يقومون على الرّشد جهاراً، ويوجهون الأمّة مراراً. ولم لا تكون لنا مؤسسة مثل الأزهر الشّريف؛ هذه القلعة الإسلامية الشامخة لأهل السّنة والجماعة، أو مثل الزيتونة العتيقة، التي سنّت

لها كرسياً في الإفتاء، فهل لسنا أكفاء في إقامة مؤسسات بمرجعيات دينية، وبرجال عظماء يحملون هموم الأمة، ويسعون لتوحيدها وإبعادها عن الانشغال بالقضايا الهامشية، ويركّزون على كلّ ما يصنع الأمة المتماسكة التي لا تشتت كلمتها التباينات الفقهية. أليس حرياً بمؤسسة المسجد أن تعمل بنظام الشيخ والمريد لصنع جيل جديد؛ جيل التكليف الوطيد، بين اللزوم والذكر المجيد، جيل يتربى على فكر الشيخ المستجيب، جيل يحتاج إلى أستاذ رطيب، كما يقول القشيري "... ثم يجب على المريد أن يتأدّب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً. وهذا أبو زيد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان. وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس؛ فإنها تُورق ولكن لا تثمر. كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً ففساً فهو عابد هواه، ولا يجد نفاذاً".

نريد مشايخ يكون لهم دور في توسيع دائرة الفتا؛ لتشمل كافة مذاهب المسلمين، ويمنعون تصدّع كيان الأمة. أليست الجزائر ولوداً بعلمائها وعالماتها؟ وبمرشديها ومرشدياتها؟ ألا نحتكم إلى شيوخ فرّضوا أنفسهم بأخلاقهم وهيبتهم وحبّ الناس لهم من خلال ما قدّموه وما يقدّمونه من عون ومساعدة، شيوخ بقيت بيوتهم مفتوحة لكل محتاج، شيوخ كانت كلمتهم مسموعة، وكانوا من العوامل المهمة لإصلاح الأمور، وتوصيل رسالة الناس للحكومة، وهم ممن يحتاج إليهم المجتمع الآن أكثر من أي وقت مضى.

فإذا غادرنا الشيوخ، لا ننسى تلك البيانات التي نشأت في مجال الاحتكام إلى الأصول، وإلى خلاصات مرجعيات من خلال الملتقيات التي كانت تقيمها الجزائر وبخاصة ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين الذي انعقد في مدينة معسكر سنة 1987، والذي تركّزت أعماله حول الطرق الصوفية، ودورها التنقيفي في المجتمعات الإسلامية. ومن نتائج ذلك الملتقى خرجت الرابطة الرحمانية للزوايا العلمية في ديباجتها؛ مؤهبة بما أفضى به الملتقى، فركّز "البيان على كبرى الطرق الصوفية ودورها في المجتمعات الإسلامية إيجاباً وسلباً. ودارت مناقشات طويلة

حولها تبين معظم الطرق في نشر الإسلام، وفي التربية والتتقيف الديني والاجتماعي لجماهير الأمة الإسلامية، فضلاً عن بيان دور الصوفية على مرّ القرون في الجهاد والدفاع عن دار الإسلام ومقاومة الغزو الاستعماري. ورأى الملنقى أن تدعّم الإيجابيات لنشر الإسلام، والتربية الروحية، والحفاظ على القرآن الكريم، والسنة المطهرة، واللغة العربية، وأن تعان الطرق الصوفية على التّخلص من أوجه قصورها وسلبياتها¹⁰. ويُستخلص من هذا أنّ هناك خطوات فردية وهناك أعمال جماعات في البحث في التأسيس الفعلي للمرجعية الدينية، وتكون رابطة الطريقة الرحمانية قد سنّت الطريق لكرسي المشيخة في الجزائر.

4 - مقام المشيخة: إنّ المطلوب منّا العمل على التفكير في التأسيس أو الإعداد لمجلس مشيخة أصيلة مربية موجّهة داعية؛ نظراً لمقامها الرمزي، فهي مشيخة رمزية عارفة بمقامات إنزال الناس منازلهم، وهذا لما لمقام المشيخة الأصيلة من تربية مشبعة روحياً بالإيمان، تربية طوعية عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل فرد من أفراد المجتمع يعمل على التوجيه والنصيحة، بل كلّ كبير في القوم مطالب بتأدية مهامه في التوجيه، وإلاّ فمقامه التوبيخ، ولا ذكر له في التاريخ. ولحاجة شبابنا اليوم إلى استثمار هذا التراث؛ كان من الضروري العودة إلى احترام مقام مجلس المشيخة أو المسجد أو مجلس القرية/ تاجمعيث و(احترام المشيخة) و(مراجعة السند العلمي) في الفتوى وفي العلم، واعتبار التربية قبل التعليم، والمراجعة قبل الدعوة وهذا من أسس الجانب الروحي في الإسلام الذي يعدّ أهمّ دعامة قامت عليها الشريعة الإسلامية. وباعتبار المذاهب الأربعة هي التّرجمات القانونية للنصوص الإسلامية المقدّسة؛ وهي القرآن والحديث، كانت هناك مشيخة محترمة رمزية. وإذا ركّزنا البحث في هذه المصادر، فسوف نجد بعد القرآن والسنة عامل الإجماع وهو العزم على الشيء الذي يعني اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ على حكم أو مسألة معينة، وهو حجة بالاتفاق أو يتكلّم مجتهد في مسألة ويسكت مجتهد آخر من غير إنكار. ويُعدّ الإجماع المصدر الثالث من مصادر التشريع، وأدلته من القرآن

كثيرة، ومنها قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ النساء 59. وعامل الإجماع هي السند الديني في صيغة المشيخة المرجعية، أو العرف الصحيح، بل أصالة جزائرية نبعت من علماء الجزائر الذين عدّوا العرف الذي لا يناقض الدين حكماً، فأفتوا بالعرف، وأصابوا الدين في المفصل، وما خرجوا عن القضاء. وتعتبر الأصالة حجة في التشريع لملاءمتها حاجات الناس، ودفع الحرج والمشقة، وتحقيق المصالح المرسلة. فالشيخ في عرفنا من يتخلق حوله المريدون ويتبعون آراءه، ويحفظون أماليه، وهو محترم في سلوكه، ومن علمه يغترف الأتباع، ويجعل لنفسه من الشرف والمنزلة ما يؤهله لأن يتبعه الناس، يأخذوا عنه، ويكون محل القدوة، وبذا يعمل الأتباع على نشر طريقته، ومنه يأخذون منهجه عن طريق:

- 1 — السماع؛ باستعمال: أُملى/ سمعت/ حدثني/ أخبرني/ قال لي شيخي/ قال/ ويقال في الشعر: أنشدني.
- 2 — القراءة على الشيخ، وهي الرواية.
- 3 — السماع عن الشيخ بقراءة غيره.
- 4 — الإجازة: أجازني.
- 5 — المكاتبة: كتب إلي.
- 6 — الوجادة: وجدت¹¹.

ومن هنا، فقد نال الشيخ في أصلتنا المقام السمو، والدرجة العلا، والاحترام الكفء من قبل الخاصة والعامة، وتأسيساً على هذا، فإنّ الجزائر المعاصرة تحتكم إلى مشايخ كبار، وفيها فقهاء عظام، ولها صلحاء همّام، وزواياها لا تخلو من الزهاد والوعاة والوعاظ، فالأحرى اعتماد مناهج علمائنا العارفين بالأصول، وما أنتجوه من علوم تصول، وذلك ما يجعلهم ينالون عضوية مجلس المشيخة باقتدار بل ستكون لخاصتهم الرئاسة الروحية باستبصار، بما يحتكمون إليه من أصول

دينية، ومراجع علمية، وبما يتحلّون به من قيم دينية، وسلوكات نوعية. وذلك كلّ ما جعل الثقة الشّرّفية تقع عليهم، في مجتمع يميل إلى التّدين؛ حيث يجد الناسُ في رموز شيوخ هذا الدين ما يُعمّق الثقة بهم، والاطمئنان إليهم، وهذه الظاهرة نجدها في مجتمعنا الجزائري طاغية، كما كسبوه من المجتمع قاطبة "إنّ المقام الروحي الذي يمثله الشّيخ يتمتّع باحترام الجميع مهما بلغت مراكزهم السّياسية والاجتماعية والدينية لأنّه امتداد للإمامة. ولذا أطلقت على هذا الشّيخ ألقابٌ عدّة مثل شيخ العقل شيخ العُقال، شيخ المشايخ، شيخ الشيوخ".

5 - ما سرّ الدّعوة إلى المشيخة؟ يعرف الكثير من الحضور بأنّ المشيخة المقصودة هنا هي النّخبة الدّينية التي لها المقام والتّصدّر والاحترام في المجتمع الجزائري؛ باعتبارهم الصّوّفة؛ وهذه الصّوّفة يندرج فيها من يشتغلون بـ "الدين تعليماً وتدریساً ووعظاً وإرشاداً وممارسة وتطبيقاً، فيندرج ضمنها الدّعاة والفُقهاء والأئمة والخطباء والزّهاد والمُتصوّفة وسائر المُشتغلين بالعلوم الدّينية؛ شرط أن يكون لهم في مجتمعهم حضورٌ بارزٌ ومقامٌ مؤثّرٌ ونفوذٌ معنويٌّ واسعٌ"¹². وبذا، فإنّ سلّطة هذه النّخبة هي في استعمال الكلام من خلال النّصوص الدّينية والسّنيّة والتّفسيرية والفقهية، ومن أقوال السّلف الصّالح والمُتصوّفة؛ لأنّ "الصّوّفة الدّينية هو متّقفٌ قلّةٌ دورٌ في المجتمع؛ فينحدّد وضعه بالدور الذي يقوم به في المجتمع مُشرعاً ومُعترضاً ومُبشّراً بالمشروع، أو على الأقلّ صاحب رأي وقضية، إنّه ضمير المجتمع"¹³. وأعظم دور للصّوّفة الدّينية أن تقف على السّبب الحقيقي لانحطاط المجتمع، وتكشف عن تخلفه ورُكُوده، ثمّ تعمل على تقديم وصّة الحلول. كما أنّ أسمى هدف الصّوّفة الدّينية أن تُسهِم بما لها من أفكار وقدرات إقناعية في نشر الوعي بضرورة الوحدّة ونبذ الفرقة، وإشاعة السّلام، والإعراض عن العُنف والصدّام.

ولا شكّ أنّ هذه المسائل كانت في وعي نخبتنا المُتصوّفة، وتجلّت في كتاباتهم وفي ما قامت به من أعمال الإصلاح، فلم تكن الصّوّفة الدّينية مُكفّنة، ولا هربت

من الواقع، وما استبطنت نفسها رغم ما عاشته حركة التصوّف من زُهدٍ، وما أَعرضت عن زخرف الدنيا من مباحج. ونعلم بأنّ بعض حركات التصوّف عبّرت عن الإصلاح ومحاربة الفساد وإظهار الخلل بمنهجية عدم التشنيع أو فضح العيوب، فقامت بإسبال الستّر على النقائص، وذلك ما تمثّل في اجتهادات (البسطامي والتّوحيدي) اللذين عاشا في الحركة الزهّدية، وعملا على التّغيير بالتلميح، وما كانا بعيدين عن المسارات الاجتماعية، وما عزلا أنفسهما عن المخالف، بل ما رفضا رأياً أو كَفّرا من يقول بمُضاد رأيهما.

6 - شروط المَشِيخَة: وإذا وقّع الإصرارُ على تأسيس مَجْلِس المَشِيخَة، فلا يعني ذلك التّأسيس هو المُهمّ، بل الأهمُّ في ذلك هو الخُضوع لمعايير العلم وسلطان المَشِيخَة، وإلى كلّ مُقتضيات القيادة الدّينية في حُدودها الكبرى؛ كي تكونَ لنا مَشِيخَة دينيّة يُحتكم إليها، بل يكون لها الوزنُ والمقامُ أمام مَشِيخات العالم والعالم الإسلامي على الخصوص. مَشِيخَة كبيرة المستوى في مستوى كِبَر الجزائر. ولهذا ليس كلُّ عالمٍ يصلحُ لرئاسة مَجْلِس المَشِيخَة، بل لا بدّ من ضوابط دينيّة وعلميّة وتُعَدّ من مواصفات المَشِيخَة، وهي ضوابط قننتها المَشِيخَة في صُلب أدبياتها الدّينية والعلمية، ويمكن أن أذكرَ بعض ما بَصُرَت به من عُموميات، وهي مُجسّدة في بعض قوانين الدّول الإسلاميّة، وفي بنود تأسيس المَشِيخات أو المجالس العُليا أو مجالس الفُتوى. ومع كلّ ذلك، فإنّنا نرومُ أن تكونَ لنا مَشِيخَة دينيّة بمُواصفات علميّة، وبمعايير ثبتيّة دقيقة؛ ليحصلَ لها الوزنُ والثّقَة، وتصبحَ مرجعيّة بالفعل والقوّة. وإليكم هذه العُموميات:

1/6 - مَجْلِس المَشِيخَة: أن يكون تحت ضوابط وقوانين الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشّعبية ويتحدّد نظامه وقوانين تضبطه.

2/6 - مَجْلِس المَشِيخَة هيئة رمزيّة تهتمّ بالفُتوى والقضاء والتّوجيه وإسداء النّصح، والتّدخّل في الحالات الوطنيّة ذات العلاقة بالاختصاص.

3/6 — يُعَيَّن أعضاء مجلس المشيخة من كبار العلماء، وبناءً على معايير علمية مضبوطة.

3/6 — يعمل مجلس المشيخة بالنصوص الدينية والقياس والإجماع واستصحاب الحال، كما يعتمد التقاليد والأعراف الوطنية حالة عدم تنافها والدين الإسلامي.

4/6 — ينضوي مجلس المشيخة تحت إمرة الشيخ العيني، ومن شروط هذا الشيخ:

- التّصّلح في علوم القرآن؛
- التّخصّص في المسائل الفقهية؛
- الموسوعية والتّبحّر في علوم العربية؛
- الإلمام بعلم اللاهوت ومقارنات الأديان؛
- الإدراك العملي لعلم الأصول؛
- السّمة العلمية والعالمية؛
- الصّدق والأخلاق وحسن المعاملة.

5/6 — وجود المرّدين: وهنا يُقصد بهم الأعضاء، وبما لهم من شروط علمية صارمة، ونعرف بأنّ المرّيد هو الذي يعمل على توسيع دائرة الشيخ، فكان لا بدّ من أتباع يعملون في تخصصّات؛ يقومون على مساعدة الشيخ؛ كلّ في اختصاصه. وهنا يجب أن تتنوّع اختصاصات المرّدين؛ بغية التّدقيق في المسائل التي تُعالج ليحصل لها الشّمول.

6/6 — الاحتكام إلى نظرية: لا يجب على مجلس المشيخة أو الشيخ أو الأتباع الانطلاق من الهوى بل أن يحتكموا إلى نظرية قائمة بأصولها وقواعدها؛ سواء نظرية قديمة، أو نظرية حديثة، أو نظرية مكيفة. نظرية يحكمها الشّمول والاتّساق.

7/6 — الامتداد في الزّمان وفي المكان. وهذا من طبيعة المشيخة أن تستوعب المحلي، وتخرج إلى العالمي؛ وبخاصّة أنّ مشيخة الإسلام عالمية.

8/6 — منح الإجازات العلمية، وخلق الأتباع المرجعيين.

وأمام هذه الشُّروط المُفترضة، فلا نعدمُ وجودَ علماءٍ جزائريين تتوفَّر فيهم وبخاصَّةٍ عندما يجتمعون في لجانٍ مَشِيخيةٍ مُتخصِّصةٍ، وعلى رأسهم شيخٌ له الكلمةُ الفصلُ، والطَّاعةُ للشيخ في حدود الشرع والضبط والنظام واجبة.

7 — المشيخة الدينية والاختلاف المقبول: نسعى من وراء هذا أن تكون لنا مشيخة صوفية تعمل بفقهِ الواقع وبقه التعامل مع الآخر، ضمن علاقة مباشرة بالتعددية من قبيل الاختلاف والتنوع والضيءة والحرية والسياسة وتعدد الأحزاب مؤكداً أنَّ التعدد والتنوع أمرٌ فطريٌّ لا يمكن إلغاؤه أو التغاضي عنه لأنَّه يتناسب كلياً مع نواميس الكون. كما أنَّ القبول بالتنوع والتعدد يفضي الى احترام حرية الآخر، والقبول بالثاني ما لم يستعمل العنف، أو يرفع السلاح، وذلك الأمر يفضي إلى الإقرار بالضيءة؛ فكلٌّ ضدين متخالفان، وليس كلٌّ متخالفين ضدين؛ "فالبيت الواحد يختلف فيه الأبناء والآباء وكذا المجتمع والأمة، فالاختلاف المقبول لا ينتهي إلى الضدية، لأنَّ الضدَّ النوعي لا يحمل في ثناياه استئصال الآخر فكراً أو جسداً أو وجوداً، في حين أنَّ الاختلاف غير النوعي فيه مفاعيل التنافس والوصول إلى سنام الشيء وأحسنه، وسيتحوَّل إلى اختلاف مذموم يعمل على إلغاء الآخر واستئصاله دخل في دائرة الضدية المرفوضة عرفاً وشرعاً وناموساً، معتبراً أنَّ مفهوم التفاضل أصل من أصول الاختلاف، بل هو من نتائجها الإيجابية". فهل يعي إمامنا هذا النوع من التَّضاد، وهل على مستوى حمل رسالة الإسلام التي تقرُّ بالأديان السالفة؟

إنَّ شواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية ومن اجتهاد الراسخين في العلم ومن عمل المتصوفة العاملين تقرُّ جميعها بضرورة الإيمان "بالتنوع والتعددية كقاعدة تُبنى عليها الحريات المدنية من أجل تأسيس نظام سياسي مستقرٍّ، ودليلنا على ذلك وثيقة المدينة المنورة التي تم توقيعها من أصحاب الأديان الأخرى بوجود محمد بن عبد الله نبي الإسلام، ولم يكن يعتبر أنَّ أسلمة المجتمع بالقوة والإكراه

ليس من الرّسالة الإسلامية، فلو كان الأمر كذلك لفعل ذلك الرسول ﷺ بنفسه، وهو في أوجّ قوته وعنفوان حكومة المدينة الإسلامية".

إنّ الإيمان بالتعددية وبحرية الآخر كمدخل الى تحقيق مرجعية صوفية لا تحمل الإكراه، مرجعية صوفية تقرّ بالآخر، مرجعية صوفية تعمل على تأسيس نظام سياسي مستقرّ، تكون نتيجته قبول وجود التكتلات والأحزاب السياسية مادامت تسعى إلى تقديم الأفضل للمجتمع، لأنّه مهما بلغت أخطاء الأحزاب السياسية الفاعلة، فهي أفضل بكثير من نظام سياسي أحادي وشمولي يقوم بالتفكير بدلاً عن الناس له أن يسلب حرياتهم في أي وقت، وهذا ما لا يستطيع فعله النظام السياسي التعددي القائم على المراقبة الذاتية والمنافسة المستمرة والتفاضل الأجود.



— الخاتمة: أرى الأمر ملحاً للتفعيل داخل أصالتنا التي عاش بها أجدادنا وحلّوا بها مشاكلهم، ومن هنا يأتي لزوم منهج السلف والدعوة إليه ضرورياً والعمل بنظام الشيخ أمراً هاماً، وكان علينا جعل، تدخل الشيخ في المجتمع واجباً والذي كان شيخ المسجد والإمام والمؤدّن والمفتي والخطيب والمأذون والمبتدأ والمنتهى والأمر والنّاهي والداعي... ولا يُعصى له أمرٌ، ولا يخرج عن رأيه أحدٌ وبذلك ساد الشيخ في مجتمعنا الجزائري بما كان يحمله من روح دينيٍّ، وبما كان يتسلّح به من قرآن وسنة وأخلاق عالية. كان الشيخ صاحب المقام العالي، نال

الاحترامَ بأخلاقه وبمرا بيطيته وبتفانيه في خدمة الشَّانِ العامِّ، وبما كان يُقدِّمه من توجيه وتحذير، فأحترمه المجتمعُ وقَدَّرَ احترامه بالطَّاعة. أما حانَ الوقتُ للعودة إلى تلك الأصالة؛ أصالةُ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أصالةُ تراثنا الزَّاهر، أصالةُ قرانا العاملة على التَّهذيب بالنَّهي، وما يدخل في معنى مسكوكات: همًّا/ ألا/ عيب/ أنت كبير/ ليس هذا من سلوكنا/ أشكيك للمعلِّم/ سأنقل هذا للشَّيخ/ أقدمك يوم الجمعة لثاجمعيث/ سوف تفصل حلقة العزَّابة في أمرك...

إنَّ أصالةَ شيوخنا الكرام والذين كان لهم أتباعٌ، لا تزال باقيةً وستبقى، أصالةَ شيوخ أحياء بأفكارهم وأعمالهم وهم رُؤوسٌ. ألم يحنِ الوقتُ لتفعيل دورِ الشَّيوخ ورجال الزَّوايا بأيَّة طريقة كانت، وأن يكونوا مُتفاعلين مع النَّاس، وقريبين منهم من خلال المُبادرة إلى العمل على الحِفاظ على وَحْدَةِ الوطن والاصلاح البيني والمتابعة العينية، والعمل على رفع مُستوى الوعي العامِّ، وتنمية روح التَّفاعل مع مُكتسبات التَّمتية بالاستفادة منها والمحافظة عليها.

ومن خلال هذا المُلتقى؛ أدعو إلى العمل على تأسيس رمز أو رئاسة المَشِيخة تُحظى بالاحترام من الجميع، ويكون هذا الرَّمز/ المجلس قادراً على الفصل في المواقف، وفي الفتاوى، وفي الخيارات الوطنية، كما يكون مُعبِّراً عن آمال المُجتمع الجزائري. أدعو إلى مَشِيخة دينيَّة تُحسِّن اختيارَ مواقفها العامَّة، وتُحسِّن قراءة الظروف المُحيطة بها، وتملك الرؤيةَ العاقلة، وتُخطِّط الهدفَ للنَّجاح. أريد مَشِيخةً تعمل على تقديم الوعي قبل الوَعظ، مَشِيخة تزرع الاعترافَ بالمُختلف، وتقرِّر التسامحَ مع المُخالف وتعترف بضرورة التَّعايش مع المُغاير. مَشِيخة تستنكر الأفعال التَّدميريَّة التي حدثت في غرداية، وفي مختلف بقاع العالم من تَعَدٍّ وقَتْلٍ. مَشِيخة تقول: لا لِحَرْقِ مخطوطات مُبَكِّتو — لا لهدم معالم الحضارة الإنسانيَّة — لا لتكسير تمثال بوذا — لا لطمس الكنائس — لا لنهب القبور — لا لِشعال النَّار في المساجد — لا لِإبادة المُسلمين — لا لِلانتحار — لا لِحَرْقِ

النفوس — لا للتطرف — لا للإرهاب — لا للطائفية — لا للمال القذر — لا للإكراه — لا لتدمير المباني — لا لتفخيخ الثكنات...

— الاقتراحات:

— دعوة من يهتم الأمر للعمل على تأسيس مشيخة جزائرية تكون مرجعية دينية وطنية وعالمية؛

— دعوة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، لتنظيم ملتقى عالمي آخر في نفس الموضوع؛ لاستيعاب كل متعلقات الموضوع؛

— دعوة وزارة الشؤون الدينية لوضع ترتيب آليات مشروع المشيخة الدينية؛
— دعوة مدير النشاط الإسلامي بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف إلى تأسيس فرقة متخصصة تعمل على وضع قاموس متخصص في مصطلحات المشيخة والمرجعية؛ ويكون بأربع لغات: عربية + مازيغية + إنكليزية + فرنسية.
الهوامش:

♥ — أعدت المحاضرة لملتقى (المشيخة وأصول التربية) بتنظيم وزارة الشؤون الدينية والأوقاف أيام: 2 — 3 جوان 2015 بدار الثقافة الجديدة، ولاية غليزان.

1 — محمد خشمون "ثقافة العنف في المؤسسات التربوية والتعليمية الجزائرية — دراسة ميدانية—" مجلة مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت: 2013، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل (64) ص 129-155.

• — هذه الجمعيات ما تزال تقوم بدورها في منطقتين: منطقة القبائل؛ حيث تاجمعيث تجتمع مساء الجمعية كلما استجدّ جديد، وعدد أعضائها اثنا عشر (12) عضواً + الشيخ. وهؤلاء الأعضاء يمثلون العائلات (إيذرمان) البطون، يختارون من كبار السن والعاقليين والعارفين والأغنياء، ومن لهم معرفة في الداخل والخارج، ولهم كلمتهم ومقامهم في مجتمعهم وخارج مجتمعهم. منطقة غرداية؛ حيث حلقة العزابة عددهم (12) كما يلي: الشيخ + المؤذن + الإمام + الوكيل + 3 من مُعلمي صبيان + 5 من غسالي الموتى. ولكن هذا العدد الآن — في المنطقتين — لم يبقَ على حاله، بل ازداد بناء على زيادة السكان وزيادة العائلات.

- 2 - محمد بن الطيّب "مسؤولية النّخب الدّينية والثّقافية في الحفاظ على سلّم المُجتمعات" مجلة الثّقاهم. بيروت: 2013 صادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الدّينية العُمانية، عدد (قضايا السّلم وإمكانيات المُصالحة والتّضامن) عدد 42، ص 96.
- 3 — جماعة الباحثين، الموسوعة العربية المُيسّرة. بيروت: 1986، دار نهضة لبنان للطّبع والنّشر، الجزء الثّاني، مادة: شَيْخ.
- 4 - جماعة الباحثين، الموسوعة العربية المُيسّرة. بيروت: 1986، دار نهضة لبنان للطّبع والنّشر، الجزء الثّاني، مادة: شَيْخ.
- 5 — مجمع اللّغة العربية، المُعجم الوسيط، ط2. القاهرة: 1972، ج1، مادة: شوى.
- 6 — ع/ گوگل google المُشيخة، بتاريخ: 26 مايو 2015.
- 7 — جبرار لوكليرك، سوسيولوجيا المُتّقين، تعريب: جورج كتورة، ط1. بيروت: 2008 دار الكتاب الجديد، ص 125.
- 8 — المبروك المنصور "الهوية والقيم الدّينية في التجارب التّحديثية اليابانية والعربية دراسة مقارنة تركز على الإسلام والشتنتو" مجلة موارد. تونس: 2009، جامعة سوسة العدد 14، ص 14.
- 9 — ع/ گوگل google، حول المَرَجِية والمُشيخة، بتاريخ: 26 مايو 2015.
- 10 — ينظر: البيان التّأسيسي للرّابطة الرّحمانية للزّوايا العلميّة. الأوّل من محرم 1410 الموافق 3 أغسطس 1989.
- 11 - عبد الرحمان جلال الدين السيّوطي، المُزهر في علوم اللّغة وآدابها، تحقيق وتعليق: محمد جاد المولى بك+ محمد أبو الفضل إبراهيم + علي محمد البجاوي. بيروت: 1986 المكتبة العصرية، ج1، ص 144- 177 (بتصرّف).
- 12 — محمد بن الطيّب "مسؤولية النّخب الدّينية والثّقافية في الحفاظ على سلّم المُجتمعات" مجلة الثّقاهم. بيروت: 2013، صادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الدّينية العُمانية، عدد (قضايا السّلم وإمكانيات المُصالحة والتّضامن) عدد 42، ص 221.
- 13 — محمد عابد الجابري، المُتّفقون في الحضارة العربية، مِحْنَةُ ابنِ حنبلٍ ونَكْبَةُ ابنِ رُشد. بيروت: 2000، مركز دراسات الوَحْدَةِ العربيّة، ص 24.

الطريقة الرّحمانية من منظور الوصف والتحليل ♥

فريق بحث، بجامعة تيزي-وزو.

إنّ بحثنا هذا جماعيٌّ؛ قام على إنجازهِ فريقٌ من بَحَثَةٍ مَخْتَبِرِ الممارسات اللّغويّة في الجزائر، بجامعة مولود مَعْمَرِي، بتيزي-وزو، رَغْبَةً في مُشاركة المركز الثّقافي الإسلامي بتيزي-وزو مُلتقاه الوطني حول (الدور المُتميّز للطريقة الرّحمانية في ترسيخ القيم الاسلاميّة والوطنية) ولقد دَفَعَنَا حبُّ البحث فيه إلى تقسيم المحاور على الفريق؛ للسيطرة عليه، ولإشباعه من كلّ جوانبه المُتعدّدة وتحديد بعض المُعطيات التي وقَفْنَا عندها، ووقّع البحثُ فيها من غيرنا بدراساتٍ سابقاتٍ، وبقي البعضُ منها من المسائل الاختلافية، ونُشير البعضَ منها مرّةً أخرى من باب الإضافة أو التّرجيح. ويُمَازُ موضوعنا في هذا المجال بأنّه يُعالج بعض الأمور لأول مرّة؛ حيث توصل إلى أشياء لم تكن في سابق من الدّراسات، كما يجمع بين الكثير من الأفكار، فيرجّح الأقرب إلى الصّواب، كما يُحيّن بعض الأفكار التّربوية والإصلاحية التي جسّدتها الطريقة الرّحمانية، ويعطي لها البُعد المُعاصر، وهذا بعد المُعالجة والمُقارنة والتّثبت، ويخرُج من خلال كلّ ذلك بدراسة وصفيّة تحليلية نقدية.

1- مدوّنات البحث: ولقد كانت مدوّناتنا من مصادر الطريقة الرّحمانية، من مثل: الفقه على المذاهب الأربعة - مَتْن ابن عاشر، المُسمّى (المنهج المبين) في شرح المُرشّد المُعين على الضّروري من علوم الدين) وهي منظومة جامعة بين أصول الدّين وفروعه من توحيد وفقه وتَصَوُّف، مُختصر الخليل، الأربعون النّووية الأجرومية، الألفية، المُتون القديمة... والكثير من تلك المصادر التي توليها الطريقة الرّحمانية الأهمية الخاصّة، إضافة إلى بعض المُتون والمنظومات التي يجب أن تُحفظ عن ظهر قلب. كما رجّعنا إلى بعض الدّراسات والكتابات التي أُلْفِت في

الطريقة، أو كتبت حول الزوايا في الجزائر، ونُفِذَ الحضور، بأنَّ عملنا هذا كان ميدانياً تطبيقياً؛ حيث نزلنا إلى الميدان، ووقفنا عند بعض الزوايا، واستفسرنا بعض المعنيين، وسجلنا عليهم، ونزلنا إلى قرية (پاعلي) الصغيرة التابعة لقرية المَرْجَة الكبيرة، وزرنا الزاوية الأمّ حيث يرقد الشيخ (سيدي محمد بن عبد الرحمن/ بوقبرين) كنّا بعرش (آثْ أَسْمَاعِيل) بدائرة بوغني، وانتقلنا إلى بعض الزوايا والرباطات التي كانت من امتدادات الطريقة الرّحمانية، كما صوّرنا الكثير من المخطوطات ذات العلاقة بالموضوع، أُفدنا من مقالات كثيرات، وفتحنا الشّابكة، ووجدنا دراسات وصوُراً ونسخاً من بعض المدوّنات، فأعطتِ الموضوعَ روحه الأنيق... إلخ.

وفي مسألة المدوّنات دائماً، فقد أُفدنا من بعض المراجع، ولا نعدّم الفائدة في ما رجعنا إليها، ولكنّ الأهمّ فيها أنّا وجَدنا الآراء الكثيرة، ورأينا بعض التّضارب ولكنّ العبرة في منهج قراءتها قراءة مُعاصرة لاستحضار الماضي، ووضعه في سياق تطوّر البَحْث التّاريخي، وبمنظور النّزاهة لا التّوجيه السيء، أو المقصود منه التّشويه؛ لأنّ أكثرَ الكتابات التي غطّت فترة الحركات الوطنيّة كتابات فرنسيّة وتحتاج إلى تمحيص؛ حيث يُعتَبَرُ الباحثون الفرنسيون من الأوائل الذين اهتموا بمحفوظات الطّرق الدينيّة والزوايا فكيف نتعامل إذاً أمام كتابات عسْكَر فرنسا وكتابات الكولون، وهي ليست نزيهة كلّها، ولتصحيح ذلك لا نعدم ضرورة العودة إلى الروايات الشّفاهيّة المُستخلصة من الذاكرة الشّعبية التي تحتفظ بالكثير من المآثر (شعر + أمثال + حكم + وعظ) شَرَطُ أن تخضع للمنطق والعقل، وقد نُصحّ الكثير من التّشويّهات التي ألحقت بتاريخنا وبمؤسّساتنا العلميّة والدينيّة التي كانت في الفترات السابقة للاستعمار. وفي هذا المقام تجدر بنا الإشارة بأنّ ننبّه الحضور والقُرّاء بأنّ زوايانا ملأى بالمخطوطات، وهناك صناديق مُغلقة (إفنيقن) تحتاج من يفتحها ويعمل على تحقيق ما تحمله تلك الأوراق الصّفراء من زادٍ علميٍّ، وجعلها في مُتناول القارئ، وأن تكون بيد المؤرّخين والباحثين ليُشَفّروها.

وهكذا، فإننا نعمل من أجل إحياء التراث الوطني الذي كان السلف الصالح قد أرسى قواعده على أسس علمية وحضارية، في إطار الدين الإسلامي الحنيف ويدخل كل ذلك في التوجّه الذي نستهدف منه كشف الغطاء عن الدور الحضاري والعلمي والديني والسياسي لفعل بعض الطُرُق أو الزوايا التي توصّم بأنها من طُرُق التنوير. وهذه الطريقة من طُرُق التنوير فعلاً؛ فأنعم بها من طريقة لم يُسجل عليها أنها تفعل فعلَ بعض زوايا التنويم والتَّحويل. الرحمانية هي طريقة تقدّم المعقول، ولا تنفي المَقول، طريقة عقلية واعية نشيطة ساعية، وزوايا تابعة لها تعمل على تدريس كلام الله، والفقه، وتعمل على فعل الخير، وتُفعل التنوير بالوعِي؛ وتقدّمه على الوَعظ.

وهذا ما نقوم به في (مختبر الممارسات اللغوية في الجزائر) بجامعة مولود معمري، ببنيزي-وزو، وقد سبقَ أن أنتجنا أعمالاً في تراث المنطقة؛ باحتذاء مؤاصفاتٍ مُعاصرة في استنتاج التاريخ، وإليكم المجموعة الأولى منها:

- 1 — معجم عربي قبائلي. للشَّيخ الحدَّاد، تح: صالح بلعيد + بلقاسم منصوري.
- 2 — المعجم المدرسي الوظيفي: عربي قبائلي/ قبائل - عربي. فريق بحث.
- 3 — في المازيغيات. صالح بلعيد.
- 4 — الأمثال والحكم المازيغية المتداولة في منطقة معاتقة. كاهنة محيوت.
- 5 — سلسلة مقالات في مجلة (معالم) يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية. سلسلة موسومة (حكمة الأجداد).

6 — في المختبر فرقة تطوعية تعمل على جرد وتصوير وفهرسة مخطوطات منطقة الزواوة. وسبقَ أن قدّمنا لوزارة الشؤون الدينية هذا المشروع، وما نزال ننتظر الإجابة.

7 — في المختبر فرقة مُعتمدة سنة 2015 من قبل المديرية العامة للبحث والتكنولوجيا CNEPRU تعمل على إنجاز (مُصطلحات المخطوطات).

وإنّ هذه الأعمال مُجزئة، وهناك الكثير من الأعمال، وهناك مجموعات من المشاريع تنتظر الإنجاز، وهناك ما هو في الافتراض الذي نستطيع أن نُقدّم لمن

يُهمّه الأمر أفكاراً في كـيفيات البحث والإنجاز وتقديم الاستشارة. وإنّا سوف نعملُ على تحقيق المرغوب بتؤدّة، وبما أوتينا من جهود فردية وجماعية، وما يُقدّمه المُختبرُ من مُساعدات علمية وخبرات استشارية، ودراسات مرجعية في خدمة التراث الوطني ونأمل أن ننال تشجيعاتكم؛ وهي التي تمُدنا بالقوّة والعمل والأمل.

وإنّا نرى أمثال هذه الدراسات التي يقوم بها (مُختبر الممارسات اللّغوية في الجزائر) تعمل على كشف تراثنا الوطني الزّاهر، بل تُبسط عنه اللّثام، إن لم نقل: إنّها تقدّمه للقارئ علّه يستفيد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أمثال هذه الأعمال تبعث تراثنا المدفون بما كان عليه، وسيكون ذلك بما خطّطته فرق البحث -في المُختبر- من منهج البحث الأكاديمي، وما سوف يكون في لاحق من الإنجازات ونروم منها أن تسدّ بعض النقص في التراث الوطني. تراثنا من الذّخر ومن كنز الأجداد؛ والذي يجب حمايته؛ وبخاصّة العمل الأخير حول (مُصطلحات المخطوطات) فهو من الأعمال التي نزع أن لها الخصوصية والريادة على المستوى الوطني والعربي؛ من حيث تعريفها الوجيز، ونوعها، ومقابلاتها باللّغات الأربعة: العربية والإنكليزية والفرنسية والمازيغية.

2 - عرضُ الموضوع: إنّ الموضوع الذي نعرّضه أمامكم اعتمدَ المنهج الوصفيّ التحليلي؛ حيث قام على توصيف الطّريقة الصّوفية الرّحمانية من منظور التعرّف عليها من اختياراتها المتمثلة في التّصوّف، والتّدريس، والتّربية والإصلاح، والتّجديد، وصدّ كلّ المسخّ والذّويان، وعدم التّطريق، وعدم موالاة الاستعمار، فرأينا أنّها ليست من زوايا الاستغلال، أو من زوايا الإهمال، أو من زوايا الإغلال، وهذه الطّريقة الرّحمانية لُقبت بعَرين العلم والعلماء، ودار الإفتاء والصّلحاء، وبيت الفضل والفضلاء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ هذه الدراسة مالت إلى الجانب التحليلي في البحث؛ حيث حلّلت مُختلف الظواهر والإنجازات للطّريقة من منظور النّقد والتّعديد، بما كان في ذلك العصر، فيكون القياس هنا: قياس الماضي على الماضي، وربّما تكون هناك استشرافات لاحقة وهذا بعدم الخروج من المدونات الرّحمانية بما تركته من مخطوطات، أو ما تركه

المُريدون من أثرٍ، وكذلك تلك الكتب التي أُنجِزَت في الطَّريقة/ الزَّاوية الرَّحمانية الصوفية.

ولقد كان عملنا عبارةً عن محاولةٍ استجلاءِ معالمِ الطَّريقة الرَّحمانية الصُّوفية بحضورها العلمي، وسعيها لنشر الوعي قبل الوعظ، والإصلاح بالتربية، وبما لها من حِكْمة وتبصُّر بالفقه المُستنير؛ لتحقيق مصالح الأُمَّة من منظور أن الأُمَّة لا تجتمع على ضلالة، وأنَّ الدِّين يسرُّ ورحمةً وهدى للنَّاس. هو وعيٌ ووَعظٌ وتربيةٌ وإصلاحٌ عند هذه الطَّريقة؛ ضمن ثوابت الشرع ومقتضيات العقل ومُراعاة المصالح المُرسلة. إصلاح تربوي ثقافي وإقناعي؛ ينطلق من نقد تلك الممارسات الخُرافية للوصول إلى التَّغيير، وإلى نشر الدِّين القائم على القيم السَّمحة، وذلك هو المفتاح للرَّقْي.

إنَّ الرَّحمانية طريفةٌ عمل، ودارُ جهادٍ، ورابطةٌ صُوفية، وصومعةٌ حصينة كان منطلقها من عرش (أثْ أَسْمَاعِيل) واشتعلت عبر التَّراب الوطني، وخارج الجزائر. وإنَّا لَنَرَاهَا في البدء طريفةً صُوفيةً ربَّانيةً مُسلمةً مُجاهدةً، عملت على تسيير نفسها لتكون طريفةً هدايةً وتعليمٍ وفضلٍ وترقية. وخالفت الكثيرَ من بعض الطُّرق والربَّاطات في توجَّهاتها العلمية، لما سجَّلته عليها من انحراف عن الدين وما آلت إليه من زيغ، وما لوحظ عليها من تنويم. طريقة رحمانية بخصوصيات المجتمع الجزائري الذي كان يئن من قهر ضرائب الأتراك، ثمَّ فرنسا التي ألحقت به الإهانة في التقييد، وما لها من الاستعباد والتَّتكيل. طريقة رحمانية مؤثرة بما لها من أثرٍ في المجتمع الذي تتحسَّس مشاعره، وترفد دوافعه، وتعالج قضاياها، ولا تألو جَهْدًا في حمله على فَهْم الدِّين الصَّحيح، دون حاجةٍ إلى وسيط شافع كما تعمل بعض الطُّرق التي تدَّعي الصُّوفية، وهي تعمل على تنويم المجتمع، بإسقاط روحانيات على الشَّيخ، وعبادة من يَلْفُ بعباءة الشَّيخ، وكلَّ من يتَّخذ كلام الشَّيخ أو من ينشر أقوال الشَّيخ، أو كلَّ من يسيِّر على طريقة الشَّيخ...

ونقف وقفاتٍ دقيقاتٍ في صوفية هذه الطريقة، وهي خلوتية صوفية سلفية نسبة إلى السلف الذين كان لهم دور في خدمة العلم والدين، وبناء نهضة الأمة وليست بالمعنى القذحي. وتقتضي السلفية شرطين اثنين:

"أولهما: الرجوع إلى الأصول والمصادر الصحيحة، بعيداً عما راكمته الثقافة العربية من تراث مُحَرَّف أو مُتجاوز لم يَعُدْ صالحاً.

ثانيهما: القدرة على تفعيل هذه الأصول والمصادر في الواقع، وإمكان الاستفادة منها في تطويره وتجديده¹". هي سلفية ممزوجة بالفلسفة في إطار الترقّي الأخلاقي، وفي منهج المعرفة والطمأنينة والسعادة والتعبير عن الحقائق.

3- منهج الطريقة الرحمانية: إنّ الرحمانية طريقة صوفية خاصة، لها منهجها المُستمد من علوم الظاهر والباطن، وبنّت منهجها الطبيعي خارج التّمظهرات التقليديّة الحافلة بطُفُوس القداسة، فهي لم تتّمظهر في سُلطة الولي الصّالح المعصوم، ولا في أبّهات شيخ الزاوية من منظور الاستعباد الذي حصّل في بعض الزوايا، حيث هناك من الطُّرق التي تُعدّ نفسها صوفية، ولكنها بالغت في التّناء على شيوخهم واطّراد أفعالهم وامتداح فضائلهم ومناقبهم، ومنحوهم ألقاب الولي أو القطب أو الغوث، ومضّوا على درب الإجلال إلى منزلة التّقدير بالمعنى الدقيق بل ذهبوا إلى أنّ بقاء العالم وقفّ على (تنظيمهم) فهم (رجال الغيث) وقوامهم (النّقباء والأبدال) و(الأمناء) و(العُمَد أو الأركان)... وحذا مُقلّدو المُريدِين وأتباعهم هذا الحذو، ولكنهم لم يأخذوا من القلادة إلّا ما اتّصل بالسلوك العملي من الإيمان تسليماً بكرامات الشّيخ ومناقبه، قاصرين جهدهم على الإذعان، والتّقيد براتب الأوراد والأذكار و(الوظائف) المنبثقة عن مؤسّس الطريقة أو تابعيه أو وارثيه². وهكذا نجد الطريقة الرحمانية لا تعبّد الشّيخ في ذاته، بل تنظر إلى أقواله المقرونة بأفعاله، فإذا لم يكن مع المجتمع ينفعل بأفعالهم، ويتأثّر لما يُصابون، بل يسألُك سلوكهم، فهم يبيّعون عنه ويعزّلوه.

3/1- الصّوفية الرحمانية: إنّ صوفية الطريقة الرحمانية -كما تبدو لنا- صوفية عملية مُنطلقها من تأثّرها بفلسفة أو بفكر العالم محمد بن محمد

الغزالي 505 هـ الذي أرسى أُسُس التَّصَوُّفِ السَّنِّي المُعْتَدِلِ التَّصَوُّفِ القَائِمِ عَلَى تَمَحُّيصِ صُنُوفِ المَعْرِفَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَتَنْزَهُ النَّفْسِ عَنْ أَخْلَاقِهَا المَذْمُومَةِ وَتَحْلِيلِهَا بِذِكْرِ اللَّهِ وَحَرَكَاتِ المُنْصَوِّفَةِ مُقْتَبِسةً مِنْ نُورِ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ. إِنَّ تَصَوُّفَهَا تَصَوُّفٌ إِسْلَامِيٌّ مُتَحَقِّقٌ فِي السَّلُوكِ، وَقَدْ ظَلَّ هَذَا السَّلُوكُ ذَاتَ صِيغَةٍ حُرَّةٍ فَرْدِيَّةٍ يَتَمَيَّزُ أَصْحَابُهُ بِالعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالْقِيَمِ، وَالنِّضَالِ التَّحْرِيرِيِّ، وَبِهَذَا أُخْرِجَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ الصُّوفِيَّةُ مُرِيدِينَ أَعْطَوْا دَمَهُمْ رَخِيصاً فِي الحَرَكَاتِ الوَطَنِيَّةِ، وَكَانَ لَهُمْ دَوْرٌ فِي الجِهَادِ الْأَصْغَرِ وَفِي الجِهَادِ الْأَكْبَرِ، وَهَذَا كُلُّهُ يَأْتِي فِي إِطَارِ اسْتِكْمَالِ تِلْكَ الحَرَكَةِ وَالانْتِفَاضَةِ الَّتِي قَادَهَا الْأَمِيرُ عَبْدِ الْقَادِرِ فِي رُبُوعِ الوَطَنِ، وَالَّذِي كَانَ لَا يُؤَالِي وَلَا يُدَارِي الاسْتِعْمَارَ، وَاتَّخَذَتْ الرِّحْمَانِيَّةُ شِعَارَ (مَوَالَاةِ الاسْتِعْمَارِ كُفْرًا + مَصَافَحَةِ الْمُسْتَعْمَرِ تَبْطُلُ الصَّلَاةُ) لِأَنَّ الاسْتِعْمَارَ لَا يَلْتَقِي وَالْإِسْلَامَ، وَهَذَا مَا قَالَهُ البَشِيرُ الْإِبْرَاهِيمِي تـ 1965م فِي قَوْلِهِ "الْإِسْلَامُ وَالْاسْتِعْمَارُ ضِدَانٌ لَا يَلْتَقِيَانِ فِي مَبْدَأٍ وَلَا فِي غَايَةٍ؛ فَالْإِسْلَامُ دِينُ الحُرِّيَّةِ وَالتَّحْرِيرِ وَالْاسْتِعْمَارُ دِينُ العِبَادِيَّةِ وَالْاسْتِعْبَادِ، وَالْإِسْلَامُ شَرَعَ الرِّحْمَةَ وَالرَّفْقَ وَأَمَرَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْاسْتِعْمَارُ قَوَّاهُ عَلَى الشَّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ وَالطَّغْيَانِ، وَالْإِسْلَامُ يَدْعُو إِلَى السَّلَامِ وَالْاسْتِقْرَارِ، وَالْاسْتِعْمَارُ يَدْعُو إِلَى الحَرْبِ وَالتَّقْتِيلِ وَالتَّنْمِيرِ وَالْاضْطِرَابِ وَالْإِسْلَامُ يَثْبِتُ الْأَدْيَانَ السَّمَاوِيَّةَ، وَيَحْمِيهَا وَيَقْرِّ مَا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَيَحْتَرِمُ أَنْبِيََاءَهَا وَكُتُبَهَا، بَلْ يَجْعَلُ الْإِيمَانَ بِنَتِجَةِ الْكُتُبِ وَأُولَئِكَ الرِّسَالِ قَاعِدَةً مِنْ قَوَاعِدِهِ وَأَصْلًا مِنْ أَصُولِهِ، وَالْاسْتِعْمَارُ يَكْفُرُ ذَلِكَ وَيَعْمَلُ عَلَى هَدْمِهِ وَخُصُوصاً الْإِسْلَامَ وَنَبِيِّهِ وَقُرْآنَهُ وَمَعْتَقِدِيهِ"³. وَبِهَذِهِ التَّعَالِيمِ الْعَالِيَةِ الَّتِي احْتَفَظَ بِهَا الْأَحْفَادُ، وَتَعَمَلُ بِهَا الزَّوَايَا الْمُنْصَوِّفِيَّةُ فِي لُؤَاءِ الطَّرِيقَةِ، فَجَدَهُمْ جَمِيعاً يَحْظُونَ بِمَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مُحْتَرَمَةٍ بِفَضْلِ رَأْسَمَالِ رَمَزِيٍّ لِلطَّرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ وَلَيْسَ لِلشَّيْخِ، وَيَحْمِلُ فَقَطْ قِيَمَ الشَّرَفِ وَالبَرَكَةِ وَالشَّرْعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ: سِيدِي/ سَي.

إِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تَلْعَبُ "دَوْرَ الوَسَاطَةِ بِكُلِّ تَمَثُّلَاتِهَا؛ الوَسَاطَةِ بَيْنَ الْوَلِيِّ وَقَاصِدِي اللَّهِ مِنْ أَجْلِ الْعِلَاجِ أَوْ النَّسْلِ أَوْ الْيُسْرِ أَوْ الْبَرَكَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ الطَّلَبَاتِ الَّتِي يَسْتَجِدِّي الْمُتَخَيِّلُ الذَّهْنِي الْجَمْعِي تَحْقِيقَهَا وَالتَّوَصُّلَ إِلَيْهَا عَنْ طَرِيقِ

تَدْخُلُ رَبَّانِي إِلَهِي بوساطة من الولي الصالح أو الشريف، وهو يطبع الوساطة بالطابع الروحاني الميتافيزيقي⁴. كما لا تُكْرَسُ مبدأ القبول بالمزارات والأولياء التي شرعها الخطاب الفقهي الوهابي، وجعلها وسيلة وغاية وإيديولوجية لتنويم الناس، والرضا لما هم عليه من استبداد الأشخاص والاستعمار على أنها قدرٌ مقدّر فهذه الطريقة رافضة للخرافة والبدع تطبيقياً لتعاليم الإسلام.

2/3 - الطريقة الرحمانية والأضرحة: يسمّى صاحب الطريقة بـ (بوقبرين)

فإذا زرت مثواه في الزاوية الأمّ، فتري القبر يتصدّرُ صحنَ الزاوية، وتري الاحترام من قبل الطلبة والزوّار، ولا تسمع الاعتقاد بالمرقد، ولا بما يُقدّم لها من هبات، وقد تدور في ذهن الزائر أسئلة مشروعة من مثل:

— هل يُعدّ المرقدُ من المقدّس؟

— هل تلك الهبات تذهب في تذهيبها؟

— هل تعود إلى القائمين على الزاوية؟

ولا تطول الإجابة عندما تسمع القائمين يقولون: كلّ هذا يذهب في سبيل الخير بدءاً من الإنفاق على الطلبة، أو على عابري سبيل، بل لا تری تلك الأبهات على الأضرحة التي هي عبارة عن مثاوي للاعتقاد والرّهبنة والتذكير بالموت، فإذا رزت قبرَ (الحامة) ترى الضريح المسيح داخل المقبرة، فلا تميّزه إلا تلك الكتابة (ضريح الولي الصالح). بالفعل هي أضرحة/ مرقد تُرفع فيها الأيادي لطلب المغفرة للهداية وتقويم السلوك، وهي خصوصية يستدعيها المقام، ولا تعني التوسّط في العفو، بقدر ما تعني اتّخاذ الولي رمزاً للتقوى، والقُدوة الصالحة، وغاية ما في الأمر أنّ هذه القبور تحملنا على أن نقرأ التّاريخ، ولا نعيش على غيابه بأننا نسير إلى الموت والموت تسير إلينا، وعلينا الاتّعاظ ليس إلّا. إذاً هي قبور في الزوايا الرحمانية تذكّرنا بالفناء، والأحرى أن نفتخر بها في بلادنا، فهي مرقد الأولياء الصالحين ومرقد الخشوع والتّدبّر، وأنّ الدنيا كلّ من عليها فان. والطريقة الرحمانية لم يُسجّل عليها أنّها اتّخذت هذه القبور مزارات للتعبّد أو استعباد الناس، بل كانت قبوراً عادية لأناس غير عاديين؛ لأناس طلقوا الدنيا، وقوموا الناس، فنصحوا

ووعظوا وأوعُوا، وحصلَ لهم المقامُ العالي في المجتمع، وترى تلك البساطة في قبورهم، ولا يَلْفُها إلا ذلك القماش النَّسوي وتحتَه تابوت خشبي عادٍ.

3/3- استقامةُ شيخِ الطَّريقة: إنَّ سيدي الشَّيخ الرَّحمانِي في تعاليمه الأخلاقية لا يَبْنِيها على الماضي الضَّعيف، ولا على ماضي الأجداد، ولا يستدعي الماضي حيث الشَّرَف والبركة، ولا على سلوكات الاحترام والتَّقديس الميتافيزيقي الضيق إنَّه كان يُؤسِّس لحاضره ومُستقبله وفق مُقوِّمات رسَّختها الطَّريقة الرَّحمانية، فكان حماسه الدينيُّ والوطنيُّ هو الذي أكسبه الشَّرعية؛ شرعية الأتباع؛ لأنَّه يدافع عن دار الإسلام، وإنَّ الشَّرَف عندها يتكسَّب تاريخياً عبر شرعية النِّضال، والذي هو تجديد للإسلام عبر مُحاربة الفرنسيِّين، وكان الشَّيخُ الحَدَّادُ أحدَ هؤلاء الذين اعتمدوا تجليات الطَّريقة في الدعوة إلى الجهاد، وقد تبنَّى النِّضالَ والجهادَ في سبيل الله، بما أثاره من حماس، وبما أعدَّ من جيش مُنظَّم تنظيمًا مَصْبوطاً عن طريق القائد السِّيَاسي والعسكري المقراني "... أما في الجبال فبقيت المقاومة على أشدها في شكل تمردٍ شامل، وفي ثورات مُتتالية في جهات مُتباعدة. لا تدلُّ على قوة وإنِّما على حميَّة وأنْفَة، إلى أن كانت أكبرها وخاتمتها ثورة الحاج أحمد المقراني سنة 1871 أثناء اشتغال فرنسا بحربها السَّبعينية مع الألمان⁵". وهكذا نراها قد تجاوزت وظيفتها الدينية لتصبحَ قوَّةً سياسية نافذة، ولهذا كانت في كلِّ مرَّة تجري مُحاولاتٍ لاحتوائها، والعمل على تدجينها وفقَ ما تراه السُّلطة الاستعمارية من منهجية السَّيطرة على منطقة القبائل عن طريق احتواء الزَّوايا، وكان دستورُهم في ذلك ما جاء به المُستشارون الذين بَصَّروا بأهميَّة الزَّوايا في منطقة القبائل من تدبير الاستقامة والتَّفعيل في النَّاس؛ حيث قالوا للعسْكَر؛ علينا الاستفادة من أخطاء الإسبان والأتراك، واعتماد منهج الاستيلاء على المُعمرَّات أولاً، وكان علينا:

— كَسَرَ النَّسيج الاجتماعي والثقافي، بفرض الفرنسية بالقوَّة.

— جَعَلَ الحواضر العلمية حواضر النوم والصَّوم.

— تَدْمِيرَ الزَّوايا والمساجد.

— جَعَلَهَا حواضرَ تابعة راکعة مُطيعَة.

وأمام هذه الخطط، فإنَّ الطَّريقةَ الرَّحمانِيَّةَ الصُّوفِيَّةَ التي استمدَّت منهجها من شرعية العمل الإصلاحي؛ بالاتِّكاء على مُرتكزات الحركاتِ الوطنيَّةِ الثَّوريَّةِ، لم تتركْ شرعيةَ التَّاريخِ والنِّضالِ ضدَّ المُستعمرِ وضدَّ الطُّرُقِيَّةِ، بل زادت بأن عملت على بناء تحريك شرعية جهاد النَّفس خارج ادِّعاء الكَرَاماتِ والمُعْجَراتِ، وخارج تحريم مُكَافَحةِ العدوِّ؛ والاستعمارِ قَدْرَ علينا أن نَرْضَى به إلى أن يرفعَهُ اللهُ... فاستنْفَرَتْ أَتباعها من فُقهاء وعُلماء وعامَّة النَّاسِ؛ ليُكونوا يداً واحدةً في مُحاربة الجَهلِ والعدوِّ والطُّرُقِيَّةِ، ومُحاربة ادِّعاء الغيبِ والتَّوَكُّلِ والقبولِ بالوضع دون التِّماسِ المُسبِّباتِ. ولقد كان عملها الإصلاحيُّ هو الذي تبنته جمعيَّةُ العُلماء المُسلمين الجَزائريين، وهذه الأخيرة زرعتِ المدارسَ في منطقة القبائل، وتُدَرِّسُ العربيَّةَ، وتعملُ على تحفيظ القرآن، إضافةً إلى تأسيسِ العديدِ من الزَّوايا التي حافظت على اللُّغة العربيَّة من الضَّياع والاستلاب النَّقافي الذي تعرَّضت له الجَزائر؛ حيث عاشت المسخُ في هُويَّتها، كما أسهمت الطَّريقةُ الرَّحمانِيَّةُ في الحركاتِ الوطنيَّةِ، وفي صنْعِ الاستقلالِ الوطني.

وهكذا، فالطَّريقةُ الرَّحمانِيَّةُ عبَّرَ كفاحها، وظفَّت المُقدَّسَ الدينيَّ من أجل التَّحرُّرِ والاستقلالِ على طول التَّاريخِ الجَزائريِّ، وعملتُ على تحرير المُقدَّسِ الدَّهنيِّ من البِدْعِ والخُرَافاتِ، وتحرير الإسلام من الضَّلالاتِ، وعدم التَّأسي بالمُقدَّراتِ، ولم يُسجَلْ عليها التَّاريخُ أنَّ لها كراماتٍ وخُزَعَبَلاتٍ وشَطحاتٍ، أو قامت مقامَ ما عَجَزَ عنه الطَّبُّ والعِلْمُ، كما لم يُسجَلْ أنَّ لها إشهاراً من قِبَلِ المُريدين؛ وينشرون بَرَكاتِ الوَلِيِّ الصَّالحِ على أنَّه يأتي بالمُعْجَراتِ، وأنَّه قريبٌ من اللهِ، أو هو الوسيطُ الشَّافيُّ، كما لم تُسجَلْ على الضَّرِيحِ أيَّةُ رَقْصاتٍ وجَذَباتٍ رمزيَّةِ، بل حتى فضاء الضَّرِيحِ يخلو من ساحة التَّجمُّع؛ كما هو الحال في أضرحة الزاوية الأُمِّ، أو في ساحة مسجد (بني زمنزر) ولا تُقدِّمُ أمامها الذَّبائِحُ ولا المَكْرُماتُ، ولكنَّك تُحسُّ بالرَّهبةِ وبالقداسةِ والغرائبيَّةِ المَعْقولةِ، وذلك ما يجعلُكَ تحترم أولئك النَّائمين في قبورهم وهم رموس، بما تركوه في النَّفوسِ، ولا تجد فيها إلاَّ تسويقَ الدِّينِ والحديثِ عن الشَّرَفِ والكرامةِ، كما لا تُوجد دلالاتٍ سيميولوجيَّةَ على قداسة ساكنِ

الضريح، فهو ليس مُميزاً بعلامة من العلامات، وإذا سألتَ عن الشيخ، فلا تجد إلاّ الكلام عن مرجعية الرجال الصّالحين، وأولياء الله التّقاة من المُرابطين، بمرجعية التّسنُن لا التّشيع؛ وهي مرجعية تلك الحركات المُرابطية في مواقفها العملية لرجال التّصوّف والصّلاح، وأشياخ الزّوايا، وعدد من العلماء الذين أظهرُوا مدى أهميّتهم ودورهم في تعبئة الأُمّة لصدّ كلّ المَخاطر، وكان لهم فضلُ تجديد الدين وترسيخُ القيم الدّينية والوطنية، وذلك ما جعل النّاس يلتقون حولها، وتكسب ودّ الكثير من الجزائريين، وكانت تلك الجماهير وقوداً للحركات الوطنية التي تنتفض وتثور في كلّ مرّة، بل كانت تلك الجماهير المُجنّدة من قبل الطّريقة الرّحمانية من القوى الحيّة التي يَسرّت للحركات الوطنية النّجاح في معركة الجهاد والتّحرير وفي معركة الوحدة الوطنية.

4/3 - التّربية والإصلاح: لقد تبنّت الطّريقة الرّحمانية التّربية والإصلاح شعاراً لها في مُعاملاتها اليومية وفي تدخّلاتها البنيّة، والتّربية تعني الإصلاح ويعنيان معاً مُراجعة شيء غير سليم لتصحيحه والارتقاء به إلى الأفضل. تربية تجديدية تسعى للنّهوض بِمحو الملامح المُشوّهة التي يقوم بها بعضُ النّاس الذين جعلوا أنفسهم يمثّلون الإسلام بممارسات تتويمية ما أنزل الله بها من سلطان. إصلاح ضمن تربية وخطاب مُخالف، بل إصلاحي تصحيحي لفعل بعض الزوايا التي تحمل الخطاب غير الإقناعي وغير تصحيحي ولا يتجاوب معها إلاّ مرضى النفوس، ولذا حازت السّبق في خطابها التّصحيحي "وليس يخفى أنّ هذا الخطاب التّصحيحي سيكون بالتّأكيد مقنعاً. ليس فقط للقائمين عليه والسّاعين إلى المشاركة فيه، ولكن كذلك لجميع أفراد الأُمّة حتى يتجاوبوا معه، ويتفاعلوا بوعي ومعرفة وإيجاب، وقبل ذلك بإدراك لإشكالية التخلّف بجميع أسبابه الداخلية والخارجية، وما يحتاج للتغلّب عليها، وكذا ما يقابلها من متطلبات النّقد⁶". ومن هنا، أتمثّل معالم هذه الطّريقة في التّربية والإصلاح، وأجد مُريديها يعملون على إبداع صيغ جديدة قائمة على إجراء التّحديث الفكري لإصلاح ثقافي، ولكن في غير انسلاخ من محيطهم، وفي نطاق إقناع بيني للعيش ضمن الإسلام وفي الإسلام.

وأمام هذا الفكر التّويزي نرى هذه الطّريقة تَلْقَى بعض الصّدّامية من بعض الطّرق الصّدئة التي لا تريد هذه التّربية الإصلاحية، ولا تسعى إلى الإصلاح، ولا تريد خطاباً تحديثياً، بل تسعى لبقاء الوضع على ما هو عليه وعلى سنن التّخلف الذي جسّدته بعض الأفكار، دون البحث في رفع المضايقات ولا التماس الأسباب. ولهذا نسمع من يقول: إنّها طريقة إبليسية، مُسَخطة (إيموسخيطان) عليكم اتقاء ضرورها والابتعاد عن شيوخها، وأنّ مُريديها سيُصابون بالجنون، ويَرَميهم الله بالطّعون، وهذا بفضل دعائنا الأوّاب وشيخنا الوهاب، وربّنا المُستجاب.

هو كلام وأيّ كلام، هو تشويه مقصود؛ يُراد به تنفير المُسلمين والمُريدين من سلوك الطّريقة الرّحمانية، وهي تُهمّ سلبية أسهم في محاولة إلصاقها بعض شيوخ الطّرق الخرائفية الخرافية؛ شيوخ منتفعون من التّخلف، وهم يُمصّون دماء الجزائريين بما جسّدته فرنسا فينا من خضوع، ولا تريد لنا الخلاص ولا النهوض ولا تريد لنا مواطنة في الأرض التي هي أرضنا، ولا في الدّين الذي هو ديننا، ولا يريدوننا أن نكون؛ لأنّنا من الأنديجان Les indigènes ولا يرضون عنا حتى لو اتّبعتنا ملّتهم ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة 120. إنّ الطّريقة الرّحمانية ترفع إصلاحاً غرضه التّطوير، كما ترفع شعاراً غرضه الجهاد وإخراج العباد من استعباد العباد، وتعمل على تحفيز القيم بهدف نقد ذاتي موضوعي، بالبحث عن النّقائص والهتات، والعمل على إزاحتها، والسّعي إلى بلورة ما به يتحقّق الإصلاح الذي يتمثّل في:

- وجود إرادة تحقيق الإصلاح؛
- الإصلاح ضمن الشّمول والعموم؛
- وضع الدّعائم التي تحدّد من الاعوجاج.

وأمام هذه الأفكار التي يملكها الشّيخ في عصره، نقول: هي أفكار سابقة لزمانها في بلاد المغرب، ولكن لا نستبعد أنّ شيخ الطّريقة عندما كان طالباً في الأزهر قد تأثّر بفكر المصلحين من مثل: جمال الدين الأفغاني 1897م، ومحمد عبده

1905م، وبغيرهما من رجال الإصلاح والتربية. وهكذا عندما عاد إلى وطنه نجده يعمل على التماس سُبُل النهوض، واتخاذ الأسباب، فنجد هذه الطريقة الصوفية الإصلاحية التربوية تضع منهج تنبيه الغافلين، وتعمل على بث الوعي فنراها تقوم على تأليف المجتمع في صورة بناء الشخص السوي المسلم، ضمن إصلاح المجتمع؛ حيث لا تقبل بفتح المواخير، ولا النزول إلى المخامر، طريقة لا توالي ولا تحابي ولا تهمها المداواة، ولا طلب المصلحة، ولا تقبل بالضرورات لدى الأفراد والجماعات، وتجاهر ضد الخرافات، وتتبنى التربويات. فنجد أثرها ظاهراً في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مجال التربية، وفي عدم موالاة المستعمر، فنرى الإبراهيمي ينصح المسلمين أفراداً وهيئات وحكومات بقوله "لا توالوا الاستعمار، فإن موالاته عداوة لله، وخروج عن دينه، ولا تتولوه في سلم ولا حرب، فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم، وغنيمته في الحرب هي أوضاعكم، ولا تعاهدوه؛ فإنه لا عهد له، ولا تأمنوه؛ فإنه لا أمان له ولا إيمان. إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة؛ فلا يكتب عليكم التاريخ أنكم زدت في عمره بموالاةكم، ولا تحالفوه فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عده". فالشيخ الإبراهيمي ينصح دون قُدسية كسبها من الجمعية، كما أن شيخ الطريقة الرحمانية من الناصحين الذين يحملون هموم الناس، ويدعو إلى الصّدق في العمل، ويرفض التّقدس، فلا قدسية إلاّ لله وحده، ولم يكن من أولئك الذين تُقدّس أرواحهم عن طريق ما يقوله، أو ما ينقله المریدون. فمریدوه لم يكونوا من أولئك الخدام الذين يستعملون اسم الشيخ في تطويق الناس، وجعلهم يعبدونه على غرار بعض الزوايا أو في بعض مزارات التدجيل "ويساهم الخدام والمریدون هم أيضاً في تدعيم الرأسمال الرّمزي للولي صاحب الضريح برواياتهم المتجددة حول حاجاتهم التي قضيت، ورغباتهم التي حُفقت بفعل مزايا وبركات الولي"⁷. ولا شك أن الطريقة الرحمانية حاولت زرع ثقافة الإصلاح المجتمعي، ولكنها لم تصل إلى عموم الناس لعدة عوائق، وبخاصة وجود الاستعمار وفشو الأمية، ونقص التجربة، وكانت من مسببات تعطيل الإصلاح جزئياً.

4 - التراتبية في الطريقة الرحمانية: إن هذه الطريقة الرحمانية لم تتعرض

لشكل من أشكال النقد أو الطابع الإيديولوجي، فلقد وظّفت الأشكال الحديثة عبر مستويات تنظيماتها الداخلية، وفي برامجها التدريسية، وفي تراتبيتها في المشيخة وفي درجات العاملين في الزوايا بمنظام داخلي متداول، فحازت مرتبة الشرف والتقدير؛ بما كانت تعمل به من منهجية التدريس بدءاً من كتابتها التي تؤدي وظيفة مساعدة الزوايا، واعتمادها على برنامج ومنهاج محددين، حتى أصبح البعض منها رباطات علمية يلتحق بها الطلاب من كل الأماكن، وفي نظام داخلي وبخدمات ذاتية. ونجد فيها نظام الإجازات والكراسي العلمية، كما نجدها رباطات الاختصاص والإفتاء، ونجد فيها الشيوخ الأقطاب يمثلون طريقة أو نزعة ما ولكنهم يتمسكون بمذهب الإمام مالك، ومن ثم يؤلفون فيه، ويدعون إليه، ويلتحق بهم المریدون، ويتبنون طريقته ومذهبهم، وهكذا يورث الشيخ للمريدين الطريقة وما تحمله من مسالك القول والفعل، ويبقى التداول قائماً أباً عن جد، ولذا نجدها قد رسخت قيماً إسلامية ووطنية في التسيير وفي الجهاد، ويمكن أن تنقل إلى غير الأصلاّب، فلم يبق المؤسس (سيدي محمد عبد الرحمن الأزهري) إلا في الاسم وهذا هو ما حصل في كل من زاوية الهامل، وزاوية طولكة، وزاوية الحملاوي وزاوية غليزان، وزاوية بلعموري... وبقيت عبرة للطرق الأخرى، ويمكن النظر إليها على أنها مدرسة دينية علياً عامّة، يديرها الصالحون، كما هو في مذهبها أن الصالح (الشریف) يكون من أهلها، ومن غير أهلها، وأن الزاوية رباط علمي يقصد في ذاته ولذاته - ومن كل العالم الإسلامي، فليست حكراً على فئة دون أخرى، كما أنها ليست ملكية عائلية لا تخرج منها، وتصبح من الموروث الضيق.

إن الطريقة الرحمانية الصوفية تتبع الإسلام الحركي الذي يقبل الآخر، إسلام يتعايش مع الديانات السابقة، ويرفض كل أشكال العنف والتطرف، إسلام متكيف يقبل التطور خارج النقية، وهو إسلام شعبي صلاحي شريفي Chérifisme، إسلام متجه إلى عقل صلاحي عرفاني بياني برهاني، ونجد فيه لقب (الشریف) ليس مجالاً مغلقاً للشيخ أو لفئة من الناس أو للأصلاّب، بل لقب يطلق على العباد

الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ، وفيه شَرَفُ الْإِنْتِسَابِ الشَّرْفِيِّ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ والتَّقَرُّيرِ السَّلَوَكِيِّ، والتَّدْبِيرِ الْمُنْطَقِيِّ، وسلْطَةُ الْقَرَارِ، فهو رَأْسَمَالٌ مَعْنَوِيٌّ يَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ الشَّرِيفُ (سَيِّدِي/ سَيِّ) والشَّرِيفَةُ (لِلَا) بِمُمارَسَةِ الصَّلَاحِيَةِ فِي الْفِعْلِ الدِّينِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ، وفيه كَذَلِكَ لَقَبٌ أَوْ شَرَفٌ (حُسْنُ التَّدْبِيرِ السِّيَاسِيِّ) وَقَدْ تَحَصَّلَ عَلَيْهِ كُلٌّ مِنْ كَافَحٍ فَرَنْسَا فَعَدُّوا مِنَ الْأَشْرَافِ. وَهَكَذَا تَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ رَاكَمْتُ رَأْسَمَالاً رَمَزِيّاً وَشَرْعِيّاً كَبِيراً مُقَارَنَةً مَعَ الطَّرِيقِ الْآخَرِ؛ بِانْفِتَاحِهَا عَلَى كُلِّ النَّاسِ الْمُخْلِصِينَ النَّزِيهِينَ الَّذِينَ يَخْدُمُونَ الشَّأْنَ الْعَامَّ، وَعَلَى زَوَايَا مَذْهَبِيَّةٍ وَطَّرِيقَةٍ وَإِيدِيُولُوجِيَّةٍ دُونَ عَقْدَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا خَالَفَتْهَا فِي الْمَسِيرَةِ وَفِي النَّضَالِ وَفِي الْمَنْهَجِيَّةِ، وَلَهَا مِيزَاتٌ كَثِيرَةٌ، وَمِنْ أَهْمِّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، مَا تَفَرَّدَتْ بِهِ مِنْ جُهْدِهَا فِي تَحْرِيرِ الْأَفْرَادِ مِنْ قُبُودِ زَوَايَا التَّخَلُّفِ.

1/4- الحِفاظُ عَلَى الْأَعْرَافِ وَالْقِيَمِ: هُنَاكَ أَعْرَافٌ قَدِيمَةٌ وَجَدْتُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

وَيَعْمَلُ بِهَا الْقَبَائِلُ، وَتَعَدُّ مِنْ شَرَعِ اللَّهِ، وَهِيَ مِنْ نَهْجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، مِنْ مِثْلِ:

— الْإِثَارَ وَالْأَخْذَ بِيَدِ الْأَغْيَارِ؛

— الْعَمَلُ عَلَى جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ؛

— تَحْقِيقُ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ شَرَعٌ مِنْ شَرَعِ اللَّهِ.

كَمَا رَأَتْ الطَّرِيقَةَ بِأَنَّ الْعَادَةَ وَالْعُرْفَ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الشَّرِيعَةِ، وَبِخَاصَّةِ تِلْكَ الَّتِي لَا تَتَعَارَضُ مَعَ الدِّينِ وَالْحَقِّ، وَأَنَّ الْقِيَمَ كَذَلِكَ أَعْرَافٌ وَأَحْكَامٌ أَخْلَاقِيَّةٌ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا وَجُودُ مَوَاقِفٍ مَعْيَارِيَّةٍ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ: قِيَمُ الْخَيْرِ وَالتَّسَامُحِ، قِيَمُ التَّعَاوُنِ وَنَشْدَانِ الْحَقِّ، قِيَمُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ... وَلِلْقِيَمِ وَظِيفَةُ اجْتِمَاعِيَّةٌ مُوَازِيَةٌ لِلْقَوَانِينِ بِاعْتِبَارِهَا أَسَاسَ الْاسْتِمْرَارِيَّةِ فِي تَوَازَنِ الْمُجْتَمَعِ "وَأَنَّ الْعُرْفَ أَحَدُ الْقَوَاعِدِ الْعَشْرِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا أَحْكَامُ الْمُعَامَلَاتِ فِي الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ بِالْخُصُوصِ؛ الْمُتَّسِعِ لِلْمَشَاكِلِ وَالْمُسْعِفِ لِلنَّاسِ فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. وَأَنَّ إِطَارَهُ الْعَامَّ فِي الشَّرِيعَةِ، وَمَنْزِلَتُهُ الْمَهْمَةُ بَيْنَ آدَابِهَا يُعْطِيهَا مِنَ الْمُرُونَةِ وَالسَّعَةِ مَا يُؤْهِلُهُ لِيَجْعَلَ مِنَ الْفَقْهِ الْإِسْلَامِيِّ فَقْهًا مُتَطَوِّرًا عَالَمِيًّا يَسِيرُ مَعَ وَاقِعِ الْحَيَاةِ، وَيُلَاقِ كُلَّ الْمَدْنِيَّاتِ وَالتَّطَوُّرَاتِ. فَقْهًا يَنْبُضُ بِالْحَيَاةِ، قَادِرًا عَلَى اسْتِيعَابِ الْمُسْتَجْدَاتِ، رَافِعًا الْحَرَجَ عَنِ النَّاسِ، مُوَكِّبًا الْأَصْلَ الْأَصِيلَ الْوَارِدَ

في قوله عزّ وجلّ ﴿وَمَا جَعَلْ لَكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وفي قوله ﴿يُرِيدُ بِكُمْ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾⁸. ولقد وضَعُوا أعرافاً فاعلةً في المبادلات التجارية كما أقاموا سلسلةً من القوانين الرَدْعِيَّةِ تخصّ الغشّ والتحايل والأمن وركوب الخيل في التجمعات، وقوانين في الميراث وفي تأمين الطُرُقَات، وفي شؤون السّلام مع أهل الدّمة، وفي الصّلح ودفع الدية... وكانت الأعرافُ عندهم ضوابط صارمة فيها بنود مُلزِمة وإجراءات تنفيذية مقننة توازي العقوبات، وهي أداة تنظيم شؤون الجماعات أو العروش أو البطون. والأعراف مقدّسة لا تُخرق نصوصها، ولا تُحرّف ولا تُعطّل إلا بالاتفاق الجمعي، ويُشهر لها لتكتسب صفة الإلزام.

4/2- الاحتفالات الدّينية: في الحقيقة كانت الاحتفالات قائمةً في بداية الإسلام بشكل من الأشكال، فقد ارتبط الاحتفالُ بالمولد النبوي الشريف، وما كان ينشد فيه وما يُقال في رحاب رسول الله، وكان ذلك عند الشّعراء من مثل: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة قبل أن يتجسّد عند رجال الدين. وهكذا كانت تقوم به أدبياتُ الطّريقة الرّحمانية، فكانت تحتفل بالأعياد والمولد النبوي وعاشوراء... ولم يسجل عيها أنّها تقوم بتلك الجذبات أو اللّطّامات وإقامة الزرّدات والهرّدات. وتحدّثنا المصادر عن قيام الاحتفالات بهدوء عن طريق إلقاء المديح الديني، وقراءة البُرْدَةِ ثم قصيدة الهمزية، ولم تكن الاحتفالات عندها بدعة، بل رأوها بدعةً حسنة؛ بتلاوة القرآن والأذكار والصّلوات، وجمع الأموال لمساك الخير. ولكنها استكرت فعل الطّرقية التي جعلت الاحتفالات بدعةً مكروهةً أو مُحَرّمةً بما كانت تأتية من الخروج عن الدين.

5 - العبرة الآن: إنّ مثل هذا الملتقى بحاجة إلى توضيح رؤى هذه المؤسّسات الدّينية (الطّرق الصّوفية) التي قامت في سابق من الزّمان، فهل يمكن تجديدها وتحسين طرائقها التّربوية والإصلاحية؛ لتكون مُساعدةً للمسجد والمدرسة ولإصلاح المجتمع الذي تنشده الدّولة الجزائرية. نحن الآن بحاجة إلى فكر تنويري مُعاصر في إطار الإصلاح الشّامل، وهذا الإصلاح يقتضي النّظر إلى الإسلام نظرة دين يُساير المُستجدات، دين الدنيا والآخرة، دين تسامح؛ يسعى

للإسهام في الحضارة المعاصرة، دين بشارة واستباق وقبول الآخر، والتبليغ لمُؤمّاته بالتّي هي أحسن.

وفي هذا السّياق، يبدو أنّ من أولويات الوقت المعاصر تجديد الخطاب الإسلامي بمراعاة آليات الوعي بالمرحلة التّاريخية، وما نعيشه من مخاض، والعمل على تقليص الحدة المعاصرة، وعدم الوقوف في الصراعات مع غير المسلمين، وجعلهم يعيشون إسلاموفوبيا لدرجة حول البعض منّا الإسلام إلى بُعْبُعٍ مُخَوِّفٍ، أو كهنوتٍ طاغٍ مُتَجَبِّرٍ. نحن بحاجة إلى تحديث هذه المؤسسات الدينية: مساجد - زوايا - رباطات، ولا بدّ من النّظر في الروح الدّيني من خلالها، ومن خلال ما تزرعه من قيم مجتمعا ومُؤمّات حياتنا الخاصة، وأن يكون سبيلنا الإسلام السّنيّ المُعتدل وهو إسلام السّلف الصّالح.

لسنا هنا في موقع إعطاء دروس الوَعظ، بل نحن جزائريون نريد لبلدنا الازدهار والمحافظة على مؤسّساته ومُنجزاته، فلا نريد الدّخول في الفوضى، ولا في الخراب وفي الهدم والدّمار، ولا نريد الرّجوع إلى الخلف أو التّخلف. نريد من مؤسّساتنا الدينية أن تحمل الخطاب الدينيّ التّأثيريّ المُفَنع في التّربية والإصلاح ونشدان الأفضل. وإنّ الجزائريين حساسون، ولهذا نروم أن يكون خطاب هذه المؤسسات يعمل على الإسهام في إيجاد الحلول، ولا يبقى عند النّقْد، نريد خطاباً يُواجه المشاكل، وينشغل في هموم المجتمع، ويعمل على التّفعيل الوطني السّاعي إلى البناء، ويكون مُتَحلياً بالشّجاعة الفكرية في مواجهة المشاكل الحقيقية بحلول ناجعة، والتي بواسطتها نصلُ إلى استشراف المستقبل والاستعداد له قبل أن تظهر صعوبات أخرى.

وينبغي لهذا الخطاب أن يتصدّره العلماء الحقيقيون؛ يقودون ويوجّهون في انسجام مع الأُمّة والقيادة السّياسية، والاستعداد للدّفاع عن مُواصلة البناء لمزيد من رفع التّحديات، ومسح كلّ التّشويهات التي ألصّقت بالإسلام، ولا سيّما تلك المظاهر ذات العلاقة بالتّطرّف والإرهاب التي لا مكان لها في ديننا الحنيف. نريد من هؤلاء العلماء النّزول إلى أولئك الشّباب المُتذمّر، وإنقاذهم من اليأس والجَرَاع

والاستيلاء. علماء يحملون خطاباً دينياً صحيحاً، يوضحون فيه أسباب الفشل والإحباط ومظاهر الاغتراب والانزهاض، فيقدمون الحلول، ويعيدون الثقة إلى نفوس الشباب، وإلى دفعهم إلى حب الوطن، وحب لغتهم، ويبعثون فيهم روح الحيوية وإمكانيات النهوض، وقبول المبادرات لتحقيق النجاح، فهل يمكن لعلمائنا أن يحملوا هذا الخطاب، ويعيشوا مع الشباب؟

— الخلاصة: وفي خلاصة أولية من هذا التدخل الأولي؛ يمكن الاتكاء على بعض المراكز الفقهية والتربوية للطريقة الرحمانية من منظور الوصف والتحليل الذي خلصت إليه الدراسة، وهي كما يلي:

— حدود ما يجب على المكلف معرفته من الدين، حدود واجب، استناداً إلى قول ابن عاشر:

أول واجب على من كُلفا	ممكناً من نظر أن يعرفا
الله والرسول بالصفات	مما عليه نصب الآيات
وكل تكليف بشرط العقل	مع البلوغ بدم أو حمل
أو بمنى أو بإنبات الشعر	أو بثمان عشرة حولا ظهر

— الإسلام السني التربوي الإصلاحي حضارة وتقدم؛

— الإسلام حركي يقبل التكيف والتعفف، ويدعو إلى جهاد المتمدن، والدخيل المستبد؛

— الفقه المالكي مرجعية مقدسة؛

— الأعراف والقيم من شرع الله؛

— تحصيل العلم فريضة لا يعفى منها أحد، وهو واجب على كل مسلم ومسلمة؛

— اعتماد مبدأ التعليم للجميع، وحسب المستويات الدراسية؛

— الإصلاح جزء من التربية، وكلاهما يعملان على التقويم؛

— الإصلاح خير وسيلة للنجاح؛

— عدم مشروعية الخلاف لدرجة تقرب من الخروج عن الدين؛

— مشروعية الاختلاف ضمن قاعدة (الخروج من الاختلاف خير من الوقوع فيه)؛

- تصويب الاجتهاد إذا خالف الأصل، وقرب إلى الفرع؛
 - موالاة الاستعمار كفر وخروج عن الدين؛
 - نبذ التواكل والتقادر ضمن مشروعية الحركة والجهاد؛
 - رفع الضرر، ودفع المثل، والأخذ بالأمل؛
 - محاربة البدع المكروهة والمحرمة واجبة؛
 - التشهير بالطرقية، والتبرؤ من مآلات الوخظات؛
 - نبذ الزردات والهردات، وما يأتي بينهما من السقطات؛
 - تجريم الخرافات والخزعات، وكل أشكال الجذبات.
- وهكذا أيها الحضور، فإنه يفاسمني في هذا البحث جماعة من الباحثات، وقد تم توزيع المحاور عليهن كما يلي:

- 1— حدة روبايش: التعريف بالطريقة الرحمانية: أصولها، مؤسسها، شيوخها.
- 2 — وردية گلار: توجهات الطريقة الرحمانية الصوفية.
- 3 — سامية محيوت: امتدادات الطريقة الرحمانية في الداخل وفي الخارج.
- 4— دليلة صاحبي: الطريقة الرحمانية من خلال زاوية سيدي العيدلي نموذجاً.
- 5— حسبية العربي: إنجازات الطريقة الرحمانية وآفاقها.

أرجو من الحضور إفادتنا بما يروونه من تحسينات وتوضيحات وتعديلات وربما هنات سقطنا فيها ونحن على استعداد لتصحيحها؛ ليكتمل البحث في صورته الجيدة، ونحن لكم آذان صاغية، والشكر في البداية، وفي الختام، وفي كل الأوان والسلام عليكم أيها الإخوان.

الهوامش:

♥ — أعد هذا البحث من قِبل الفريق الذي يُشرف عليه الأستاذ الدكتور صالح بلعيد. للإسهام في الملتقى الوطني حول (الدور المتميز للطريقة الرحمانية في ترسيخ القيم الإسلامية والوطنية)

- الذي أنجزه المركز الثقافي الإسلامي، بالتعاون مع مديرية الشؤون الدينية والأوقاف، بتيزي-وزو أيام 9 و 10 مارس 2015، بدار الثقافة، مولود معمري، بتيزي-وزو.
- 1 — عباس الجراري "السلفية المغربية والمسألة الإصلاحية" مجلة أكاديمية المملكة المغربية. الرباط: 2010، منشورات الأكاديمية الملكية المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، العدد 27، ص 72.
 - 2 — رئاسة الجمهورية السورية، الموسوعة العربية، ط1. دمشق: 2007، هيئة الموسوعة العربية، المجلد السادس، ص 517.
 - 3 — محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، ط1. الجزائر: 2007، دار الأمة، ص 59-60.
 - 4 — سعيد جعفر، الزاوية والحزب بالمغرب، أصول الاستبداد السياسي، ط1. المغرب: 2014 منشورات فكر، ص 29.
 - 5 — محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، ط1. الجزائر: 2007، دار الأمة، ص 72.
 - 6 — عباس الجراري، خطاب إسلامي معاصر (منطلقات وخصوصيات). الرباط: 2007 منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ص 14.
 - 7 — عبد الغني منديب "الأضرحة بالمجتمع القروي المغربي، آليات الوجود والاستمرار، ضمن وجهة نظر" مجلة دراسات. المغرب: 2009، تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بأكادير عدد 39، ص 14.
 - 8 — الحسين وگاگ "الأعراف السوسية والتنمية البشرية" مجلة أكاديمية المملكة المغربية. الرباط: 2007، منشورات الأكاديمية الملكية المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، العدد 24، ص 243-244.

التعريف بالطريقة الخلوتية الرحمانية

الباحثة: حدة روباش

وجدت الطرق الصوفية في الجزائر الجو المناسب للانتشار، والتقبل من فئات الشعب المختلفة، الذي وجد فيها الحل الأنجع للعودة إلى طريق الله فأضحت الزوايا أحد أعمدة المجتمع الأساس، التي أسهمت في الحفاظ على مقوماته، ومبادئه ومحاربة الضلال والزيف، كما كان لها دور عظيم في مقاومة الاستعمار، وقد تنوعت هذه الطرق واختلفت من منطقة إلى أخرى في مناهجها التربوية، كما تباينت مواقفها، وآراؤها، واتجاهاتها؛ لكن المبادئ كانت واحدة، ولم تنحسر في الجزائر؛ بل انتشرت في بلدان أخرى، كالطريقة اليوسفية والنيجانية والسوسية.

وتعد الطريقة الرحمانية أقوى الطرق انتشارا وتأثيرا في القطر الجزائري وأحد أهم المعالم البارزة في تاريخ الجزائر الثقافي، والاجتماعي، والسياسي والديني؛ والدليل بقاء الزاوية الرحمانية قائمة إلى يومنا هذا، فماذا نعرف عن هذه الطريقة؟ ومن أين جاءت؟ ومن هو صاحب الفضل في نشرها في الجزائر؟

أولاً- أصولها: ترجع الطريقة الرحمانية إلى الطريقة الخلوتية، والخلوتية "طريقة صوفية شهيرة، وهي فرع من فروع الطريقة السهروردية، تعد من أهم الطرق في تركيا والأناضول ... وهي طريقة قائمة على احترام الشيخ والتزام الخلوة، واشتهرت بتربية المريدين تربية صارمة، ومبناها على الذكر بالكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والاشتغال بالأسماء السبعة بالجهر والسر¹. وهذه الأسماء هي: لا إله إلا الله، هو، حق، حي قيوم، قهار.

وقد اختلف الدارسون في سبب تسميتها **الخلوتية**؛ وذلك راجع إلى أن كل مجموعة تحاول نسبتها إلى شيخها، ولفض النزاع حول ذلك؛ ارتأى بعضهم نسبتها

إلى **الخلوة**، والتي تُعدُّ ركيزة من ركائز الطريقة، كما إنها تساعد المريد على التركيز والتأمل في ملكوت الله، بعيدا عن كل الملهيات، ومعلوم أنَّ المتصوّقين الأوائل بدأ الأمر عندهم انطلاقا من هنا؛ لذلك عُرِفَ التّصوّف بأنّه "رحلة روحانية تعتمد على الخلوة والتّجلّي الربّاني، أو اللقاء العرفاني المُنوّج بالوصال والكشف الإلهي، ويعني هذا أنَّ المريد السّالك لكي يحقّق مراده؛ ألا وهو الوصول إلى الحضرة الربّانية، عليه أن يتجرّد من أوساخ الدّنيا، ويتوب إلى الله، وأن يتطهّر من كلّ أدران الجسد، ويبتعد عن ملذّات الدّنيا"². وهذا لا يتأتّى لأيّ كان، بل لفئة معيّنة، قادرة على تحمّل كلّ الصّعاب في سبيل ذلك.

انتشرت الخلوتيّة في العالم الإسلامي، ولقيت القبول من فئات المجتمع المتعطّشة إلى ما يعيد للروح صفاءها، علما أنَّ "البحث عن المجهول هو هدف أتباعها، فالشيخ الخلوتي يشترط فيه أن يكون ناسكا متقشفا وزاهدا يبحث في العزلة والحرمان عن الفناء في حضرة الله، من أجل السّمو بالروح طاهرة إلى الألق الأعلى"³؛ لأنّ الصّوفيّة -كما قلنا سابقا- تهدف أساسا إلى تطهير الروح ومجاهدة النفس الأمّارة بالسّوء للارتقاء بها إلى درجات عليا من الإيمان لتحقيق السّعادة الروحية.

تأسّست الطريقة الخلوتيّة على يد الشيخ الفارسيّ محمد الخلوتي (ت1397هـ) وانتشرت عبر آسيا، وأروبا، والهند، وشبه الجزيرة العربيّة، ثمّ دخلت إلى إفريقيا عن طريق مصر؛ لكنّها شهدت مرحلة من الضّعف في القرن السّابع عشر الميلادي، إلى أن "ظهر العالم الصّوفي الأزهري سيدي مصطفى بن كمال الدّين البكري الصّدّيق الخلوتي، المولود في دمشق سنة 1688م المتوفّى بالقاهرة سنة 1738م، وأعطاهما نفسا جديدا جعلها تدخل إفريقيا، حيث أصبحت لها الكلمة الأولى"⁴. وصار لها أتباع في كل مكان يسعون إلى نشرها أينما حلّوا وارتحلوا.

وتُعتبر الطَّريقة الرَّحمانية المنسوبة إلى الشَّيخ محمد بن عبد الرَّحمان الأزهري أحد فروع الخلوتيَّة، وهي "طريقة دينيَّة صوفيَّة... تدعو إلى احترام مبادئ الدِّين الإسلاميِّ الحنيف، وتدعو مریدیها إلى العمل على نشر الخير والفضيلة، وتدریس العلوم الشرعيَّة، وتربية الأبناء على الأخلاق الحميدة، وتقاليد الآباء والأجداد وغرس الإيمان في قلوب النَّاس، وتعليم النَّاس أمور دينهم وواجباتهم اتَّجاه الله والرَّسول، والنَّاس أجمعين، وهي طريقة تدعو إلى الصِّفاء والعودة إلى المنابع الأولى للإسلام"⁵. وهي في ذلك لم تخرج عن الطَّريقة الأصل؛ أي الخلوتيَّة.

ثانيا- ملامحها العامَّة: للطَّريقة الرَّحمانية ملامح تُعرف بها، وتشترك فيها مع الطُّرق الصوفيَّة الأخرى، هذه الملامح هي: الشَّيخ المرشد، والذِّكر، والورد والمريد، وعلى هذا الاعتبار "الرَّحمانية طريقة صوفيَّة الأصل، خلوتيَّة الفرع وقد وضعت الرَّحمانية مناهج تربيويَّة ضبطتها برسوم وقواعد، تبدأ بأخذ العهد عن الأستاذ الشَّيخ؛ لالتزام الانضباط والمتابعة، والمثابرة، وتنتهي بتلقين المقرَّر ومادته الذِّكر بأسماء الله الحسنى؛ باعتباره الركن الأوَّل لتربية النفس وتركيتها. ثمَّ يشرع المريد في التَّطبيق العلميِّ، باتِّباع قوانين أربعة، هي: الجوع، والسَّهر والصَّمت والعزلة (تقليل للطَّعام، تقليل للنَّام، تقليل للكلام، عزلتك كلياً) ويُتبعها بأصول ثلاثة عشر لمقاومة عناصر الإثم، وهي بالتَّرتيب: التَّوبة والمجاهدة، والدَّعاء والخوف، والورع، والزَّهد، والصَّبر والشُّكر، والقناعة والرِّضا، والتَّفويض والتَّسليم، والتَّوكل، والانقطاع إلى الله تعالى بالعبادة في الخلوة"⁶. وفي هذه المرحلة يُفترض أن يكون المريد قد تخلَّص من كلِّ الشَّوائب الدُّنيويَّة، وأصبح عمله خالصاً لله تعالى.

ثالثا- مؤسَّس الطَّريقة الرَّحمانية:

- **حياته:** هو الشَّيخ "محمد بن عبد الرَّحمان بن أحمد يوسف بن أبي القاسم بن إبراهيم، الَّذي يرتفع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الرَّسول

عليهم السّلام، المشهور باسم محمّد بن عبد الرّحمن القشطلوي الجرجري الزّواوي الأزهر⁷. وترجع الألقاب الأخيرة إلى أماكن تواجد فيها الشّيخ فالقشطلوي نسبة إلى قبيلة آث إسماعيل عن عرش قشطلوة، والجرجري نسبة إلى جرجرة والزّواوي نسبة إلى قبيلة زواوة والأزهر⁷ نسبة إلى جامع الأزهر حيث تلقّى العلم هناك مدّة غير قصيرة من الزّمن.

وقد اختلف الدّارسون في تحديد سنة ميلاده، على أنّ أغلبهم اتّفق أنّه من مواليد سنة 1132هـ-1720م "بقرية بوعلاوة، بعرش آث -إسماعيل، من حلف قشطلوة نشأ في أحضان التّقوى برعاية والديه الصّالحين... وكان والده من شيوخ العلم وهو الذي سلّمه لصديقه الشّيخ ابن أعراب، حفظ القرآن الكريم وزاول تعليمه الأوّل بزواوية الشّيخ الحسين بن أعراب بآث- إيراثن ببلاد القبائل.

رحل الشّيخ الأزهر⁷ إلى الحج في حوالي 1152هـ، وفي طريق عودته أعجب بالأوضاع العلميّة بالقاهرة، فعزم على البقاء ومواصلة تعليمه بالجامع الأزهر... تلقّى العلوم على أيدي علماء أجلاء منهم: الشّيخ أحمد بن محمد العدوي الشّهير بالدردير، علي بن أحمد الصّعيدي، الشّيخ علي العمروسي الشّيخ محمد بن عبد الله التلمساني المعروف بالمنور، وبعد تحصيل العلوم الفقهيّة من هؤلاء الأعلام، اتّجه للبحث عن شيخ مُربٍّ يُوجّهه نحو العلوم الصّوفيّة، فكان أن وجد ضالّته في الشّيخ محمد بن سالم الحفناوي الخلوتي.

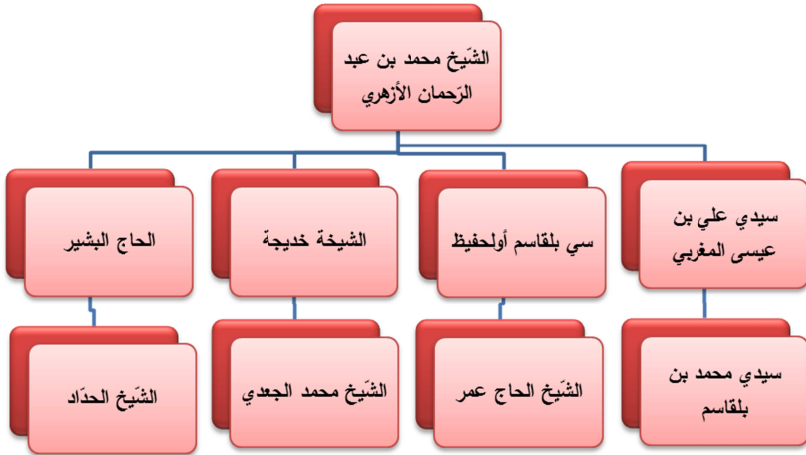
جرّد الأزهر⁷ نفسه لخدمة العلم والطّريقة، فانتقل بأمر من شيخه إلى (دارفور) لنشر الأوراد والطّريقة الخلوتيّة، وكلّفه بنشر الطّريقة والدّعوة... وبعد عودته من دارفور أمره بالعودة إلى بلاده لنشر العلم وتربية الخلق⁸. بعد أن أصبح متمرّساً في الدّعوة إلى الله.

غاب الشّيخ لأكثر من ثلاثين عاماً، لكنّه عاد أخيراً إلى الجزائر، بتوجيه من شيخه الحفناوي لنشر الطّريقة فيها، "فاستقرّ بعض الوقت في بجاية كواعظ ومرشد

في مسجد سيدي امحمد أمقران، ثمّ ذهب إلى حي الحامّة قرب مدينة الجزائر العاصمة، فأهدت له قبيلة بن عيسى قطعة أرض بنى عليها زاوية صغيرة، ولم يمض نصف عام حتّى أصبحت مركزاً كبيراً بقرية أخذ شهرة واسعة في المنطقة ممّا أثار أحقاد بعض رجال الدّين بمدينة الجزائر؛ لما أظهره الشّيخ من تفوّق ونبوغ في العلوم الشرعيّة، فعملوا على إثارة وتحريض النّاس لصرف الأنظار من حوله، فاتّهموه بالابتداع والخروج عن الدّين؛ هذا ما جعله يشعر بعدم الارتياح فقرّر مغادرة الحامّة والعودة إلى مسقط رأسه بآث إسماعيل في جبال جرجرة⁹ حيث أكمل مسيرته العلميّة، وجنّد طاقاته لتربية المريدين، ونقل تعاليم الطّريقة لأتباعه الذين قصدوه من كلّ مكان، فكان يُوجّههم كلّ حسب إمكانيّاته، ويعتني بهم وكثيرون هم الذين اشتهروا في ما بعد، وأسّسوا زوايا تابعة للزاوية الأمّ في مسقط رأس كلّ منهم، ليكملوا مسيرة الشّيخ الذي إن لم يكن له فضل غير نشر الطّريقة الرّحمانيّة فيكفيه فخراً.

توفي الشّيخ بمسقط رأسه قرية آث - إسماعيل، سنة 1208هـ - 1793م "وقصة نقل جثمانه الطّاهر لا تزال الأجيال إلى يومنا هذا تروي تفاصيلها في إجلال وإكبار وقداسة وتبجيل، وهي أنّ الأتراك خافوا تكاثر المريدين والقبائل حول ضريحه، فنقلوا جثمانه إلى العاصمة الجزائر، وأودعوه هناك ليكون الزّائر تحت سمعهم وبصرهم، فنبش رجال القبائل قبره في آث إسماعيل فوجدوه كأنّه دُفن اليوم، ومنه أطلق عليه لقب **بوقبرين** الذي اشتهر به بين العامّة"¹⁰. وبهذا وبعمله الجبار دخل الشّيخ التّاريخ من بابه الواسع، فقد استمرّ أثره في مريديه من بعده الملقّبين بالإخوان الرّحمانيين والذين استمروا في نشر الطّريقة ومحاربة البدع، في حرص شديد لتطبيق الشّريعة الإسلاميّة، واقتفاء السنّة النّبويّة، كما فعل الأزهري سابقاً.

- **آثاره:** للشيخ مؤلفات عدّة ومتنوّعة، نذكر منها:
 - شرح لامية الزّقاق.
 - الآداب؛
 - دفتر الدفاتر؛
 - رسالة خلوة السرداب؛
 - رسالة فتح الباب وختم الكتاب؛
 - زلزلة النفوس؛
 - شرح على الرّيفاوي؛
 - طيّ الأنفاس والأسماء السبعة.
- **خلفاؤه على زاوية جرجرة:** خلف الشيخ بعد وفاته على الزاوية الشيوخ الآتية أسماؤهم:



- **تلاميذه¹¹:** كما قلنا سابقا، فقد انتشرت الطّريقة الرّحمانية في كلّ ربوع الوطن، وارتفع عدد تلاميذ الشيخ، سواء الذين أخذوا عنه مباشرة، أو الذين أخذوا عن تلاميذه، وهؤلاء الشيوخ يستحقون دراسات مستفيضة عن حياتهم وإسهاماتهم العلميّة والجهاديّة، وللأسف لا يسعنا المقام هنا لإيراد ذلك؛ لذا سنكتفي بذكر

أسماءهم، ولعلنا نكمل البحث ونوسّعه مستقبلاً ليشملهم، وسنعمد تقسيم الباحث عبد المنعم قاسمي الحسني إلى طبقات هي كالآتي:

الطبقة الأولى: مصطفى بن سيدي عيسى، الصالح العيساوي الرّحْموني محمد بن أبي القاسم التّاجديوي، عبد الرّحْمَن بن أحمد باش تارزي، علي بن عيسى المغربي، أحمد بن عيّاض، حمّودة المقياسي مصطفى الطّرابلسي، البشير الونيسي السّعيد بن أبي داود، محمّد العمالي.

الطبقة الثّانية: أحمد بن محمد العمالي، الصالح بو حجر، عبد الصمد بن علي الحاج عمر، محمد بن علي الحداد، مصطفى بن عبد الرّحْمَن باش تارزي محمد بن أحمد عزوز البرجي، محمد بن الحبيب القسنطيني.

الطبقة الثّالثة: الصّادق بن الحاج الأوراسي، الشّيخ صالح السّمعوني عبد الحفيظ بن محمد الخنكي، علي بن الحملوي، محمد بن أبي القاسم البوجليلي علي بن عمر الطولكي، محمد وعلي السحنوني، محمد بن عيسى الشّاذلي المختار بن عبد الرّحْمَن الجلاي.

الطبقة الرّابعة: إبراهيم بن الصّادق الأوراسي، الأزهري بن عبد الحفيظ الخنكي، التارزي بن محمد بن عزوز البرجي، الحفناوي بن عبد الحفيظ الخنكي سالم بن محمد العايب السّوفي، السّعيد بن السّعيد السّحنوني الشّريف بن الأحرش النايلي، الصّادق بن مصطفى البسكري، محمد بن أبي القاسم الهاملي، عطية بن خليف النائي، المدني بن المبروك بن عزوز مصطفى بن محمد بن عزوز البرجي، المكي بن الصّدّيق الونكلي، الهاشمي بن علي دردور.

الطبقة الخامسة: أحمد بن عبد الملك الملياني، أحمد الأمين بن عزوز إدريس بن محفوظ الدلسي، الحسين بن علي بن عمر الطولكي، علي بن عثمان بن علي الطولكي، الحفناوي بن علي بن عمر الطولكي، محمد الصغير بن المختار الجلاي، الشّيخ أبو القاسم طعيوج، عاشور الخنكي محمد بن محمد الهاملي المختار

بن محمد الهاملي، محمد بن محمد بن عزوز البرجي، محمد بن عبد الرحمن الديسي، محمد العربي بن أبي داود عبد الحليم بن سماية، المكي بن مصطفى بن عزوز.

رابعاً- أشهر شيوخ الزاوايا الرّحمانية في الجزائر: أظهر بعض تلاميذ الشيخ الأزهري نبوغاً وذكاء ينمّان عن همّة لا تقتصر، مما حدا به إلى توجيههم لنشر الطّريقة الرّحمانية في مسقط رأس كلّ منهم، ومن هؤلاء الأجلّاء نذكر:
عبد الرّحمن باش تارزي: هو "الصّوفي الكبير والمربّي الشهير الشيخ عبد الرّحمن بن أحمد بن حمودة بن ماماش باش تارزي، الجزائري منشأ القسنطيني داراً.

تفقه على المذهب الحنفي، وألّم بالمذهب المالكي فكان على دراية واسعة بهما معاً، ويقضي بهما معاً. أخذ عن الشيخ عبد الرّحمن الأزهري علوم الشّريعة والطّريقة، وهو الذي أمره بنشر الطّريقة الخلوتية بقسنطينة، ومن مؤلّفاته:
— عمدة المريد في بيان الطّريقة.

— المنظومة الرّحمانية في الأسباب الشرّعية المتعلّقة بالطّريقة الخلوتية.
— رسالة في الدّفاع عن الطّريقة الرّحمانية.

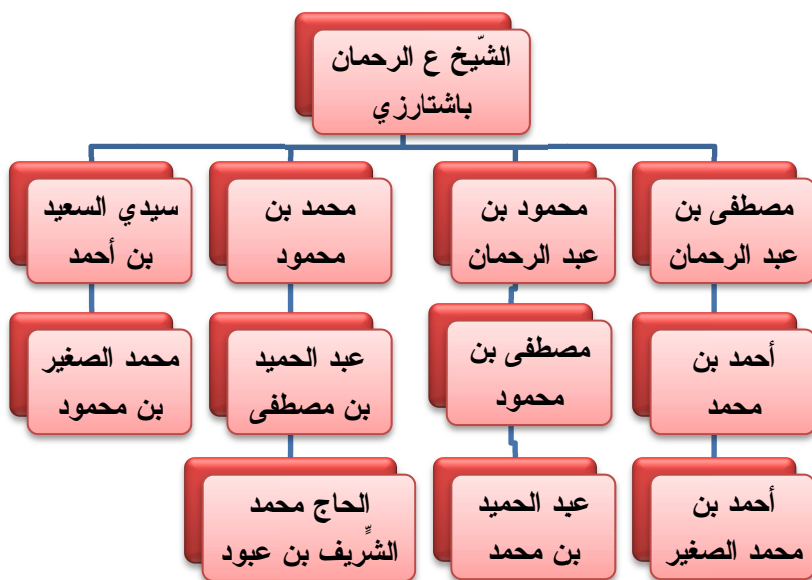
توفي قدّس الله سرّه في 3 جمادى الأولى سنة 1221هـ - 1806م.
قام الشيخ باش تارزي بنشر الطّريقة عن طريق أساليب ووسائل أربعة:
— زاويته،

— كتاباته وأشعاره، وبخاصة العامية منها؛

— أبنائه: وهم مصطفى، محمود ومحمد، وربما هي الخاصية التي ستكرّر لدى معظم الطّريقة الرّحمانية وشيوخها؛

— تلاميذه: إذ أخذ عنه محمد بن عزوز البرجي، فكان بذلك همزة وصل بين مناطق الجنوب والشرق، وبلاد القبائل، وهمزة وصل بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية.

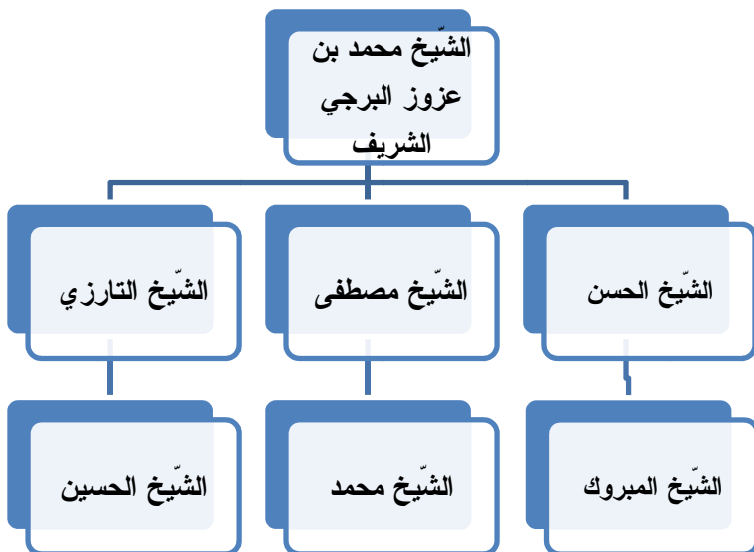
ومن أهم إنجازات الشيخ باش تارزي في هذا المجال أنه أرسى دعائم الطريقة الرحمانية، وضبط قواعدها في منظومته الشهيرة، التي تعتبر إلى الآن دستور الطريقة الرحمانية؛ إذ لا يستطيع المريد الاستغناء عنها، فقد تضمنت أركان وقواعد وشروط وآداب الطريق¹². وقد خلف الشيخ على الزاوية بعد وفاته الشيوخ الآتية أسماؤهم:



سيدي محمد بن عزوز البرجي: رسم الشيخ محمد بن أحمد بن عزوز البرجي صورة مشرقة لنفسه ولأمثاله؛ بفضل الأعمال البطولية التي قام بها حتى اشتهر بلقب نور الصحراء، وقد ساعد على ذلك انتماؤه إلى أسرة علمية دينية محافظة يرتفع نسبها إلى الحسن بن الإمام علي كرم الله وجهه.

وُلد الشَّيْخ "عام 1170هـ-1757م بقرية البرج قرب طولگة، حفظ القرآن الكريم، أخذ العلم على يد والده الولي الصَّالح أحمد بن يوسف، ثم التحق بالجزائر العاصمة لمواصلة تعليمه، وهناك اتَّصل بالشَّيْخ محمد بن عبد الرَّحْمَن الأزْهري وأخذ عنه الطَّريقة وأدخله الخلوة، ولم يطل مقام التَّلميز عند شيخه الجرجري حتى استأثر الله به، وكان قد أمره قبل وفاته بمواصلة الطَّريقة عند تلميذه الشَّيْخ عبد الرَّحْمَن باش تارزي بقسنطينة، الَّذي أمره بالعودة إلى قريته، ونشر الطَّريقة هناك ففقل راجعا إلى قرية البرج، وبني زاوية هناك لتعليم الخلق، وهدايتهم، وتصدَّر للإرشاد والتَّدریس، واشتهر أمره وقصده النَّاس من كلِّ فج عمیق، وانتشرت الطَّريقة الرَّحْمانية في تلك النِّواحي، وصارت تُسمَّى بالطَّريقة العزْوية.

كانت وفاته -رحمه الله- عام 1232هـ-1818م، ودُفِنَ بمسقط رأسه وبجانب ضريحه مسجد يحمل اسمه¹³. وقد خَلَفَه في خدمة الدِّين والعلم والبلاد والطَّريقة أبناء بررة صالحون هم:



الشَّيْخ مُحَمَّد بن أَبِي الْقاسم: مؤسس زاوية الهامل ببوسعادة، يرتفع نسبه إلى الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب، وُلد "في أول محرّم سنة 1240هـ، الموافق

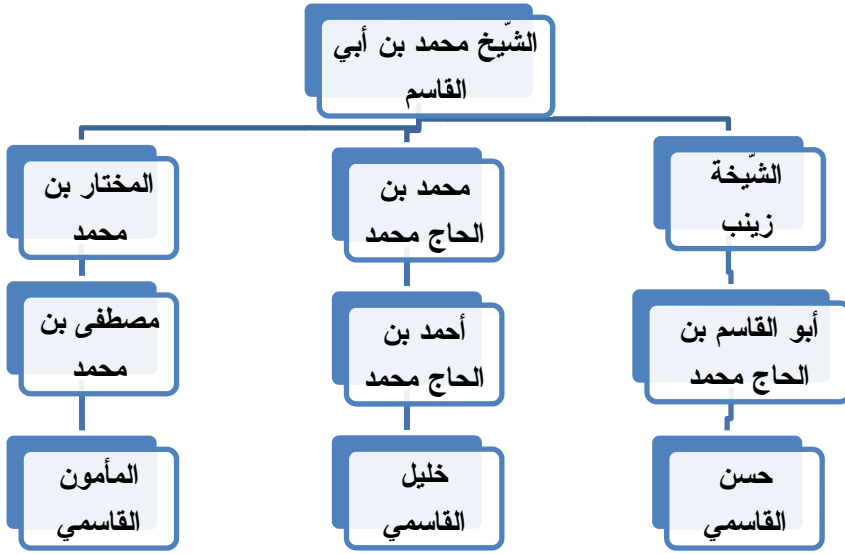
لـ 26 جويلية 1824م، ببادية الحامدية قرب بلدتي دار الشيوخ وحاسي بحبح بولاية الجلفة حاليا، نشأ في كنف والديه الكريمين عزيزا مكرّما، تعلّم في قرية الهامل على يد أحد علماء الشّرفة يسمّى "سي محمد عبد القادر" حفظ القرآن الكريم وعمره 13 سنة. وفي سنة 1844م انتقل إلى زاوية سيدي السّعيد بن أبي داود قرب أقبو حيث أخذ عن مؤسّسها علوم اللغة والتّفسير والحديث، ودرس العربيّة وفنونها، فبرز في هذه العلوم، وأجازته شيوخه فيها.

رجع عام 1848م إلى الهامل، فتولّى التّعليم في قريته مدّة 9 سنوات شرع في التّريس بمسجد الشّرفاء المعروف بالجامع فوقاني، لم يفارق الجامع لغاية شهر أوت 1855م.

أخذ محمد بن أبي القاسم عن الشّيخ المختار -شيخ زاوية أولاد جلال- أوراّد الطّريقة الرّحمانية وبعد وفاة الشّيخ رتبّ أمور الزاوية، وأسند إدارة المقام الرّوحية إلى ولده مصطفى بن الشّيخ المختار، وعاد إلى الهامل يستأنف نشاطه العلميّ والدينيّ.

توفي يوم الأربعاء أول محرم 1315هـ الموافق لـ 2 جوان 1897م، عن عمر يناهز 73 سنة ودفن بمسجده بالهامل.

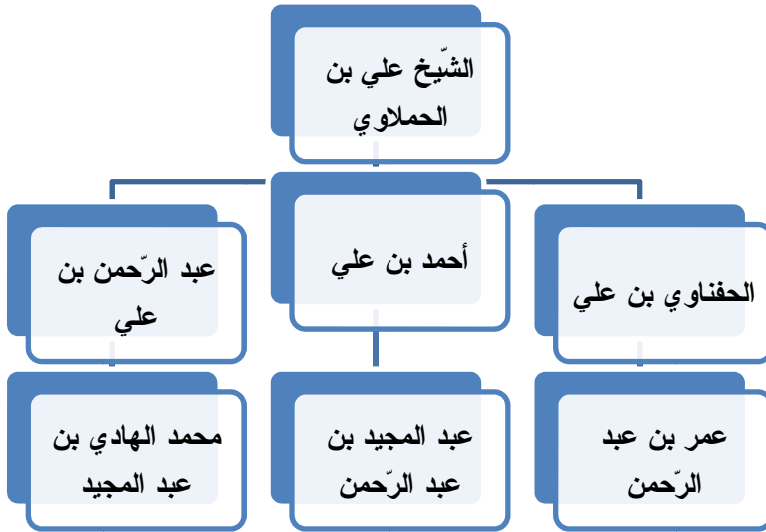
التقى الشّيخ بالأمر عبد القادر سنة 1844م، وكان يريد أن ينضمّ إليه في جهاده؛ لكنّ الأمر رأى فيه رجل علم ودعوة، لا رجل حرب وقتال فشجّع له مواصلة نشاطه العلميّ والاجتماعيّ بالتّعليم ودعوة الإصلاح، وفي مطلع شهر رمضان 1860م، عاد الشّيخ محمد إلى موطنه الهامل؛ حيث استأنف التّعليم وباشر في تأسيس زاويته خلال عام 1862¹⁴. أمّا من خلفه على مشيخة الزاوية فهم كالاتي:



علي بن الحملاوي: من الشيوخ الذين تركوا بصماتهم في كتب التاريخ وكُتبت أسماؤهم بماء الذهب، لشرفهم أعمالهم، سواء في نشر العلم أو الجهاد في سبيل الله، "الحاج علي بن الحملاوي بن خليفة، سليل الأسرة الحملاوية المجاهدة وتلميذ الشيخ محمد أمزيان بن الحداد، وخليفته على رأس الطريقة الرحمانية. أخذ العلم عن شيوخ بلده **تلاغمة**، ثم أخذ الطريقة عن الشيخ خليفة، أحد مقدّمي الشيخ علي بن عمر، ثم التحق بالزاوية الرحمانية بصدوق نواحي أقبو وتتلّمذ على الشيخ ابن الحداد، وواصل سلوكه الروحي عنده، ثم أصبح مقدّمًا له في زاوية أولاد عبد النور.

ولمّا دعا الشيخ ابن الحداد إلى الثورة، كان الشيخ الحملاوي في مقدّمة من لَبّى داعي الجهاد، وبانتهاى الثورة نُفي إلى كاليدونيا الجديدة لمدة 4 سنوات، ثم أُعيد بعدها ليُرَجَّ به في سجن تبسة لمدة ثلاث سنوات، وأخيرا أُطلق سراحه ليسارع إلى تنفيذ وصية شيخه في نشر العلم والطريقة الرحمانية. وقد امتدّ تأثيره إلى مناطق واسعة من الوطن: زمّورة، جرجرة سيدي عيسى، سطيف... ووصل إلى خارج

الوطن: تونس، طرابلس، القاهرة، جدّة... توفي الحاج الحملاوي عام 1317هـ-
1899م، ودفن بزاويته¹⁵. وهذه سلسلة مشايخ الزاوية الذين خلفوه من بعده:

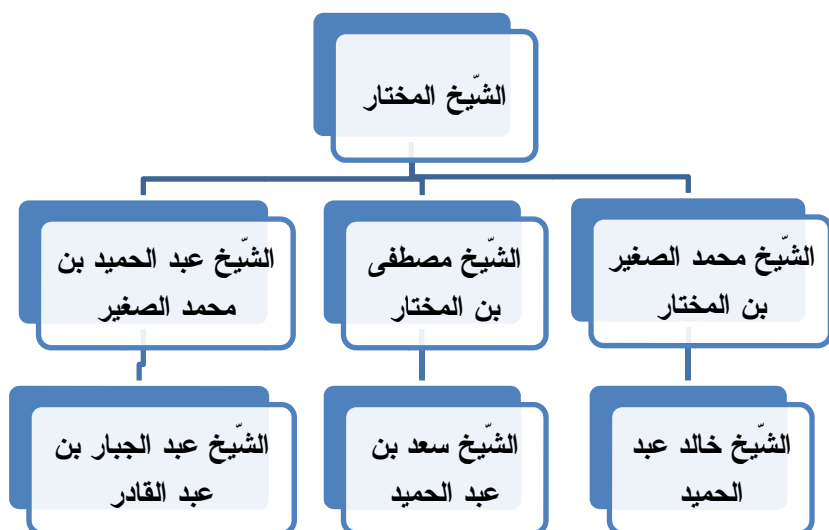


الشيخ المختار بن عبد الرحمن: من أصحاب الكرامات عند الرّحمانيين الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن يوسف، صاحب القبة المعروفة بسيدي خالد بن عبد الرحمان المدفون قرب ضريح خالد بن سنان العبسي، يرتفع هو أيضا نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، "وُلد الشيخ المختار سنة 1788م الموافق لـ 1202هـ بسيدي خالد، حفظ القرآن بمسقط رأسه ودرس الفقه في زاوية برج بن عزوز بطولقة على يد شيخه محمد بن عزوز، وقد كان بمعية الشيخ عبد الحفيظ الخنكي، والشيخ علي بن عمر وقد وصل الشيخ المختار إلى درجة كبيرة من التّصوف والتّقوى، وانخرط في الطّريقة الرّحمانية الخلوتية، وأخذ من أوراها متحلّياً بالأخلاق الحسنة، حتّى شفت روحه، ورقّت وتهذّبت، وأصبح شيخاً من شيوخ الطّريقة.

أنشأ الشيخ المختار زاوية كبيرة ذات طراز رائع، أسسها على التقوى حيث جعلها لإقامة الصلاة و ذكر الله، وأوقفها لطلاب العلم وحفظ القرآن فقصدها طلبة العلم من كل مكان: الزيَّان، الحضنة، الجلفة يتعلّمون القرآن الكريم والعلوم الشرعيّة، والسلوك الإسلاميّ الصّحيح، وقد نذر حياته للتربية والإرشاد وتعليم العباد، من أشهر تلاميذه ابنه الشيخ محمد الصّغير والشيخ محمد بن أبي القاسم الذي أسس زاوية الهامل ببوسعادة.

أمّره شيخه بفتح زاوية وكان هذا سنة 1875م؛ حيث فتحت في بداية الأمر بسيدي خالد، ثمّ انتقل الشيخ الى أولاد جلال. لم يقتصر نشاط الشيخ المختار على الجهاد العلميّ؛ بل تعدّى إلى الجهاد العسكريّ، فعند دخول الاستعمار الفرنسي للمنطقة كان من الدّاعين إلى الجهاد، وقد استشهد الكثير أمام زاويته وعند ظهور الشريف بومعزة سنة 1846م، في المنطقة ساند الشيخ، ووضع يده في يد هذا المجاهد لمحاربة الفرنسيين؛ فأخذ يُعدّ العُدّة، ويوعّي السكان مستعيناً بأتباعه، ثمّ توجه إلى الجلفة، وعاد بعد ثلاث سنوات؛ أي سنة 1849م، فساعد الشيخ بوزيان قائد ثورة الزعاطشة، وأمدّه بالرجال والمؤونة من قبائل المنطقة.

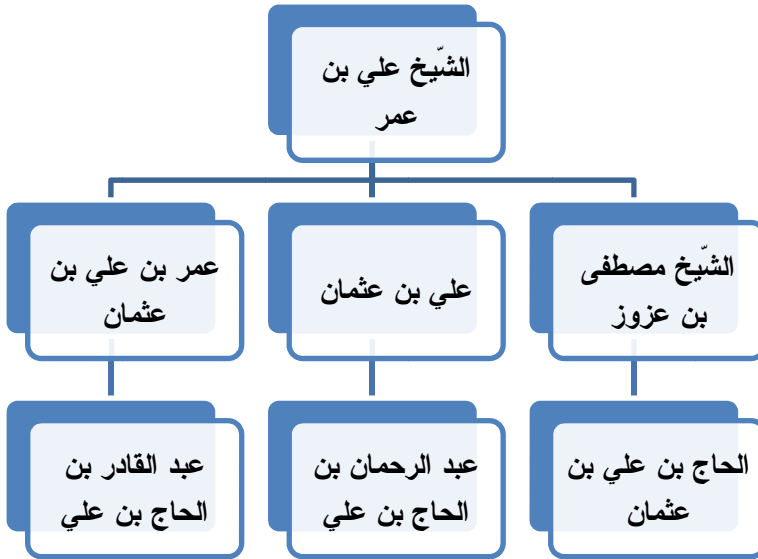
توفي الشيخ المختار صبيحة يوم الأربعاء 22 من ذي الحجة 1277هـ الموافق 11 جويلية 1860م، ودُفن داخل زاويته رحمه الله، وطيب ثراه وجعل الفردوس الأعلى مسكنه ومثواه¹⁶. وقد تعاقب على مشيخة الزاوية المختارية الشيوخ التالية أسماؤهم:



الشيخ علي بن عمر: هو الشيخ: وليّ الله علي بن عمر بن أحمد بن عمر بن الموفق. ينتهي نسبه إلى الشيخ علي بن عثمان الشّريف الحسيني ولد ببلدة طولغة حوالي سنة 1166هـ، وعاش نحو 72 سنة في عبادة الله وإرشاد النّاس إلى الدّين والخير والصّلاح. وعندما بلغ نحو 28 سنة من عمره أمره شيخه الشيخ محمد بن عزوز بتأسيس الزاوية، فأسّس زاويته التي هو مدفون فيها الآن، وذلك سنة 1194هـ الموافق لسنة 1780م. وهذه الزاوية توجد في طولغة القديمة في الطّريق الذي يمر من طولغة إلى برج بن عزوز.

نشأ الشيخ علي بن عمر ببلدة طولغة على حبّ العبادة، والقيام بشعائر الدّين وطاعة الله، وقد اتّخذ لنفسه خلوة بعيدا عن النّاس؛ لتكون عبادته لله خالية من كلّ شيء يفتنه ويشغله عن عبادة الله وطاعة رسوله ﷺ هذا المكان يقع في جبل يقرب من طولغة بنحو 15كم، وبقي يتعبّد في هذا الموضع الذي اختاره سنوات عديدة. توفي - رحمه الله - ببلدة طولغة شهيدا يوم الخميس 3 ربيع الأول، وذلك سنة 1258هـ، الموافق لسنة 1842هـ. وقد خلفه على الزاوية بعد وفاته الشيخ

مصطفى بن عزوز، ولما تأكّد أنّ ابنه صار جاهزا لتولّي مسؤولية الزاوية عينه عليها، وعاد لزاويته¹⁷. وهؤلاء هم خلفاؤه:



وفي الختام نشير إلى النقاط الآتية:

— لقد كان لمؤسس الطّريقة الرّحمانيّة عظيم الأثر في نشرها؛ وذلك لما تميّز به من علم وجلّد في نشر الدّعوة، وصبر على المكائد، وحسن معاملة وشخصية مُميّزة، ووكّل هذا يظهر جليا من خلال تتبّع سيرته؛

— يحتاج حصر تلاميذ الشّيخ، وخلفائه على الطّريقة إلى عمل جبار؛ لأنّ أتباعه كُثُر، وقد كان لهم دور هام في خدمة الطّريقة عامّة، وفي الجهاد خاصّة وهذا يتطلّب تكاثف جهود الدّارسين؛

— تميّزت الطّريقة الرّحمانية بمنهج وسط، أعطى للمرأة حقّها، ولم يحرمها من لعب دور في تاريخ الطّريقة، وأعظم الأمثلة على ذلك: للاً زينب، للاً فاطمة أنسومر، الشّيخة خديجة؛ فهؤلاء استطعن أن يتولّين المشيخة، ويكون لهن أتباع ويمارسن الجهاد، في وقت كانت المرأة الجزائريّة تعاني الجهل والحرمان؛

— كان للطريقة دور فعّال في توحيد الجزائريين، والدليل انتشارها في جميع أرجاء الوطن، رغم أنف فرنسا التي كانت تتّبع سياسة فرق تسد، وهو ما حدا بها إلى محاربة الزوايا الرّحمانية، ومتابعة شيوخها سواء لأسرهم أو نفيهم أو قتلهم؛

— يجب العودة إلى المبادئ الأساس للطريقة، وتطويرها بما يتماشى مع متطلبات العصر لإبقائها فاعلة في الوقت الرّاهن، والاستفادة منها في جميع نواحي الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة والاجتماعيّة.

الهوامش:

1. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطريقة الخلوتيّة الرّحمانيّة الأصول والامتدادات أطروحة الدكتوراه، الجزائر: جامعة الجزائر، قسم العقائد والأديان، ص 52.
2. محمّد عجيلة-الجيلالي بهّاز- مصطفى عبد النّبي "تأثير الطرق الصّوفيّة على المجتمع الصّحراوي في الجزائر" مجلّة الواحات للبحوث والدراسات، الجزائر: 2011 ع15، ص 365.
3. صالح بلعيد وبلقاسم منصوري، المعجم العربي المازيغي للشّيخ محمد أمزيان الحدّاد الجزائر: 2013، منشورات مخبر الممارسات اللّغويّة، ص 19.
4. المرجع نفسه، ص 19.
5. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطريقة الخلوتيّة الرّحمانيّة الأصول والامتدادات ص 243.
6. دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، تعريف الطريقة الرحمانية الخلوتيّة والزواوية القاسمية، 3 مارس 2015 21:39 http://darekhalil.blogspot.com/2009/03/blog-post_23.html.
7. مديحة الواعر، الزوايا الرّحمانية ودورها في المقاومة الشّعبيّة بمنطقة الزيبان خلال القرن التاسع عشر (ثورة عبد الحفيظ الخنقي نموذجا) بحث ماستر، الجزائر: جامعة محمد خيضر بسكرة، قسم العلوم الإنسانية، ص 47.
8. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطريقة الخلوتيّة الرّحمانيّة الأصول والامتدادات ص 220-223.

9. مديحة الواعر، الزّوايا الرّحمانية ودورها في المقاومة الشّعبية، ص 47-48.
10. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطّريقة الخلوتية الرّحمانية الأصول والامتدادات ص 232.
11. ينظر: المرجع نفسه.
12. المرجع نفسه، ص 260-263.
13. المرجع نفسه، ص 277-280.
14. نسيم قديدة، موقف الطّريقة الرّحمانية من الاحتلال الفرنسي، بحث ماستر الجزائر: جامعة محمد خيضر بسكرة قسم العلوم الإنسانية، ص 54-55.
15. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطّريقة الخلوتية الرّحمانية الأصول والامتدادات ص 293-294.
16. مدونة الإحسان، مشائخ الطّريقة الرّحمانية الخلوتية في الجزائر، 3 مارس http://amar62.blogspot.com/2013_04_21_archive.html، 2015:43
17. ينظر: سليمان الصيد، تاريخ الشّيخ علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الرّحمانية د ط. الجزائر: د ت، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

توجّهات الطّريقة الصّوفيّة الرّحمانيّة

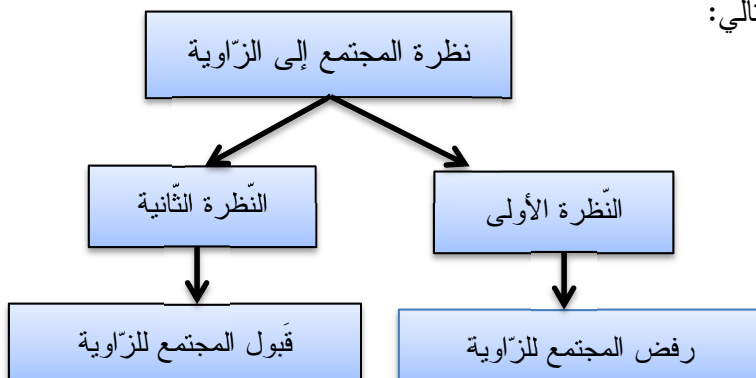
الباحثة: وردية غلاز

تمهيد: أخذت الزاوية في شمال إفريقيا معنى البناء الدّينيّ، الشّبيه بالمؤسّسة التّعليميّة، وتكون في الغالب على شكل قبة، كما تحتوي على مكان للصلاة وضريح لوليّ، وغرف لتحفيظ القرآن واستقبال الزائرين، أمّا من المنظور الصّوفي فتحيل إلى الخلوة للعبادة. وتُعتبر الطّريقة الرّحمانيّة في الجزائر من بين المنظّمات الدّينية الأولى والرّئيسية، التي تطبّق وتدرّس العلوم الإسلاميّة السّنّيّة؛ فهي متواجدة داخل الذاكرة الاجتماعيّة من خلال وضعها الرّوحيّ، ووزنها المادّي، المرتبط بوظائفها الفكرية ومهامها التّربويّة التّكوينيّة، وغالبا ما ترتبط بالمدرسة، وهي التي حفظت لهذه الأمة المسلمة قرآنها، ولغتها، ودينها، وأخلاقها الإسلاميّة، إلى جانب دعوتها للجهاد، وتجنيّد أتباعها له؛ إذ ما من ثورة أو انتفاضة أو مقاومة أو جهاد، إلّا وقد اقترنت باسم شيخ زاوية ما، فكان شيوخ الزوايا ومريدوها أسرع من غيرهم مبادرة لجهاد العدو، وبهذا ساهمت الطّريقة الرّحمانيّة في تأطير المجتمع الجزائري وتسيير شأنها العام أيّام الاستعمار، وفي الحفاظ على هويّة الشّعب، التي حاول المستعمر طمسها حين اكتشف بأن وجود الزاوية كان مركزا أساسا لأيّ المقاومة ولاسيما النّقاوية منها، فالدّور الأكبر الذي لعبته هو أنّها كانت مقاومة نفسيّة دائمة ابتكرتها الطّريقة الرّحمانيّة خلال القرن التاسع عشر، وفي ما يلي سنبيّن مجموعة من الأسباب التي أدّت إلى تأسيس هذه الطّريقة وزواياها في الجزائر:

- انتشار التّصوف السّنيّ؛
- تعدّد طرائق وأساليب التّربيّة الصّوفيّة؛
- تدعيم المساجد في البعض من وظائفها؛
- نشر التّعليم لدى الشّرائح الدّنيا من المجتمع.

وانطلاقاً من هذا أصبحت الطريقة الرَّحمانية قبلة للنَّاس؛ لطرح مشاكلهم وانشغالاتهم¹؛ فتعددت وظائفها تبعاً لتعدد توجهاتها، ففيم يا ترى تتمثَّل هذه التَّوجَّهات؟

ظَلَّت زَوَايا الطَّرق الصَّوْفِيَّة ظاهرة اجتماعية جديرة بالاهتمام، من حيث ثبوتها عبر الزَّمان والمكان، وكانت من المواضيع اللَّافِتة للانتباه منذ ظهورها وظلَّ النَّقاش حولها بين القَبول والرَّفض²، ونستطيع أن نبيِّن ذلك من خلال المخطَّط التالي:



- الزَّوايا أوكار للبدع والخرافات؛
- مراكز للإشعاع الرُّوحيِّ والعلميِّ.
- بُور للمفاسد، ومنابع للبدع السيِّئة؛
- منابع للهداية والفضيلة والأخلاق.
- تشدُّ الفرد إلى الوراء.
- لها الفضل في استمرار الأفكار الصَّوْفِيَّة.

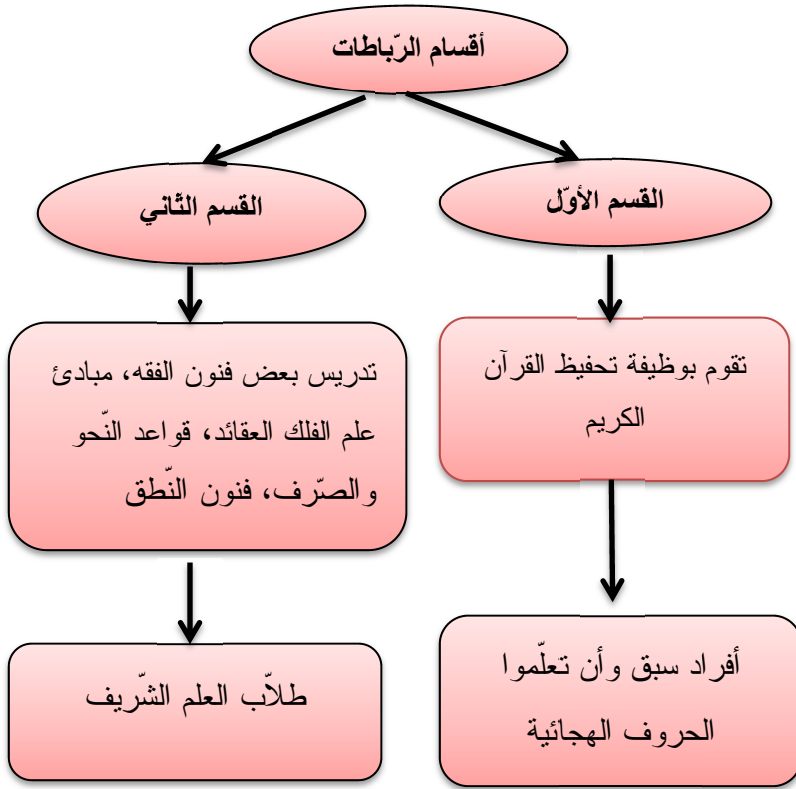
— الحفاظ على الإسلام والقرآن.

إنَّ المتنبَّع لتاريخ الزَّوايا في الجزائر، يلاحظ أنَّ هناك مؤسَّسات ثقافيَّة تسمَّى الكتاتيب، مهَّدت لتأسيس زوايا الطَّرق الصَّوْفِيَّة، خلال القرن التَّاسع عشر، ولعبت دوراً مهمّاً في التَّعليم والتَّثقيف؛ فاحتلَّت الصِّدّارة بين مراكز النِّقَافَة المختلفة وسنشرح مفهوم كلٍّ من الكتاتيب، والزَّوايا، والربَّاطات.

1- الكتاتيب: اشتهرت الكتاتيب في الجزائر منذ القدم، علما أنها "ظهرت بين القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي، وكانت عبارة عن مدارس للأطفال لإلقاء الدروس، وانتشرت في المناطق الحضرية وبين أهل البادية والجبال النائية يُستظهر فيها كتاب الله، وأوّل محل يتلقّى فيه الطّفل الحروف الهجائيّة، بواسطة اللّوح المصلصل والقلم والقصب، وطريقة التّعليم في الألواح الخشبية، ويقصدها جميع الأطفال بلا تمييز بين ابن القاضي ولا ابن الحرفي"³. وهذا ما رفع مستوى التّعليم آنذاك.

2- الزّاوية: تلعب الزّاوية تقریباً نفس دور الكتاب، فهي تقوم "بوظائف متعددة من تعليم وتربيّة، وإرشاد وإطعام، وإصلاح، وكانت مخازن للكتب ممّا كثر عددها، وبخاصّة في العهد العثماني، في منطقة القبائل أكثر من جهات البلاد كثافة إذ بلغ عددها في ذلك الوقت حوالي خمسين زاوية."⁴ وهذا دليل على أنّ الشعب كان متعطّشاً للعلم، وأنّ الحركة العلميّة كانت نشيطة.

3- الرّباطات: احتلّت الصّدارة بين مراكز الثّقافة؛ من ناحية تنقيف المعوزين والفقراء، كما كانت مراكز للزّوّار، والغرباء، ومن أمثلتها: رابطة سيدي محمد الشّريف، ورابطة الشّيخ عبد الرّحمان الثّعالبي، وكانت حجرة الضّريح سيدي عبد الرّحمان الثّعالبي تحوي عدة قبور، دُفنت فيها شخصيات مثل: الحاج أحمد باي بقسنطينة، وقبر خيضر باشا⁵... كما إنّ رابطة الشّيخ مقسّمة إلى قسمين اثنين نبيّنهما في ما يلي:



إنّ استمرار زوايا الطّريقة الرّحمانية إلى يومنا هذا، في أداء جملة من الوظائف لدليل على الدّور الذي تلعبه في الحياة، سواء تعلّق الأمر بوظيفة التّعليم، أو التّربية، أو نقل الخبرة، أو تعويض السلوك السّلبّي بالإيجابيّ، من خلال السّيّطرة الباطنيّة، وقد أثّر هذا التّغيير على المستوى الفرديّ والجماعيّ نلحظ هذا من خلال الرّموز الصّوفيّة، من حضرات وممارسات طقوسيّة، وشعائر دينيّة، وهذا أيضا دليل على إسهاماتها الكبيرة في الحياة الدينيّة، والثّقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة في الجزائر. وفي هذا يقول أبو القاسم سعد الله: "فالزّوايا التّعليميّة مفيدة، يجب النّظر إليها على أنّها مشروع اجتماعيّ اشترك فيه كلّ السّكان وافتخروا به، وساهموا في تمويله والسّهر عليه، ثم وزّعوا الأدوار، فهناك دور للجماعة، ودور لأهل القرية ودور للمرابط، ودور للمعلّم، ودور للأسرة وهكذا...إنّه مشروع حضاريّ باتّ

معنى الكلمة، وقد شهد الباحثون الأجانب على أنّ سكان كلّ قرية كانوا يتنافسون على أن تكون زاويتهم أجمل الزوايا وأنظفها... ولذلك أنشأوا لتلك الزوايا نظاما تعليميًا دقيقًا، تعجز عنه بعض الوزارات في البلدان الأخرى».⁶ يظهر من خلال قول أبي القاسم سعد الله أنّ للزوايا أدوارا كثيرة ومتعدّدة، تسهم في بناء المجتمع وتخضع لنظام محكم يشترك فيه الجميع، وهي وظائف اضطلعت بها لتسهم في الحفاظ على بنية وتلاحم المجتمع، ولسدّ الفراغ السّياسي للدولة، وهذا ما دعاه لتسميته بالمشروع الحضاري المنافس لتشكل نظام تعليمي دقيق، والذي ظهر حتى على مستوى الشّكل الخارجي لهذه الزوايا⁷، ونحن نعلم أنّ ما جاءت به الطّريقة الرّحمانيّة لا تحويه بعض الطّرق الصّوفيّة الأخرى.

وفي الجدول التّالي؛ سنوضّح مميّزات الطّريقة الصّوفيّة الرّحمانيّة مقابل الطّرق الأخرى:

الطّريقة الصّوفيّة الرّحمانيّة	بعض الطّرق الصّوفيّة الأخرى
— الاهتمام بتحفيظ القرآن ونشره ممّا ساعد على حفظه؛	— انتشار الخرافات، والبدع، والشّعوذة في البعض منها؛
— احتضان اللّغة والثّقافة العربيّة الإسلاميّة ونشرها؛	— ضيق الأفق الفكريّ في البعض من هذه الزّوايا؛
— محاربة الجهل والأُميّة، ونشر العلم والمعرفة؛	— عجز البعض منها عن فهم التّطورات والحركات الإصلاحية التي ظهرت في بعض بلاد الشّرق الإسلاميّة؛
— حمل لواء نشر الاسلام في الأقاليم البعيدة كإفريقيا مثلاً؛	— استغلال شيوخ بعض الزّوايا لضعاف العقول، والتفنّن في أساليب المكر والاحتتيال؛
— إزالة الفوارق الاجتماعيّة بين مختلف فئات المجتمع؛	— انتشار كتابة التّمام، وادّعاء الغيب
— المشاركة الفعّالة في مقاومة الاستعمار؛	

— تشكيل جدار واقٍ لمقاومة التّصوير في الجزائر، والعمل بذلك على حماية الشخصية العربيّة الإسلاميّة.	واستخدام الجنّ في البعض منها.
---	-------------------------------

ونستنتج من خلال الجدول أنّ الطّريقة الصّوفيّة الرّحمانيّة اشتملت على عدّة توجّهات: صوفيّة دينيّة، وجهاديّة، وإصلاحيّة، نقف عند كلّ واحد منها:

أولاً- التّوجه الدّيني الصّوفي للطّريقة الرّحمانيّة: قبل الولوج في الحديث عن هذا التّوجه الدّيني الصّوفي، علينا أولاً أن نعرف أصل كلمة التّصوف، ومعناها عند الطّريقة الرّحمانيّة. وسيقودنا البحث إلى نتيجة مفادها أنّ الباحثين قد اختلفوا في أصل هذه الكلمة، "وفي مصدرها على آراء كثيرة ومتعدّدة، فمنهم من قال إنّ التّصوف إسلامي، نشأ عن الزّهد والمبادئ الإسلاميّة، ثم اختلط بمبادئ ومذاهب أجنبيّة، وهناك من قال إنّ أصل التّصوف أجنبيّ: فهو إمّا صينيّ، أو فارسيّ، أو هنديّ، أو يهوديّ، أو نصرانيّ أو جاهليّ، وهناك أيضاً من يصرّح بإسلامية المصدر للتّصوف، وليس بالحقيقة التي آل واستقرّ عليها، وبأنّه الزّهد؛ ولكنه بمرور الزّمن تأثّر بأفكار أجنبيّة"⁸. أمّا في مفهوم التّصوف فنجد تعريفات عديدة ومتنوّعة، فيرى الشّيخ أحمد زروق رحمه الله -مثلاً- أنّ "التّصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عمّا سواه، ويرى أبو الحسن الشاذلي رحمه الله أنّ التّصوف تدريب النفوس على العبوديّة، وردّها لأحكام الرّبوبيّة. أمّا القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري فيعرّفه بقوله: التّصوف علم يُعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفيّة الأخلاق، وتعمير الظّاهر، والباطن لنيل السّعادة الأبديّة."⁹ وفي ما يلي سنورد ما قيل عن التّصوف.

• أقوال في اشتقاق كلمة التّصوف: منهم من قال:

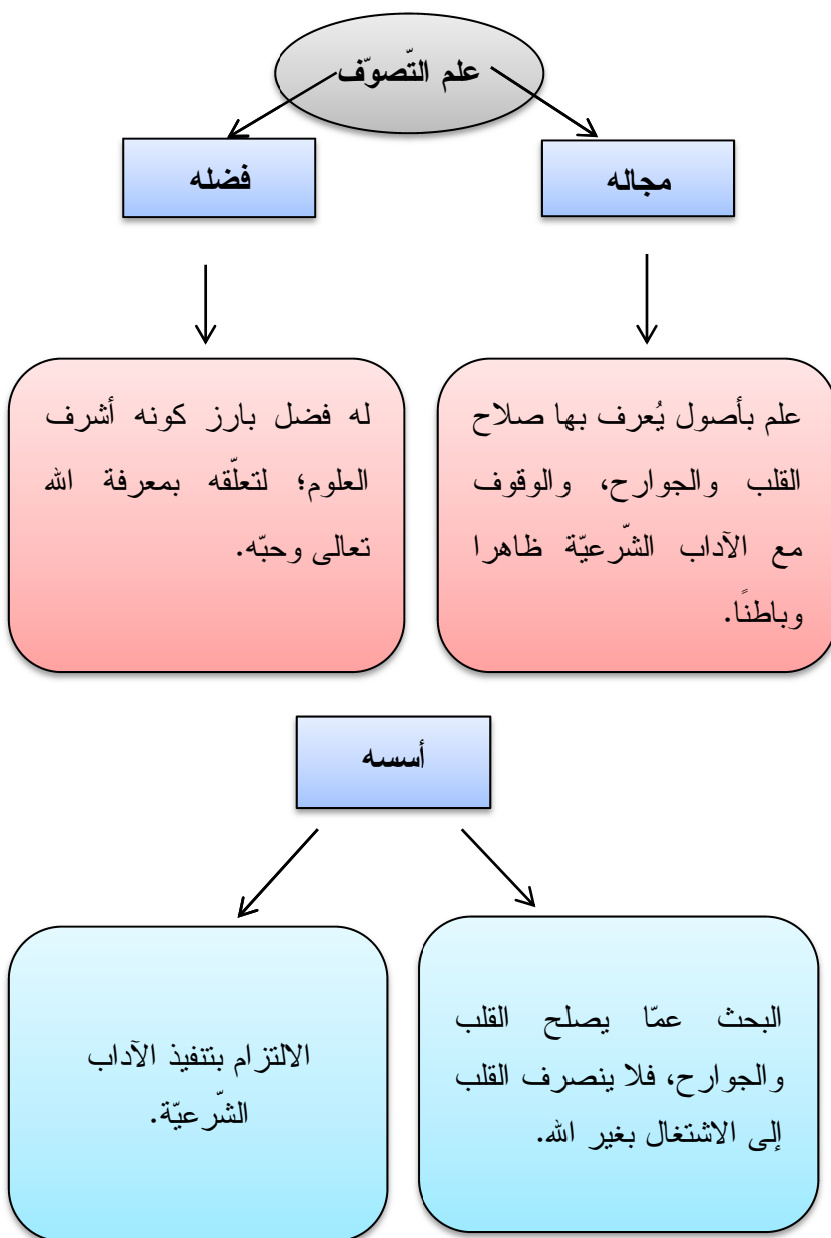
1. إنّهُ من الصّوّفة: لأنّ الصّوّفي مع الله تعالى كالصّوّفة المطروحة لاستسلامه لله تعالى.

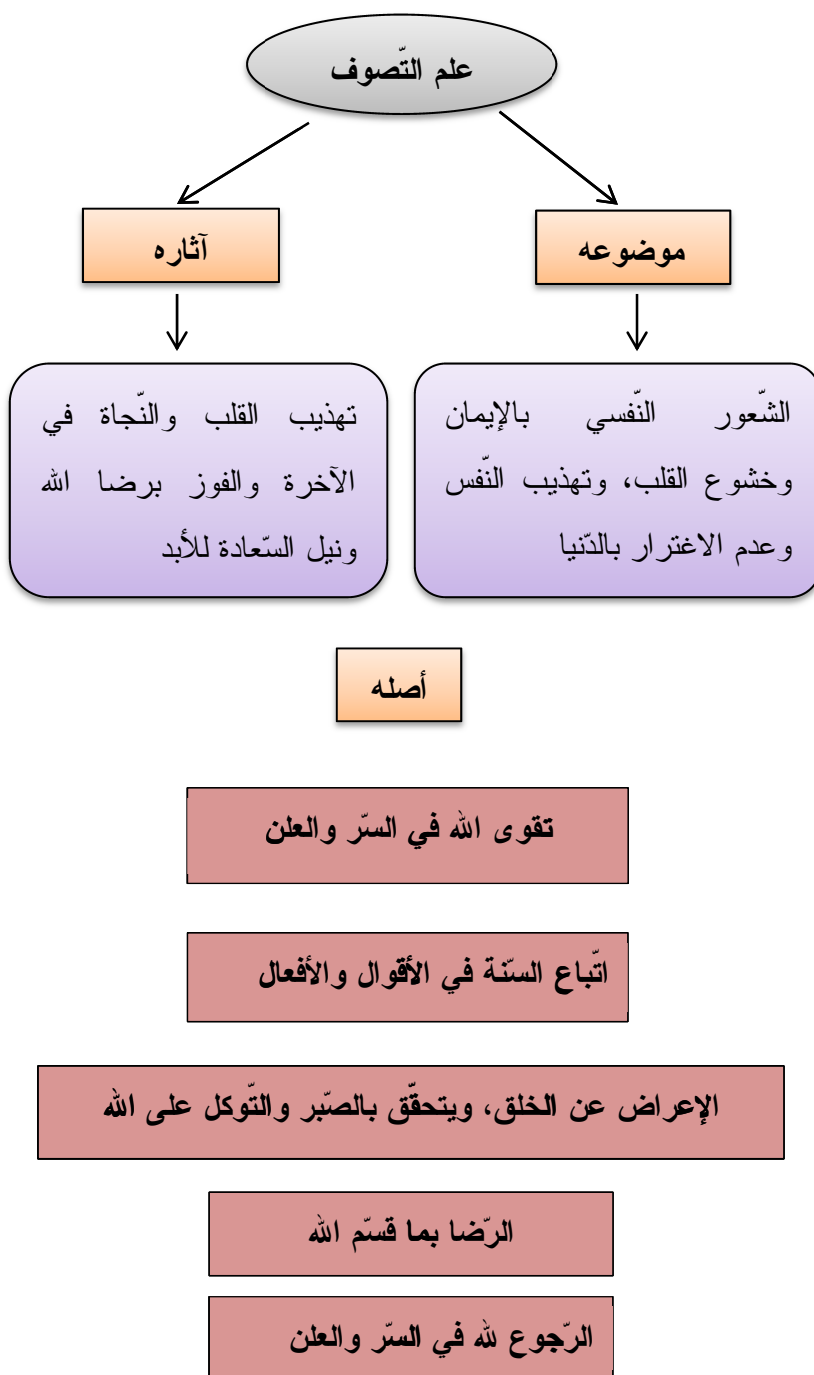
2. إنه من الصّفة: إذ إنّ التّصوف هو اتّصاف بمحاسن الأخلاق والصفّات وترك المذموم منها.

3. إنه مشتقّ من الصّفاء.

4. التّصوف رعاية حسن الآداب مع الله في الأعمال الباطنية والظّاهرية بالوقوف عند حدوده مقدّمًا والاهتمام بأفعال القلوب، مراقبا خفاياها، حريصا بذلك على النّجاة.¹⁰ ونخلص ممّا سبق إلى أن التّصوف هو عزوف النّفس عن الدّنيا بالعكوف على عبادة الله تعالى والانقطاع إليه، والإعراض عن زينة الحياة الدّنيا بكل ما فيها من مسرّات، والانفراد بالخلوة في عبادة الله تعالى.

وعند نحاول البحث في المفهوم التاريخي للتّصوف، والعودة إلى الأصول التي استعملت فيها هذه الكلمة، نجد إشارة إلى ما قام به الرّسول ﷺ حين "بنى زاوية خارج مسجد الصّفاء بالمدينة ذات حيطان ثلاثة، فكان بعض فقراء المسلمين وبخاصّة من أولئك المهاجرين الذين لم تؤمّن لهم بيوت في المدينة يأوون إليها أثناء الحرّ والبرد"¹¹ فكانت هذه المبادرة منه عليه الصّلاة أوّل خطوة لظهور التّصوف، فلفظ التّصوف لم يظهر إلّا في القرن الثّاني، أمّا علم التّصوف فقد ظهر في القرن الثّالث على يد "الجنيد" وإذا تأملنا التّصوف في المغرب العربي عامّة وفي الجزائر خاصّة، لوجدنا أنّه ممثّل بطرق عديدة، ولكلّ طريقة زاوية¹² وفي ما يلي سنمثّل لكل ما يتعلق بالاتجاه الصّوفي أو بعلم التّصوف للطريقة الرّحمانية.





مكانة التّصوّف في حياة الفرد والمجتمع: إنّ مكانة التّوجه الصّوّفي للطّريقة الرّحمانيّة على حياة الفرد والجماعة يقرّها القرآن الكريم، انطلاقاً من بُعد المحبة بين الله والعبد؛ حيث احتوى القرآن الكريم على الصّور الجنيّة للحياة الرّوحية في الإسلام؛ وأمّاطت آياته اللّثام عن رابطة خاصّة متميّزة، تجمع العبد بربّه، هي الحبّ والمحبة، ومن بين أربع وثمانين مرّة وردت فيها كلمة الحب ومدلولاتها في آي القرآن، جاءت هذه الآيات معبّرة عن حب الله لعباده وحبّهم إياه.¹³ منها مثلاً:

السّورة	رقم الآية	الآية
آل عمران	134	"وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"
آل عمران	146	"وَاللّهُ يُحِبُّ الصّابِرِينَ"
التّوبة	108	"وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ"
آل عمران	159	"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"

ومن هنا فإنّ المحبة هي ملمح التّواصل الّتي من خلالها تتجسّد ملامح السّلام والوئام، والصدّق والصفاء، والطّيبة، والصّبر، وهذا ما دلّت عليه الآيات القرآنيّة العديدة، وكانت مناهج الطّريقة الرّحمانية في توجيهها الصّوّفي؛ هو تطبيق العلم للشرع قولاً، وعملاً، وأخلاقاً، وذلك بإصلاح ظاهر السّالك وباطنه بصحبة الشّيخ الوارث المرّبّي، الّذي لا يكتفي بتعليم مريده؛ إنّما يأخذ بيده لتطبيق أحكام الشرع عملياً، يثني عليه إذا أحسن، يُنبّهه إذا ذلّ، يتفقّده إذا غاب، ويذكره إذا نسي يزكّي قلبه إذا قسا، كما كان للطّريقة الرّحمانية دور هام في نشر التّعليم والدّروس الصّوتية بين النّاس، وقد عملت على نشر الثّقافة الإسلاميّة، والحفاظ على مبادئ القرآن، وبالتالي الحفاظ على مقومات الشّخصية العربيّة الإسلاميّة طيلة عقود من الزّمن.

وقد حازت الطّريقة الرّحمانية درجة رفيعة لدى مختلف طبقات المجتمع الجزائري بأسره؛ لأنّها شاركت في الحياة اليوميّة للمجتمع، وقامت بأدوار ومهام عديدة منها: الإرشاد، والتّوجيه، والتّعليم، والفصل بين النّاس في المنازعات

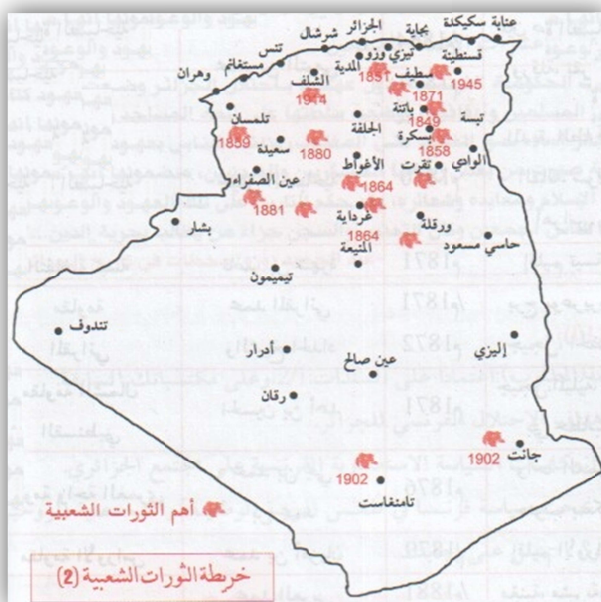
وإصلاح ذات البين، والإيواء، والإطعام، ممّا أكسبها مكانة ودرجة رفيعة في أوساط الجماهير، ولعبت "دور القاضي والمشرّع، والمعلّم والمصلح، وكانت بمثابة صوت الشعب، وضميره الحيّ الذي يختزل الأبعاد والمسافات، فاستطاعت أن تملأ ذلك الفراغ الثقافي والروحي، وحتىّ السّياسي الذي كان يعيشه الرّيف الجزائري نتيجة انعزال الحكام، وارتباط الفقهاء بالمدن، فكانت بمثابة وسيلة تأطير قادرة على جمع السّكان، وحفظ مصالحهم، وتوجيههم لمقاومة الحكّام والتّصدي للأجنبي باعتبار ذلك جهاداً مقدّساً وواجباً دينيّاً"¹⁴، أي إنّ أسباب نجاح التّوجه الصّوفي في الجزائر للزاوية الرّحمانية هو التّمسك بالدين الإسلاميّ، ومشاركتها للشّعب في آماله وطموحاته، همومه وتطلّعاته، وفي عموميات وتفصيل حياته العادية في العادات والتّقاليد، وفي الأفراح والمآسي، المناسبات الكبيرة منها والصّغيرة فتكوّنت بينها وبين الشّعب رابطة قويّة لا انفصام لها، كما كانت طريقة توعوية قبل أن تكون وعظية.

ثانياً- التّوجه الجهاديّ للطّريقة الصّوفيّة الرّحمانية: كان للانتفاضات والثّورات الشّعبية الّتي قامت بها الطّريقة الرّحمانية، خلال القرن التّاسع عشر أسسٌ دينية وهي الجهاد ضدّ النّصارى المعادين للإسلام، وقد أدّت الزاوية الرّحمانية دوراً جهادياً كبيراً ورائعاً في معظم تلك الانتفاضات، ممّا أثر على مسارها واستمرارها في كثير من الأحيان.

وهذه أهمّ مناطق الثّورات الشّعبية، ومراكز المقاومة التّحريرية في الخريطة(1) و(2):



خريطة 1



خريطة 2

لعبت الطريقة الصوفية إلى جانب نشر العلم دورا جهاديا بارزا، ففي بداية العهد العثماني، كانت عبارة عن رباطات أو نُقْط أُمَامِيَّة ضدَّ الأعداء، فكان المرابطون يقودون أتباعهم في الحروب، وينصرون المجاهدين، ويطعمونهم في زواياهم، وذلك بالتحالف مع الأمراء المكافحين من أجل الدين وحماية البلاد، وفي العهد الاستعماري تعرّضت حوالي 349 زاوية إلى الهدم والاستيلاء، والتي أخرجت رجالا ونساء عُرِفوا بالتصدي للاستعمار الفرنسي، أمثال: لآ فاطمة أنسومر، والشيخ الحدّاد، والمقراني وبوعمامة... وغيرهم من رجال ونساء الصّلاح والإصلاح، وفي هذا الإطار يقول جان كلود فاتن: "إن الزوايا في الجزائر كانت تشكل أقطابا للمقاومة، وخلايا للرّفص، ومواطن للانتماء المسلّحة"¹⁵. وهذا دليل على الاستجابة الواسعة للزوايا التابعة للطريقة الرّحمانية لدعوة الجهاد وبفضل زعمائها المجاهدين استمرّت الثّورة ضدّ المستعمر، ومن هذه الثّورات نجد: ثورة الحاج عمر، ثورة لآ فاطمة أنسومر، ثورة الشيخ الصادق بن الحاج الأوراسي ثورة الشيخ ابن جار الله، ثورة الهاشمي بن علي دردور، ثورة شريف بوبغلة، ثورة الشيخ بوعمامة، ثورة الأمير عبد القادر، الحاج محمد المقراني الشيخ بوزيان الحاج أحمد باي...إلخ.

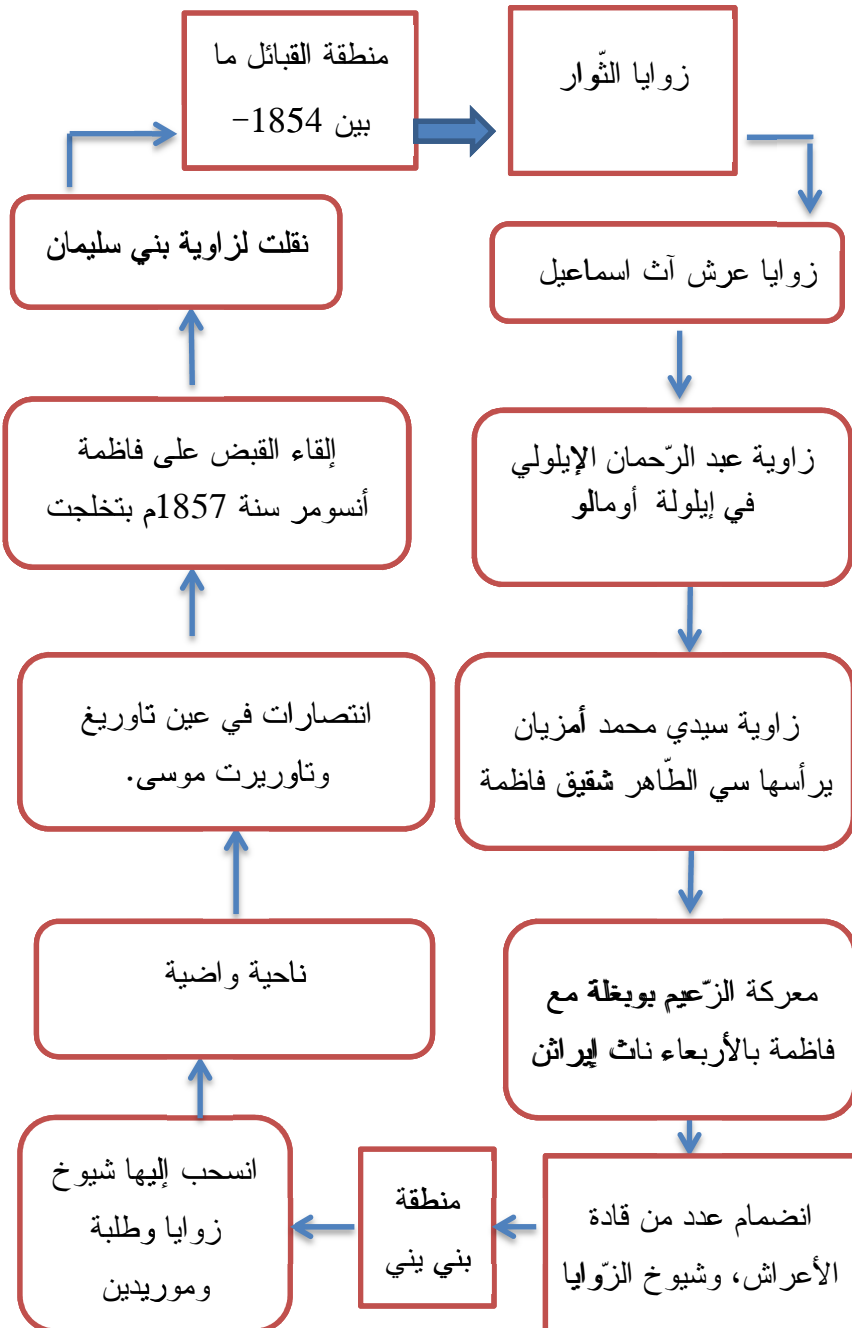
1- ثورة لآ فاضمة أنسومر وشريف بوبغلة: تعتبر لآ فاضمة أنسومر ابنة

الطريقة الرّحمانية في مقاومة الاحتلال، وهي من أشهر الزّوايا في منطقة القبائل وبالضبط بـجبال جرجرة؛ "كان لها سلطة كبيرة في المنطقة وتعددت زواياها الموجودة آنذاك في عرش آث اسماعيل ثم زاوية عبد الرّحمان الإيلولي في إولة أومالو وزاوية سيدي محمد أمزيان وأدت هذه الأخيرة دورا كبيرا في المقاومة الشّعبية، فبالنسبة لزاوية سيدي محمد أمزيان



التي كان شيخها سي الطاهر شقيق لآ فاضمة، وأحد زعماء المقاومة في جبال جرجرة ما بين 1847-1854م، فقد شاركت في المقاومة طوال الفترة الممتدة من 1854-1857م¹⁶ وترعّمت المقاومة بهذه المنطقة عام 1854م، بعد أن وصلت القوات الفرنسية بقيادة راندون إلى جبل سبت ناث يحي عين الحمام في جوان. كما كان لها اتصالات بالزّعيم بوبغلة، وشاركا معا في معارك طاحنة، حيث جرح في إحدى هذه المعارك فاستطاعت أن تتفد حياته، باعتبارها شريكة له في الدّفاع وصدّ هجومات المستعمر على منطقة الأربعاء ناث إيراثن، فقطعت على العدوّ طريق المواصلات؛ ولذا انضم عدد من قادة الأعراش وشيوخ الزّوايا والقرى إليها وأشهر معركة قادتها فاضمة أنسومر هي التي خاضتها إلى جانب شريف بوبغلة (محمد بن عبد الله) في مواجهة الجيوش الفرنسيّة الزّاحفة بقيادة الجنرالين (راندون)

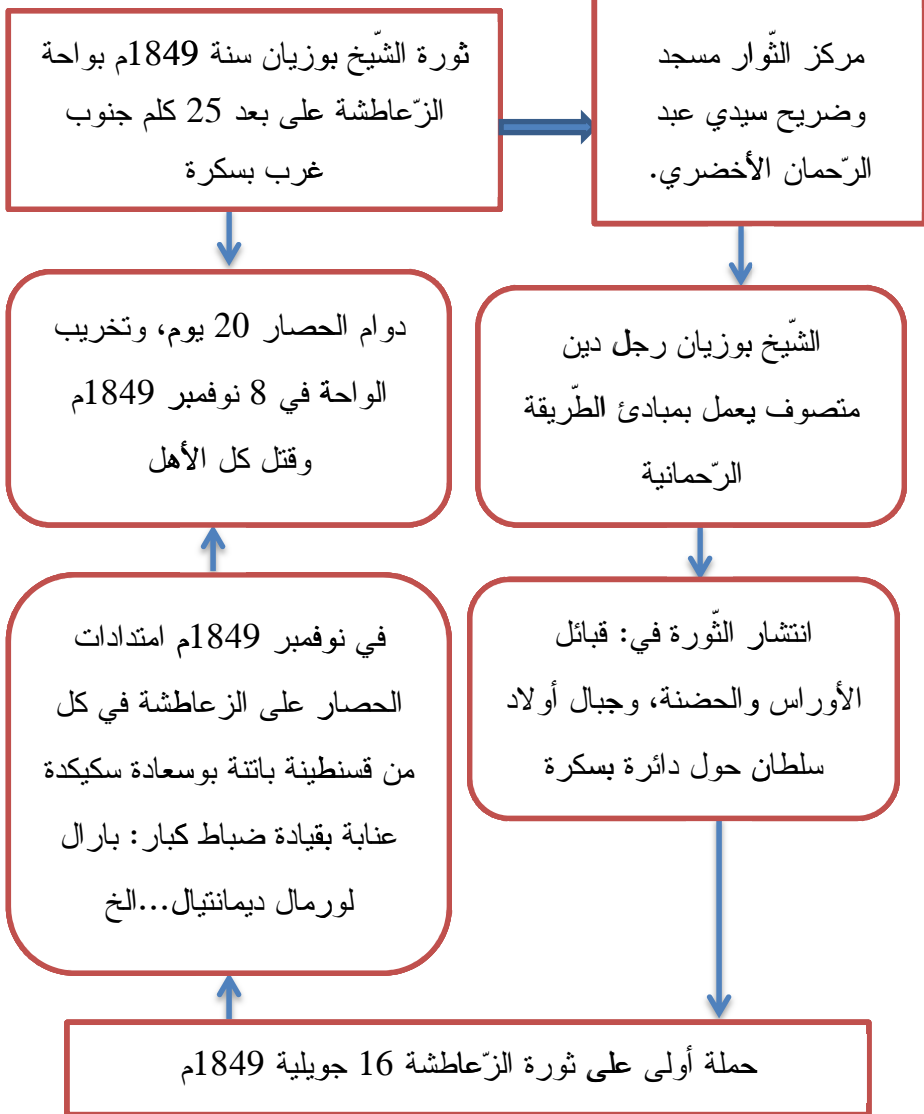
و(مالك ماهون) فكانت المواجهة الأولى بربوة تمزقيدة؛ حيث أبدى استماتة في مقاومة المستعمر؛ وحققت انتصارات أخرى بنواحي: يللتن، والأربعاء وعين تاوريغ، وتاوريرت موسى، إلى أن ألقى عليها القبض يوم 12 جويلية 1857م بتخلجت، واعتقلت بأمر من الجنرال روندون، الذي عمل على محاصرة ملجأ لـ فاطمة أنسومر، وتم أسرها مع عدد من النساء، وخوفا من تجديد الثورة بجبال جرجرة، أبعثت لـ فاطمة أنسومر مع ثلاثين شخصا من الرجال والنساء إلى زاوية بني سليمان بتبلاط، وبقيت هناك لمدة سبع سنوات، إلى أن وافتها المنية عن عمر يناهز 33 سنة، على إثر مرض عضال تسبب في شللها عام 1863م¹⁷. ويمكن أن نوجز أحداث الثورة في الشكل التالي:



كان لهذه البطلّة دور هام في المقاومة الوطنيّة ضدّ المستعمر، فأظهرت للمستعمر ما كان لها من شجاعة نادرا ما تكون في المعارك، ولقّنت جنود فرنسا دروسا لا تنسى في الدّفاع عن الوطن والدين والشرف.

2- ثورة الشّيخ بوزيان: تُعتبر ثورة الشّيخ بوزيان من البطولات التي خلّدت اسمها في التاريخ عام 1849م، بواحة الزّعاطشة، الواقعة في الجنوب الشرقي للجزائر، على بعد حوالي 25 كلم جنوب غرب مدينة بسكرة، والشّيخ بوزيان رجل دين متصوّف وحامل لمبادئ الطريقة الرّحمانيّة، سبق له أن عمل تحت سلطة خليفة الأمير عبد القادر كشيخ على سكان الزّعاطشة. نشط الشّيخ بوزيان في التّحضير، وقام باستدعاء رؤساء القبائل والأعراش، فجاءته الوفود من كل جهة لتدارس الأوضاع، وتهيئة الشّروط المواتية للثّورة، ولما أُنْفَع الجميع أصبح يحظى ببقّتهم، ووحدهم تحت راية الدّين العتيق والجهاد المقدّس.¹⁸ في هذه الفترة كانت أوضاع فرنسا مضطربة بسبب ثورة 1848م، التي أطاحت بالملك (لويس فليب) فانتشرت الثّورة في مختلف القبائل، في الأوراس والحصنة وجبال أولاد سلطان حيث استجابت كثير من القبائل لنداء الجهاد في سبيل الله، واشتعلت نيران الثّورة في كل مكان حول دائرة بسكرة. فما كان على فرنسا إلّا أن أرسلت قواتها إلى الزّعاطشة يوم 16 جويلية 1849م، تحت قيادة العقيد كريبسيّا، فشدّد الحصار على الواحات لإخماد الثّورة في مهدها، والتّخلص من زعيمها بوزيان؛ لكنّ قوات العدوّ فوجئت بصلابة المقاومة وصمودها، وكانت تلك الحملة الأولى على ثورة الزّعاطشة، وقد مهّدت لحملات أخرى مثل التي قادها سان جرمان وهيربيون وغيرهما، أمام خصوم أشدّاء عازمين على الدّفاع والمقاومة إلى أقصى حد. وفي شهر نوفمبر 1849م تمّ تشديد الحصار على الزّعاطشة وتدميرها، وقد وصلت الإمدادات إلى قوات الاحتلال من قسنطينة، وباتنة، وبوسعادة، وسكيكدة، وعناية فجّد الجنرال هيربيون الهجوم بقوة هائلة تحت قيادة ضبّاط كبار أمثال: بارال كانروبار، لورمال، وديمانتال، وكان الحصار الذي ضُرب على الزّعاطشة منذ

أوائل شهر أكتوبر قد استمرّ إلى 8 نوفمبر 1948 تاريخ الهجوم الجديد، وكانت النتيجة قتل جميع من في الواحة، وقطع ما بها من أشجار، وتخریب جميع المنازل، ودام الحصار 20 يوما حتى قُتل كل من بها.¹⁹ وللتوضيح أكثر نتابع أحداث هذه الثورة في ما يلي:



3- ثورة محمد المقراني والشيخ الحداد: يعدُّ المقراني واحداً من أبناء الجزائر

المخلصين والخالدين وأحد قُواد ثورة
1871م، وهي أخطر الثورات ضدَّ
الاحتلال بعد مقاومة الأمير عبد
القادر، وقبل ثورة أول نوفمبر
1954م، "إذ بدأت ثورته لما قدَّم
استقالته من منصبه في 27 فيفري
1871م، شرع للإعداد للثورة التي
بدأت مع مطلع جانفي 1871م، ففي
الخامس من هذا الشهر بالذات زار



علي الشريف باشا آغا آقبو ورئيس زاوية شلاطة، وفي الثامن منه أدى زيارة
أيضا إلى زعيم الطريقة الرحمانية في صدوق، وهو الشيخ (محمد أمزيان بن
الحداد)²⁰. كما أرسل مبعوثين ورسائل إلى العديد من رؤساء الأهالي في مختلف
جهات المنطقة، في مساء 15 مارس 1871م عقد المقراني مجلسا حربيا موسَّعا
تقرَّر فيه إعلان الجهاد في صباح اليوم التالي بزحفه على مدينة برج بوعريريج
واتَّسع نطاق ثورته لما نجح في إقناع الشيخ الحداد بمبدأ الثورة، وهو مكسب هائل
عوَّضه على كل ما فقده في الآخرين من تأييد وفي 08 أفريل، احتشد بقرية
صدوق عدد كبير من أتباع الزاوية الرحمانية، وخرج الشيخ الحداد من خلوته التي
كان يتعبد فيها هو والشيخ محمد أمزيان بن علي بن الحداد. كما يُذكر أنَّ زاوية
الشيخ الحداد بصدوق كانت تتفق على أكثر من خمسمائة طالب وتلميذ يتعلمون
القرآن والحديث وعلوم اللُّغة والآداب العربيَّة²¹ ولما خرج من خلوته صلَّى بالنَّاس
ودعا للمجاهدين بالنَّصر، وأمر أتباعه باقتحام ميدان الجهاد المقدَّس في سبيل الله
وتحرير الوطن؛ ولأنَّه كان ذا نفوذ معنوي قوي في أوساط السَّكان في كل منطقة
القبائل وخارجها، فقد كان لندائه صدى عظيم؛ إذ ارتمى النَّاس جماعيا في الثورة

وامتدّت بسرعة لتشمل قرابة نصف البلاد: زكّار ومليانة، شرشال وتوگرت، وبانتنة وبسكرة وعين صالح جنوباً، وفرض الثّوار الحصار على المعمرين وجيش الاحتلال في معظم مدن الشّمال، مثل: سطيف، وبجاية، والبويرة والأخضرية وتيزي-وزو، وعين الحمّام، وبرج منايل، وذراع الميزان، وجيجل، والقل وزمّورة أين توجد زاوية سيدي أحمد بن الطاهر كمركز للثّوار وغيرها. ممّا أحدث الرّعب في أواسط الفرنسيين، وقد تمكّن، المقراني وأتباعه من إحراز عدّة انتصارات بعد أن خاضوا معارك كبيرة ضدّ قوات العدوّ، واستمرّ يحارب المستعمر إلى أن استشهد في ماي 1871م.²² ونلخص في ما يلي لأهم أحداث هذه الثّورة:



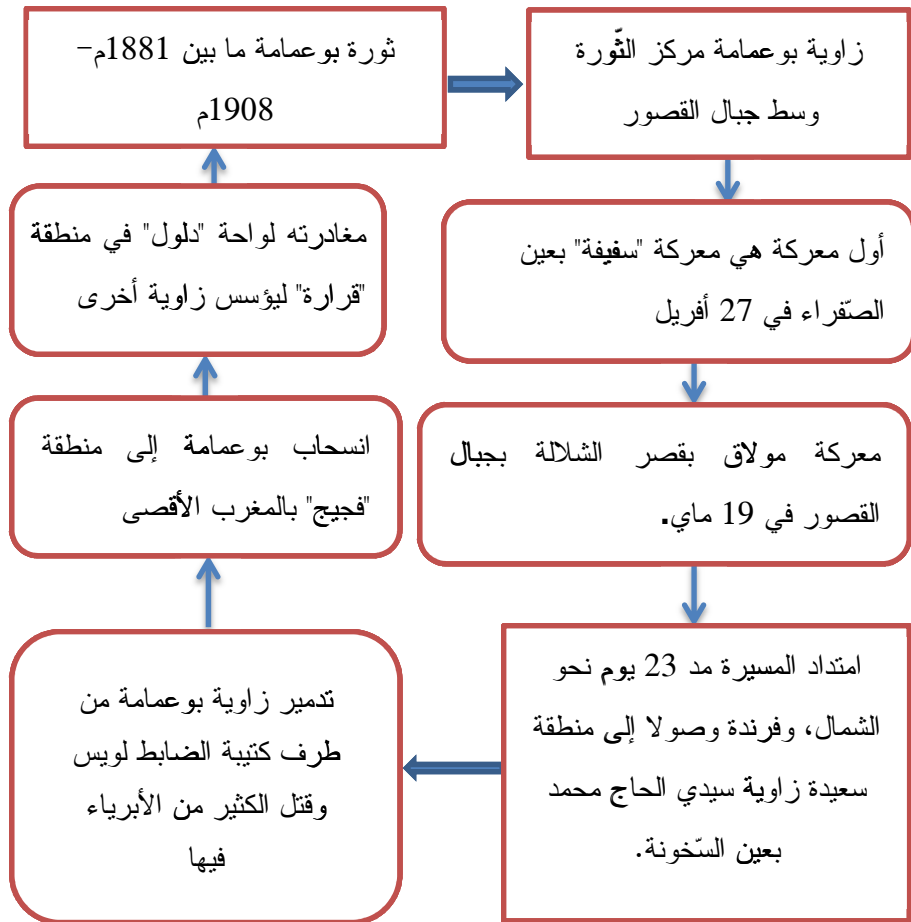
4- ثورة الشيخ بوعمامة: هو الشيخ محمد بن العربي المدعو (بوعمامة)

المولود سنة 1840م بقصر الحمام الفوقاني من واحات فيجيج على الحدود المغربية الجزائرية وفي حوالي عام 1875م غادر بوعمامة رفقة والده منطقة فيجيج ليستقر بمغرار التحتاني وسط جبال القصور، وهناك أنشأ زاوية على غرار زاوية أجداده، اتبع حياة الزهد والتسك. كان يقضي



معظم أوقاته في التَّعبَد، وتعليم القرآن، ودراسة المسائل الفقهيَّة التي كانت تُطرح عليه؛ وهو ينتمي للطريقة القادرية؛ لكنَّه متأثر وعامل بمبادئ الطريقة الرَّحمانية ممَّا جعله يحظى باحترام وتقدير السَّكان، فاشتهر اسمه بين القبائل، وكثُر أتباعه وأصبح النَّاس يتوافدون على زاويته.²³ اغتتم الشيخ بوعمامة هذه الفرصة، فأعلن الجهاد ضدَّ العدوِّ في أفريل 1881م؛ إذ بعث إلى جميع قبائل الصحراء يدعوها إلى الانضمام إلى حركته، ووجدت هذه الدعوة صداها لدى قبائل عمور وحميان والشَّعابنة وغيرها، وكانت أول معركة خاضها المجاهدون ضدَّ جيش الاحتلال هي معركة (سفيفة) جنوب عين الصفراء يوم 27 أفريل مع معركة (مولاق) الشهيرة يوم 19 ماي قرب قصر الشَّلالة بجبال القصور. تحدَّى الشيخ بوعمامة الجيش الفرنسيَّ مدَّة طويلة بمسيرة 23 يوما، التي امتدَّت من 30 ماي إلى 21 جوان وكانت المسيرة نحو الشَّمال مرورا بالبيض وفرندة، وصولا إلى منطقة سعيدة مارًا بزاوية سيدي الحاج محمد بعين السخونة، ليعود ثانية إلى الجنوب الغربي وقد وُصِفَت عملية اقتحام بوعمامة لصفوف الجيش الفرنسي بـ (العملية الجريئة)²⁴ ولمَّا قامت كتيبة الضابط (لويس) بتدمير زاوية بوعمامة، قتل فيها

الكثير من الأبرياء، وبفعل هذا الضَّغَط الفرنسي انسحب الى منطقة (فيجيج) داخل المغرب الأقصى؛ بينما استمرَّت فرنسا بملاحقته، وقد ردَّ عليها بهجوم شرس يوم 16 أفريل 1882م في وسط (تيغري) ضدَّ البعثة الطوبوغرافية، ومع نهاية سنة 1883م غادر الشيخ بوعمامة إلى واحة "لدلول" في منطقة گورارة واستقرَّ هناك إلى غاية 1894م؛ إذ أسسَ زاوية أخرى وشرع في تنظيم دروس دينية، كما استمرَّ في القتال بشجاعة أبهرت الأعداء وجعلتهم يعترفون له بذلك إلى أن وافته المنية في 7 أكتوبر 1908م.²⁵ وفي الشَّكل التَّالي نوضِّح ملخَّصاً لمسيرة ثورة بوعمامة:



إنّ جميع هذه الثّورات الجهاديّة ضدّ المستعمر، من ثورة للأفاظمة أنسومر وبوبغلة، والشّيخ بوزيان ومحمد المقراني، والشّيخ الحدّاد، وثورة بوعمامة كلّها احتضنتها الزّاوية الرّحمانية، فكانت هذه الأخيرة مراكز للثّوار، وكلّ من كان بها من شيوخ ومريدين وطلبة إلا وجنّدوا أنفسهم للثّورة والجهاد، فلعبت بذلك الطّريقة الصّوفيّة الرّحمانية دوراً جهادياً، وكان لها الفضل في اندلاع الثّورات الشّعبية جميعها.

رابعاً- التّوجه الإصلاحية للطّريقة الصّوفيّة الرّحمانية: تُعتبر الزّوايا من أبرز المؤسسات الدّينية المنتشرة عبر ربوع الوطن، وتتخذ كمأوى لطلبة القرآن، وبقية الزّوّار الذين يقصدونها للاستفتاء، والصلح. والحديث عن هذه المؤسّسة الدّينية يوجب الحديث عن التّغيير الاجتماعي في الاسلام؛ لذا كان لازماً أن يكون الوقوف عند أهمّ التّوجهات الإصلاحية التي تعتمد عليها الطّريقة الصّوفيّة (الزّاوية) الرّحمانية في عملية التّغيير، والتي بدورها تشكّل الرّكن الأساس في إصلاح الفرد والمجتمع.

• الإصلاح الفردي والاجتماعي: تسهم الزّوايا بشكل أو بآخر في التّغيير الفردي والاجتماعي، ولا يخفى على أحد مالها من أثر كبير في توجيه الإنسان وتهئية طاقته، لمواجهة مختلف تغييرات الحياة نحو الكمال الخلقي "فلقد جاء الدّين لإصلاح حال النّاس وتقويم أفكارهم وسلوكهم، وتطوير مستوى حياتهم وحنّهم على الالتزام بالقيم الحميدة، والابتعاد عن المحرّمات والخبائث والشرور، التي تضرّ النّاس، وتخرّب البلاد، وتسبب إلى المجتمع، وتفسد العقول والضمائر"²⁶. كما تسهم الزّوايا في تغيير النّسق العقائدي الإيماني، وفي تكوين شخصية المسلم وتشكيلها لما للإيمان من أثر على النّمو الإنساني في جميع جوانبه.

تحدّد العقيدة لكلّ أمة الطّريق الذي تنبثق عنه حضارتها، ونظامها الاجتماعي وعمق الشّعور بتقوى الله تعالى، وهي أساس الأخلاق الفاضلة والعواطف النّبيلة من هنا نجد أنّ الزّاوية تؤمّن لصاحبها الهداية وتعيّن له مواطن الخير والأمل

وتبعده عن اليأس، وتكسيه الوسطية كي لا يكون متطرفاً أو متشدداً، وتؤمن له الاطمئنان والسعادة، وتزكّي نفسه، وتحقّق حرّيته وتسمو بأخلاقه. أمّا على مستوى الإصلاح الاجتماعي فتقوم الزوايا بـ:

1. نشر العلم وتعليم الأفراد والجماعة التعلّيم الدّينية.
2. امداد الأفراد بالاطر السلوكي والمعياريّ القائم على التّعاليم الإسلاميّة.
3. تنمية الوازع الدّينيّ.
4. دعم روح الأخوة والتّعارف بين الأفراد، ممّا يؤدي إلى توحيد السلوك الاجتماعيّ.

5. تنمية روح التّكافل الاجتماعيّ من خلال الأعمال الخيرية.²⁷ وسننتقل للإصلاح التربويّ التّعليميّ.

• **الإصلاح التربويّ التّعليمي:** إنّ النّظام التّعليميّ التربويّ داخل مؤسّسة الزّاوية له منهج معيّن، فهو يمرّ بعدّة مراحل، وهو نفسه السائد في كل الزوايا ففي المرحلة الأولى تتمّ دراسة العلوم الأوليّة، وذلك بحفظ النّصوص القرآنيّة وهي مدوّنة على اللوح، فإذا تمّ الحفظ والإتقان لها أجازّه شيخه؛ لأنّه صار حافظاً للقرآن الكريم، ثم يتحوّل الطّالب إلى دراسة العلوم والمصنّفات على يد العلماء وفي الطّور الثّاني يتحوّل الطّالب للعلوم الفقهيّة على يد شيخه، إلى أن يُصرّح له بالانتقال إلى المرحلة الثّالثة تمثّلها المصنّفات الفخمة.

إنّ التّعليم داخل مؤسّسة الزّاوية لا يعتمد على سن معيّنة؛ إنّما يُعتمد فيه على درجة التّحصيل، فالطّالب لا ينتقل من مرحلة إلى أخرى إلّا إذا استوعب المصنّف وتمكّن من إدراك معانيه. كما تقوم الزّاوية بتقديم دروس خاصّة للشيوخ الطاعنين في السنّ كالتركيز على فرائض الصّلاة، نواقض الوضوء، وتحفيظهم القرآن مشافهة للذين لا يعرفون الكتابة.²⁸ إنّ البرنامج التّعليميّ التّدريسيّ الذي يسهر شيخ الزّاوية على تقديمه للطلبة في مواضيع محصورة بين مسائل اللسان والقلب، تمكّنه من تعلّم المسائل النّحويّة حتّى لا يقع في الخطأ، ولتحسين الكلام والنّطق واكتساب

فصاحة اللسان، أما مسائل الفقه فهي من أجل التمييز بين ما هو حلال وما هو حرام، والتمكّن من حل بعض المسائل الدينية التي يختلف فيها الناس كالميراث. أما تعلّم الطالب في البداية طريقة الحفظ والكتابة فما هي إلا مرحلة انتقالية لتزويده باليقين لتنمية ملكة الحفظ لديه، كما تعينه كذلك على الفهم وتنمية قدرات الذكاء والذاكرة، وفي نفس الوقت تعلّم الخط أثناء كتابته لآيات القرآن الكريم على اللوح. إنّ الطريقة التعليمية في الزاوية الرّحمانية تتّميّ القدرات الحسيّة والعقليّة والذوقية عند الطالب وتعلّمه الصبر، فعند انتقاله من مرحلة لأخرى يستغرق فترة زمنية قد تطول وقد تقصر، لهذا يجد المتمدرس نفسه مضطراً إلى التركيز والانتباه والصبر؛ حتى يتمكن من الانتقال والحصول على الإجازة.

• **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:** توصّلت جمعية العلماء المسلمين سنة 1913م إلى تشخيص حالتين اثنتين، كانتا كبلاء مُنصّب على المجتمع الجزائري وهما: الاستعمار المادّي والاستعمار الروحاني، وهذا الأخير كان أخطر من الأول كونه ممثلاً بمشايخ الطّرقية المنحرفة، المؤثّرين في الشعب والمتغلغلين في جميع أوساطه، والمتاجرين باسم الدّين، والمتعاونين مع الاستعمار.²⁹ تأثّر علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كابن باديس والبشير الإبراهيمي بالطريقة الصّوفية الرّحمانية، يظهر ذلك في محاربة الجمعية للطّرق الصّوفية الأخرى، التي مسّت كيان الأمة الجزائرية بصفة مباشرة، وهو كموجّه أساس في برنامجها الإصلاحية، وقد استندت في ذلك على العقائد السليمة كقاعدة أساس وجاء نداؤها لمحاربة البدع والخرافات والأباطيل والضلالات، ومحاربة الطّرق وضلالاتهم وهذا ما تحمله في الأصل الرابع عشر من أصولها، حيث أنكرت كل ممارسات الطّرقية المحدثّة باسم الدّين الإسلامي وعملت على محاربتها.³⁰ ويشير الأصل الخامس عشر إلى المحدثات التي أحدثت في المقابر عامة، وعند قبور بعض العباد الصّالحين؛ لتري أنّ كلّ ما جاءت به الطّرق من مستحدثات إنّما هو بدعة في الإسلام؛ لذلك رأت أنّ محاربتهم بأنارهم تلك؛ هو الحل الوحيد الذي

يمكن أن تخرج به الأمة من أزمتها، ولا يمكن أن يتحقق أيّ إصلاح في الأمة إلا بالقضاء على خرافات هؤلاء المضلين.

وقد تزامن ظهور دعوة جمعية العلماء المسلمين في محاربة الطّرقين مع بداية ظهور حركة الإصلاح الديني في الجزائر، ممّا زاد من حدة الصّراع بين الإصلاحيين والطّرقين، وفي سنة 1931م اضطر العلماء أن يجمعوا جميع علماء الجزائر (المتقّفين) بمختلف انتماءاتهم، ومن بينهم ممثلي الزّوايا الطّرقية ويفسر "هذا الاجتماع أنه كان كأمل في أن يقلع المرابطون عن نزعتهم النّقافية المحافظة والانفتاح الأكبر على التيارات الإسلاميّة الحديثة، ومراجعة بعض معتقداتهم في ضوء السّنة الصّافية".³¹ ومع ظهور جمعية علماء السّنة الجزائريين في 15 سبتمبر 1932م بسعي من رئيسها الشّيخ مولود الحافظي، وجمعت بدورها رؤساء الزّوايا، والموظفين الدّينيين المسلمين في الإدارة الحكوميّة وكانت أهدافها تتفق وأهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما اتّفقوا على ما جاءت به الطّرقية من أسس في مجال الإصلاح، وتغيير نظرتها للزوايا وتشجيع تأسيسها على أسس الطّريقة الصّوفيّة الرّحمانية فتضمّنت بنودها ما يلي:

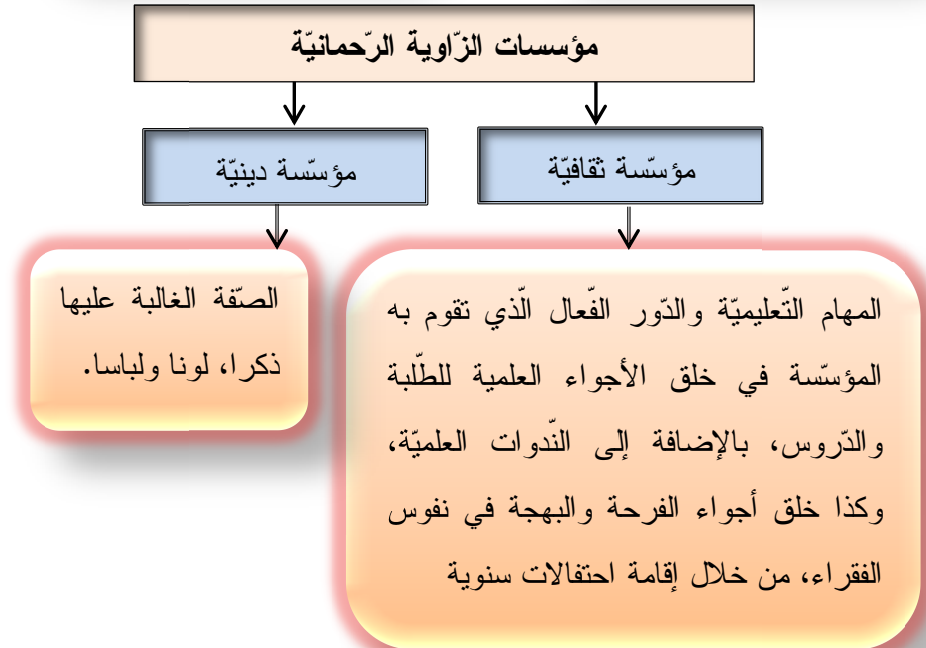
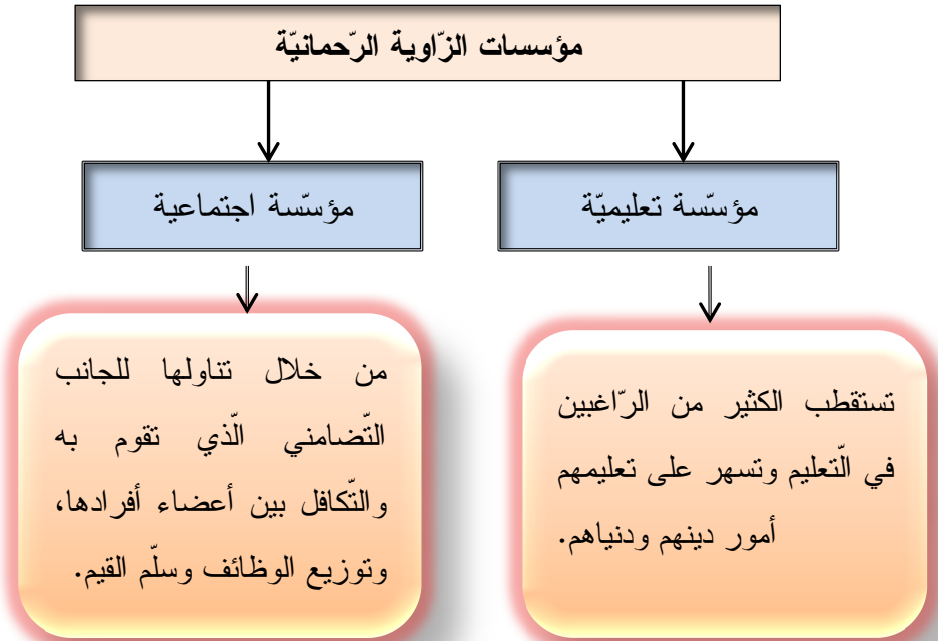
— أنها مؤسّسة إسلامية تربويّة خيريّة؛

— السّعي إلى إحياء السّنة الدّينية فيها، ونشر الفضائل، والكمال الأخلاقي وفق الكتاب والسّنة؛

— التّصوف مصدر من مصادر نشر الأخلاق والدّين؛

— القرآن والسّنة مصدران أساسيان في حركة الإصلاح.³²

نخلص إلى القول بأننا نستطيع اعتبار الزّاوية مؤسّسة متعدّدة المهام والاختصاصات؛ كما يوضّح ذلك الشّكل التّالي:



صور تعبر عن التعليم في زوايا الطريقة الرحمانية





الهوامش:

1. ينظر: مصطفى محمود، الزوايا الرّحمانية في الجزائر ar.wikipedia.org/wiki/ ar.wikipedia.org/wiki/ :يوم: 2015/02/22 على الساعة: 12.00.
2. المرجع نفسه.
3. أشرف صالح محمد سيد "المراكز الثقافية في دار السلطان (الجزائر) أواخر العصر التّركي". مجلة علمية محكمة. دب: 2013، الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتّكنولوجيا، المجلد 4، ع7 ص69.
4. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطريقة الخلوتية الرّحمانية: الأصول والآثار منذ ظهورها إلى غاية الحرب العالمية الأولى أطروحة دكتوراه، الجزائر: جامعة الجزائر، قسم العقائد والأديان ص487.
5. ينظر: مصطفى محمود، الزوايا الرّحمانية في الجزائر، albordj.blogspot.com :يوم: 2015/02/22 على الساعة: 12.00
6. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط2. لبنان: 1985، دار الفكر، ج3 ص 132.
7. سمير الويفي، دور المؤسّسة الدّينية الرّسمية في التّغيير الاجتماعي (دراسة حالة مسجد أول نوفمبر "باتنة") بحث ماجستير، الجزائر: جامعة الحاج لخضر باتنة، ص 118-119.
8. ابن الجوزي، تلبّيس إبليس، د.ط. دمشق: 1996، دار الفكر، ص 918.
9. عبدالقادر عيسى، حقائق عن التّصوف، ط5. لبنان: 1993، مكتبة العرفان، ص 08.
10. المرجع نفسه، ص 17.
11. سميح عاطف الزين، الصّوفية في نظر الإسلام، ط3. لبنان: 1985 دار الكتب، ص 14.
12. موسى بن موسى "ظاهرة التّصوف ودورها في صقل العلوم الاجتماعية والانسانية" مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية. الجزائر: 2014، جامعة الوادي، ع8 ص164-165.
13. المرجع نفسه، ص169.
14. حنان بلحشاش، دور التّيار الصوفي في الثّورات الشّعبية خلال القرن التّاسع عشر ميلادي، بحث ماجستير، الجزائر: جامعة محمد خيضر بسكرة، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ص 26.
15. الزوايا ودورها الثقافي والجهادي في الفترة العثمانية، يوم 2015/02/22، على الساعة 12.00 <http://barboura.arabblogs.com>

16. عبد المنعم القاسمي الحسني، للاً فاطمة نسومر، ابنة الطريقة الرحمانية ودورها في مقاومة الاحتلال الفرنسي، يوم : 2015/02/22م، على الساعة: 12.00.
www.4algeria.com/vb/4algeria34251/#post.
17. ينظر: المرجع نفسه.
18. ينظر: سعيد بورنان، رواد المقاومة الوطنية في القرن 19، ط3. الجزائر: 2015، دار الأمل.
19. المرجع نفسه، ص 110.
20. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ط1. بيروت: 2000م، دار الغرب الإسلامي، ج1، ص 245.
21. سعيد بورنان، رواد المقاومة الوطنية في القرن التاسع عشر، ص 164.
22. المرجع نفسه، ص 165.
23. ينظر: المرجع نفسه، ص 175.
24. المرجع نفسه، ص 177.
25. المرجع نفسه، ص 179-180.
26. سمير الويفي، دور المؤسسة الدينية الرسمية في التغير الاجتماعي، ص 119.
27. المرجع نفسه، ص 139.
28. بن لباد الغالي، الزوايا في الغرب الجزائري التيجانية والعلوية والقادرية (دراسة أنثروبولوجية) أطروحة دكتوراه. الجزائر: جامعة أبو بكر بلقايد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، ص 168.
29. محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، دط. دار الأمة الجزائر: 1994، ص 220.
30. عبد الحميد ابن باديس، آثار الامام عبد الحميد ابن باديس، ط1. مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر: 1991، ج 5، ص 155.
31. علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925-1940 بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، تر: محمد يحياتن، دط. دار الحكمة، الجزائر: 2007 ص 156.
32. المرجع نفسه، ص 174.

امتدادات الطريقة الرّحمانية داخل الوطن وخارجه

الباحثة: سامية محيوت

مقدمة: تحمل كلّ الطّرق في الحقيقة نفس الرّسالة الإسلاميّة، وما جاءت التّسميات المختلفة لها إلّا لاختلاف أسماء زعمائها، ومؤسّسيها الذين أخذوها من نفس المنبع؛ مثل: القادرية نسبة إلى الشّيخ عبد القادر الجيلاني (561هـ) والدّسوقيّة نسبة إلى الشّيخ إبراهيم الدّسوقي (676هـ) والخلوتية نسبة إلى الشّيخ محمّد بن أحمد بن محمّد كريم الدّين الخلوتي (986هـ) لكنّ الاختلاف في بعض التّفاصيل والمبادئ، وكذلك المناهج والممارسات، إضافة إلى اختلاف درجة التّشدّد والتّساهل في تطبيق أحكام الشّريعة الإسلاميّة؛ أدّى إلى تعدّد الطّرائق والزّوايا وقد قال أحد الباحثين: "إنّها بذلك أشبه بمدارس تتحدّ غايتها في التّعليم، وتختلف وسائلها باختلاف المعلّم الذي يجتهد في أن يضع لتلاميذه قواعد ورسوما خاصّة يرى أنّها أفضل في تعليمهم مع بقاء الغاية القصوى من الطّريق الصّوفي"¹ وقد عرفت الطّريقة الرّحمانية انتشارا واسعا عبر مختلف البلدان ومن أكثر المناطق التي انتشرت فيها الجزائر عبر جميع اتّجاهاتها.

أولا- امتدادات الطّريقة الرّحمانية في الجزائر: انتشرت هذه الطّريقة انتشارا واسعا في ربوع الجزائر؛ من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها وبذلك اخترقت الحدود الجغرافيّة، وفكّت العزلة عن عدّة مناطق، ووحدت الشّعب عبر التّراب الوطني؛ فحقّقت التّواصل بينها، ممّا جعلها عاملا قويا للكفاح أثناء الثّورة التّحريريّة ضدّ المستعمر الفرنسي.

ويعود الفضل في نشرها -كما سبق الذّكر- إلى الشّيخ محمّد بن عبد الرّحمن بن أحمد بن يوسف الجرجري الزّواوي الأزهري، والذي لم يحصر نشاطه في نشر دعوته الدّينيّة الصّوفيّة على منطقة بلاد القبائل والعاصمة فحسب؛ وإنّما مدّ

نشاطه أيضا إلى إقليم الشرق الجزائري؛ حيث قام بتعيين خليفة له من أبناء قسنطينة؛ وهو الشيخ مصطفى بن عبد الرحمن بن الباش تارزي الكرغلي، فقام هذا الأخير بنشر تعاليم الطريقة الرحمانية في الإقليم الشرقي² ومع توافد المريدين إليها والطلاب انتشرت أكثر إلى باقي المناطق.

1- في الشمال الجزائري:

أ- منطقة الزاوية: تُعدّ أول من اشتهر بالزاوية الرحمانية؛ والتي تضمّ مناطق القبائل (بجاية، تيزي-وزو والبويرة) فكانت بجاية نقطة الانطلاق و"مركز إشعاع صوفيّ لعدّة قرون من الزمن... ومن بجاية انطلق التصوّف إلى بقية مناطق المغرب الأوسط"³ ومن أشهر زوايا المنطقة نذكر:

1- زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري: وهو من أسسها "حوالي سنة 1763م بقرية آيت إسماعيل، دائرة بوعني بالقبائل الصغرى"⁴ وتعتبر الزاوية الأم للطريقة الرحمانية ومركزها الأول، ومركز تجمع الرحمانيين من مختلف المناطق قصدها الطلبة من كلّ النواحي سواء داخل الوطن أو خارجه؛ فرغم كثرة الزوايا في منطقة الزاوية إلا أنّ هذه الأخيرة تحتلّ الصدارة والمرتبة الأولى؛ بحيث استطاعت في وقت قصير أن تصبح مركز بحث، ومقصد كثير من الطلبة والشيخوخ إليها.

2- الزاوية العمورية بالبويرة: من الزوايا المشهورة، وتُعدّ أيضا "قلعة من قلاع العلم والجهاد يرجع تأسيسها إلى عام 1859م على يد الشيخ سيدي بن يوسف بن الحاج حماني؛ وذلك بأمر من شيخه وأستاذه في الطريقة الصوفية الشيخ سيدي بلعموري"⁵ وهو غني عن التعريف.

3- زاوية سيدي السعيد بن أبي داود: وتُنسب إلى الشيخ السعيد بن عبد الرحمان بن أبي داود (ت 1830م) وتقع هذه الزاوية بنواحي آقبو بقرية تاسلنت بالقرب من بجاية، وتُعدّ من أشهر الزوايا في القطر الجزائري خلال القرن الماضي، وقد وصفها الشيخ الحفناوي بقوله: "أمّ الزوايا العلمية على مدى ثلاثة

قرون، ومنها انتشر الفقه والنحو والحساب في بلاد زواوة إلى قسنطينة شرقا والأغواط والمدية غرباً⁶ وعلى هذا الأساس سماها العلماء النور والبركة. ومن أشهر أساتذتها: الشيخ أبو القاسم بن أحمد بن أبي داود، الشيخ محمد العربي بن أحمد بن أبي داود الشيخ الصادق بن الحبيب، وغيرهم من الأساتذة، وهم أكثر. ومن أشهر خريجيها: الشيخ المختار الجيلالي، الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي الشيخ أبو القاسم بن الصغير الديسي.

4- زاوية الشيخ بن الحداد بصدوق: تقع بوادي الصومام، بولاية بجاية أسسها الشيخ محمد بن الحداد، وتعتبر هذه الزاوية حديثة النشأة مقارنة مع زاويا الزواوة ولكنها سرعان ما عرفت شهرة وتوسعا كبيرين، وأضحت مركزا من مراكز الطريقة الرحمانية، وترجع أهمية زاوية الشيخ الحداد إلى أنها تزعمت رئاسة الطريقة الرحمانية بعد تدمير مقر الزاوية الأم بآث إسماعيل، بعد ثورة القبائل سنة 1857م، مما دفع الإخوان إلى التفكير في مقر آخر للطريقة وشيخ آخر... وبعد انتخاب الشيخ الحداد شيخا للطريقة، استمر في إدارة شؤون زاويته إلى غاية قيام ثورة 1871م⁷ وقد تفرعت منها زاويا أخرى نذكر منها:

4-1. زاوية ابن سحنون بتاغراست: أسسها الشيخ محمد السعيد بن سي السعيد أمقران السحنوني سنة 1871م، بقرية تاغراست، الواقعة ببني وغيليس بدائرة سيدي عيش ولاية بجاية، ومن أبرز شيوخها: الشيخ محمد السعيد بن سي السعيد السحنوني، الشيخ أحمد بن محمد السعيد ابن المؤسس، وخريج الزاوية (ت1952م)، الشيخ الكامل الفرشيشي التونسي من تالة، الشيخ إبراهيم بن صمادح التونسي الأزهري، الشيخ محمد الشريف بن محمد السعيد...

ومن أبرز المواد التي كانت تُدرّس فيها نجد: "التفسير، والحديث، والقراءات والنحو، والصرف والفلك... وقد عرفت نشاطا واسعا في عهد محمد السعيد ومحمد الشريف الأول، وقد كان تأثيرها يمتد إلى نواحي سطيف والبرج وسكيكدة"⁸ وهذا دأب الزوايا الناجحة؛ فنشاطها لا ينحصر في مكان واحد.

4-2. زاوية الشيخ أبي القاسم البوجليلي: أسسها محمد بن أبي القاسم الحسيني البوجليلي سنة 1873م ببوجلبل بدائرة آقبو ولاية بجاية، "وعدّ البوجليلي من كبار العلماء والمصلحين في عهده، وقد أخذ العلم بزواوة، ولم ينتقل إلى غيرها من منابع العلم، اكتسب شهرة واسعة في المنطقة، واكتسب خبرة عالية في التدريس، إذ ظلّ مدرّسا بزاوية سيدي عبد الرحمن اللولي لمدة تجاوزت الثلاثين سنة، كلّ هذه العوامل ساعدت على إيجاد مستوى تعليميّ عالي" ⁹ وقد كلّف الشيخ الحدّاد البوجليلي رئاسة الطّريقة الرّحمانية، وتعتبر هذه الزّاوية امتدادا لزاوية صدّوق والطّريقة، ومن أبرز المواد التي تُدرّس في هذه الزّاوية نجد: النحو والصّرف والبلاغة، وتأتي في المرتبة الثّانية القراءات.

ومن أبرز خريجيها: محمد السّعيد بن زكري، أبو يعلى الزّواوي، محمد الصّالح القلي وأخرون، وحسب الإحصائيات التي قدّمها ديبون وكوبولاني، وبالتالي "نجد أنّها أكبر الزّوايا من حيث عدد الزّوايا التي تنتمي إليها؛ أمّا من حيث المریدين والأتباع فتفوقها في ذلك زاوية الهامل" ¹⁰ وزوايا أخرى.

ب- في الشّرق الجزائري: تتركّز الزّوايا في ولاية قسنطينة وضواحيها، ومن بينها نجد:

1- زاوية الشيخ عبد الرحمن باش تارزي: وتعدّ من الزّوايا الرّحمانية الأولى التي تأسست مع نهاية القرن 18م، وما يميّزها أنّها بُنيت بالمدينة على خلاف باقي الزّوايا، والتي تبنى دائما في الجبال والمناطق الرّيفيّة المنعزلة عن التّجمّعات السّكانية؛ طلبا للخلوة والسّكينة، أسسها الشيخ عبد الرحمن باش تارزي بأمر من شيخه الأزهريّ، وتعتبر هذه الزّاوية "مركزا لاجتماع علماء الحنفيّة والأتراك منهم ومقرّا لنشر الطّريقة الرّحمانية لدى أهل الحضر قسنطينة والضّواحي" ¹¹ وقد كانت هذه الزّاوية أداة تواصل بين زوايا القبائل والزّوايا الجنوبيّة، فنجد الشيخ محمد بن عزوز قد أسّس زاوية في بلدة البرج، متّبعا في ذلك طريقة الرّحمانية، وسلوكها على يد الشيخ عبد الرحمن باش تارزي، ما سمح بانتشار الطّريقة في الشّرق

الجزائريّ وامتدّت تأثيرها إلى أم البواقي، والقلّ وغيرها من المناطق. وحسب إحصائيات ديبون "فإنّ أتباع الزاوية بلغوا في آخر القرن التاسع عشر: أكثر من عشرة آلاف مريد ولها ثمانى زوايا، ووكيل واحد، و25 أستاذًا، وشيخ واحد، و85 مقدما، و104 من الشواش، ومعظم هؤلاء الإخوان كانوا في إقليم قسنطينة وبعضهم كان في إقليم الجزائر".¹²

ومن خريجيها نجد: الشيخ بن عزوز البرجي، والشيخ صالح بن محمد العنتري والشيخ محمد بن عيسى الشاذلي القسنطيني، والشيخ محمد بن الحبيب القسنطيني وغيرهم.

2- زاوية الشيخ بن الحملوي بتلاغمة: تقع هذه الزاوية بعين العرس، بلدية وادي سقّان، دائرة تلاغمة، ولاية ميلّة، أسّسها الحاج علي بن الحملوي بن خليفة بنواحي قسنطينة، وتذكر المصادر أنّ أصل أسرة هذا الشيخ من مدينة تازة المغربية، وأسست الجذور الأولى لها في دائرة شلغوم العيد في منتصف القرن 15م، لتتحوّل إلى مقرّها الحالي بمدينة ميلّة، وقد اتّبع الحملوي الشيخ الحدّاد في سلوكه محافظا على أسس الطّريقة الرّحمانيّة، وبعد وفاته سنة 1899م، تولّى ابنه الشيخ الحفناوي رئاسة الزاوية مدّة تقارب العامين، لتنتقل الرّئاسة إلى أخيه أحمد الذي مكث في إدارتها مدة 12 سنة، ليسند حكم الزاوية إلى الشيخ عبد الرّحمن أين عرفت الزاوية تطوّرًا واستقطابًا متزايدًا للعلماء والأساتذة لها، إلى أن توفي الشيخ سنة 1942م.

ج- في الغرب الجزائري: تتواجد بكثرة في ولاية غليزان وضواحيها، وقد قام بنشرها محمد المنور إثر عودته من زاوية آث سيدي إسماعيل؛ أين درس وتعلّم ليؤسّس الزاوية.

د- منطقة الأوراس: نذكر من زواياها:

1- زاوية الشيخ الصادق بن الحاج: تقع هذه الزاوية "بجبل أحمر خدّو أسّسها الشيخ سي الصادق بن الحاج الأوراسي قبل سنة 1814م، بأمر من شيخه محمد

عزّوز البرجي، قامت بدور كبير في جمع أتباع الطّريقة الرّحمانيّة، وزيادة انتشارها بالأوراس¹³؛ لكنّ الموقع الاستراتيجيّ الصّعب للزّاوية منع من عمارتها بشكل واسع؛ فلم تدم أكثر من 30 سنة، وقد كان هدف مؤسّسها مواصلة ما بدأه الأوائل من شيوخه في نشر الطّريقة الرّحمانيّة، بعد أن عرفت انتشارا في مناطق الشّمال والشرق والصّحراء، فأراد أن يكون لمنطقة الأوراس نصيب من هذا الجهد الرّوحيّ والدّينيّ الذي كانت تقوم به الطّريقة.

2- زاوية بني عبد الصّمد: تقع هذه الزّاوية في تازولت شمال شرق مدينة باتنة، وتأسّست في أواخر القرن الثّامن عشر، "وتنسب عائلة بني عبد الصمد إلى جدّها الأوّل عبد الصّمد بن وضّاح... استوطن أولا في أعلى جبال الأوراس... انتسب إلى الطّريقة الرّحمانيّة على يد شيخها بقسنطينة الشيخ عبد الرحمن باش تارزي"¹⁴ وقد تفرّعت من هذه الزّاوية زاويتان، هما: زاوية ابن الدّراجي، وتقع بـسريانة بباتنة، تأسّست مع نهاية القرن التّاسع عشر، وزاوية ابن علجية، وتقع بـعرش أولاد سلطان، أسّسها الشّيخ محمد ابن علجية (ت1932م) وهذه بعض المعلومات القليلة التي وجدتها عن هذه الزّاوية نظرا للموقع الاستراتيجي الذي أسّست فيه.

3- زاوية الشّيخ علي دردور: وتقع في مدرونة بوادي عدي بنواحي باتنة أسّسها الشّيخ علي دردور، أما عن تاريخ تأسيسها فقد اختلف العلماء في ذلك.

هـ- الجنوب الجزائري: اشتهرت زواياها بدورها الفعّال في الثّورة التّحريريّة ومن بينها:

1- زاوية الهامل القاسميّة: ومؤسّسها محمّد بن أبي القاسم، وتعتبر هذه الزّاوية من أكبر الزّوايا التي اتّبعت منهج الطّريقة الرّحمانيّة، وازدهرت وذاع صيتها في المشرق والمغرب؛ حيث أصبحت بعد سنوات قليلة من تأسيسها مركز إشعاع حضاري، واستقطبت كثيرا من الباحثين والعلماء، ومن أبرز خريجيها نجد: الشّيخ محمّد بن عبد الرّحمن الدّيسي، الشّيخ عبد السّلام التّازي، الشّيخ محمّد

العاصمي، الشيخ أبو القاسم الحفناوي، الشيخ محمد المكي بن عزوز، الشيخ محمد الستوسي التونسي.

2- الزاوية العثمانية بطولكة: تقع ببلدة طولكة ولاية بسكرة، أسسها الشيخ علي بن عمر الطولكي "الذي لُقّب بالقطب شيخ الشيوخ، لأنه أخذ مباشرة عن مؤسس الطريقة... وتسمّى بالزاوية العثمانية نسبة إلى جدّ الشيخ علي بن عمر الشيخ سيدي علي بن عثمان".¹⁵ وكانت مهمة الزاوية تحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الدينيّة، وقد تفرّعت منها عدّة زاويا نذكر منها: زاوية الشيخ سعادة الرّحمان، زاوية سيدي خالد زاوية العلّامة عبد الرّحمن الأخضر، وتربط الزاوية علاقات وطيدة ومتميّزة مع المغرب الأقصى وبلاد الحجاز، ويمتد تأثيرها على مناطق واسعة، ينضم تحت لوائها الآلاف من المريدين بكل من: بسكرة بوسعادة عين توتة، عين السلطان، باتنة، تريعة، أولاد جلال... وبلغ عدد أتباعها سنة 1897 حوالي 17 ألف مريد، وعدد زاوياها 17 زاوية.¹⁶ ومن أبرز خريجيها: الشيخ علي بنعثمان، الشيخ بن أبي القاسم الديسي، الشيخ محمد الحفناوي بن علي بن عمر.

3- زاوية خنكة سيدي ناجي: أسسها الشيخ أحمد بن محمد الوانكلي الهجرسي، ببلدة خنكة سيدي ناجي بالقرب من مدينة بسكرة، وبعد أن وافته المنية خلفه ابنه الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الخنكي، ومما اشتهرت به الزاوية المدرسة الناصرية؛ حيث كانت مقصد طلبة وادي سوف والأوراس، والزواوة، وقسنطينة كما تفرّعت منها عدّة زاويا أخرى داخل الوطن وخارجه منها: زاوية تمغزة التي أسسها الشيخ عبد الحفيظ الحفناوي، وهو ابن الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الخنكي بالجنوب التونسي، وكذلك الابن الثاني وهو الشيخ محمود "الذي عمل على تطوير زاوية ليانة وتولّى مشيخة زاوية تونس العاصمة"¹⁷ إضافة إلى الابن الثالث الشيخ محمد الأزهر، الذي عمل على نشر طريقة الزاوية في الجنوب الجزائري وأسس زاوية الخيران بخنشلة، إلى أن توفي سنة 1896م.

4- زاوية الشيخ مختار بن عبد الرحمن بأولاد جلال: وهي من بين الزوايا

التي سارت على نهج الطريقة الرحمانية وعملت بمبادئها، وتقع بولاية بسكرة بقرية أولاد جلال، أسسها الشيخ المختار الجلاي سنة 1815م، وامتد تأثيرها إلى مناطق كثيرة من القطر الجزائري، مثل: "أفلو، زمورة، عمي موسى، تيارت، الجزائر العاصمة، بئر غبالو، سور الغزلان، قصر البخاري، البرواكية، بوغار وقصر الشلالة، الجلفة، بوسعادة، بسكرة، جرجرة..."¹⁸. ومن أشهر شيوخها الذين تولوا التدريس بها: الشيخ عابد بن السماتي الجلاي، الشيخ مصطفى بن قويدر مبروكي الشيخ أبو الأنوار بن المحبوب.

ومن أبرز خريجيها: الشريف بن الأحرش؛ محمد بن أبي القاسم الهاملي، نعيم النعيمي...

5- زاوية سيدي سالم بوادي سوف: وتقع بمدينة وادي سوف، أسسها الولي

الصالح سيدي سالم بن محمد سنة 1860م، أخذ بدايات التأسيس الأولى عن شيخه محمد بن عزوز، وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى؛ أي الشيخ بن عزوز، واصل على يد الشيخ علي بن عمر، الذي أمره بتأسيس زاوية سيدي سالم بوادي سوف، ولها علاقات متميزة مع فروع الطريقة الرحمانية؛ فأنشأت مراسلات وزيارات بين فروعها، عملت على نشر الطريقة السالمية الرحمانية في الجنوب الجزائري، وكذا الجنوب التونسي، وكانت مقصدا للعلماء، ومركزا للطريقة الرحمانية بمنطقة وادي سوف، ومن أبرز خريجيها: الشيخ الطاهر العبيدي وأخوه الشيخ أحمد، إلى جانب العديد والمئات من الطلبة وحفظة القرآن الكريم.

هـ- زوايا منطقة أولاد نايل¹⁹، وهي:

1- زاوية الشيخ بن عرعار: وتعتبر أقدم وأول زاوية تابعة للطريقة الرحمانية

في منطقة أولاد نايل، أسسها الشيخ عطية الذي أخذ عن الشيخ عبد الرحمن الأزهرى بنواحي الجلفة، نهاية القرن الثامن عشر، وبعد وفاته تولى الإشراف عليها ابنه الشيخ ابن عرعار، والذي سميت الزاوية على اسمه، وتخرج منها العديد

من الطلبة والعلماء والفقهاء، وهذه بعض المعلومات التي توفرت عندي عن هذه الزاوية بحيث لم ترد مصادر أو مراجع تتحدث عنها بالتفصيل.

2- زاوية عين أغلال: أسسها الشيخ أبو القاسم بن جلول الأحدايي سنة 1811م، والذي أخذ الطريقة عن مؤسس الطريقة الرحمانية الشيخ الأزهرى وتولى إدارتها مجموعة من الشيوخ الكبار نذكرهم بطريقة تسلسلية: "الشيخ خليفة ثم الشيخ المختار بن خليفة، من علماء المنطقة ومن الذين درسوا بالأزهر الشريف وتولى بعده أخوه الشيخ بن عزوز... ثم الشيخ محمد، وفي عهده بلغ عدد الطلبة 200 طالب، تولى بعده الشيخ المختار بن عزوز ثم الشيخ محمد الصغير الذي تخرج من الزيتونة، وبعده أخوه الشيخ مصطفى بن محمد".²⁰

3- زاوية الشيخ الطاهر بن محمد: وتقع أيضا بالجلفة بمدينة مسعد، أسسها الشيخ طاهر بن محمد النابلي سنة 1837م، وبعد وفاته خلفه الشيخ يوسف، لتنتقل الرئاسة إلى ابنه الشيخ المختار، "ولعل من أهم مميزات هذه الزاوية أنها كانت متنقلة بين مقرين، مقر الشتاء ومقر للصيف... والذي يعنينا في هذه الزوايا هو دورها الاجتماعي إذ كانت أماكن لفض النزاعات بين الناس، ونشر قيم المحبة والتسامح بين أوساط المجتمع"²¹ وكما هو معروف فهو مجتمع يعتمد على الترحال الدائم.

4- زاوية الشيخ الشريف بن الأحرش: وتقع بدورها بولاية الجلفة، أسسها الشيخ الشريف بن الأحرش سنة 1838م، "لم تشتهر الزاوية من الناحية العلمية لظروف المقاومة التي كانت تعرفها البلاد، ولمساهمتها المباشرة فيها"²² وقد عرفت الزاوية إلى جانب وفود الطلبة إليها، استقطاب الفقراء واليتامى والمساكين لمساعدتهم بما أمكن.

5- زاوية الشيخ عطية الجلاية: وتعتبر هذه الزاوية فرعا من فروع الزاوية الهاملية، أسسها الشيخ عطية بن أحمد النابلي سنة 1870م، بطوككة شمال شرق

قرية عين معبد، بنواحي مدينة الجلفة، اشتهرت بالدروس العلمية والدينية من تحفيظ للقرآن الكريم وغيرها من العلوم الأخرى.

ومن أبرز خريجيها نجد: الشيخ الهادي بن مصطفى مسعودي، الشيخ عطية مسعودي، وهو أخ الشيخ الهادي مسعودي، الشيخ قذور بن هدية حمر العين الشيخ موسى بن بلخير...

هذه إذاً بعض اللّمحات التاريخية حول انتشار وتوسع الطريقة الرحمانية في القطر الجزائري، من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه، والتي كانت الانطلاقة فيها من منطقة الزاوية من زاوية آت- إسماعيل، إلى زاوية الشيخ أبي القاسم البوجليلي، لتمتدّ إلى الشرق من زاوية الشيخ باش تارزي، إلى الزاوية الحملاوية، ولتنوّسّع أكثر إلى الغرب الجزائري، من زاوية الشيخ الصادق بن الحاج لتمتدّ إلى آخر زاوية، وهي زاوية الشيخ علي دردور، وصولاً إلى الجنوب الجزائري من زاوية الهامل، إلى زاويا أولاد نايل، وبعد التّوسع الكبير الذي شهدته الطريقة الرحمانية داخل الوطن، سعى شيوخها وأتباعها إلى العمل على نشر الطريقة بشكل أكبر لتمتدّ بذلك خارج الحدود الجزائرية.

ثانياً: امتدادات الزاوية الخلوتية خارج الجزائر: كانت الانطلاقة الأولى من قارة آسيا؛ إذ كانت فرعاً من فروع الطريقة السهرودية، "ويبدو أنّ فارس والقوقاز كانت تمثّلان المهد الأول للطريقة الخلوتية، وسرعان ما انتشرت في بلاد الأناضول والمناطق العربية المحيطة بها، الواقعة في يد السّلطة العثمانية"²³ والتي كان لها الدور الكبير في نشرها وتوسيعها، ولقد مرّت هذه الطريقة في نشاطها بمرحلتين²⁴:

- **الأولى:** خلال الفتوحات العثمانية، التي امتدّت من الأناضول جنوب شرق أوروبا، بعد أن عمّت تركيا. وقد كانت عبارة عن مرحلة تأسيسية للزوايا، دون أن تخضع للتّظيم والانتماء.

- **الثانية:** امتدت من تبريز بإيران إلى مصر، على يد خلفاء عصر الروشني التبريزي، ومن مصر انتشرت في إفريقيا السوداء، والقرن الإفريقي، والسودان والشرق الأوسط، ثم من الحرمين الشريفين امتدت الخلوتية إلى أندونيسيا. وقد عرفت في هذه المرحلة النشاط والتنظيم والرئاسة، ولما استقرت بمصر انطلقت منها إلى بقية أنحاء العالم.

وقد كان مسار انتشار الطريقة الخلوتية على النحو التالي²⁵:

1- **الخلوتية بإيران:** أصل الطريقة ومهداها هو إيران، فقد أخذ محمد الفارسي الخلوتي الطريقة عن إبراهيم الراشد الكيلاني -وكيلان هي إحدى مناطق فارس- والذي أخذها عن جمال الدين التبريزي من محمد الشيرازي، عن محمد النجاشي عن قطب الدين الأبهري، عن أبي النجيب السهروردي.

2- **آسيا الوسطى:** تعتبر آسيا الوسطى إحدى المراكز الرئيسة لانتشار الصوفية في العالم الإسلامي... وأهم من نشر الطريقة الخلوتية فيها: يحيى الشرواني (ت 867هـ) الذي استقر بباكو، وإليه تنتهي كل سلاسل الطريقة الخلوتية.

3- **الأناضول:** في تركيا، وقد نشرها الشيخ محمد شمس الدين التبريزي المعروف بأمير سلطان (ت 834 هـ).

4- **الخلوتية بمصر:** "انتشرت بها بدءا من القرن العاشر (10هـ)؛ أي قبيل الدخول العثماني لمصر عام 923هـ"²⁶ وتنتقل بعدها إلى المناطق المجاورة لها وغير المجاورة: العراق، الشام، الحجاز...أوربا الشرقية، وشمال إفريقيا.

وإذا ما انتقلنا للحديث عن القارة الإفريقية، نجد أن انطلاق الطريقة الخلوتية الرحمانية من تونس الشقيقة، وكما قلنا سالفًا، فإن الشيخ عبد الرحمن الأزهرى قد أشار إلى أن أتباعه ومريديه قد انتقلوا إلى تونس بهدف نشر الطريقة هناك، وقد ساهم الشيخ مصطفى بن عزوز البرجي في نشر الطريقة أكثر، انطلاقًا من مدينة نفطة بتأسيس عديد الزوايا التي تحمل المبادئ الرحمانية، "ومن أشهر زوايا

الطريقة الرَّحمانِيَّة في تونس: زاوية الكاف، زاوية نفطة، زاوية سليانة، ولهذه الزوايا الكبرى مجموعة من الزوايا التابعة لها، عددها 47 زاوية، كما تستحوذ الطريقة الرَّحمانِيَّة بتونس على 114152 من الأتباع، وهذا ما جعلها من حيث عدد الأتباع في المرتبة الثانية بعد الطريقة القادرِيَّة، أما من حيث عدد الزوايا فهي الأولى²⁷ وهذه أهم الزوايا:

1- **زاوية الكاف الرَّحمانِيَّة:** تقع هذه الزاوية بالشمال الغربي لتونس، وتعتبر هذه الزاوية أولى الزوايا الرَّحمانِيَّة بالقطر التَّونسيّ، عرفت شهرة واسعة، ولعبت دورا هاما في نشر الطريقة في المنطقة في تلك الفترة، وصفها أحد الباحثين المعاصرين بقوله: "من أهم زوايا الطريقة الرَّحمانِيَّة بتونس، نظرا لما لها من مواقف... وكذلك الشأن بالنسبة لبعض زواياها بالشمال الغربي"²⁸ وإلى جانب الطريقة الرَّحمانِيَّة التي تعمل بها هذه الزاوية، نجد ظهور طريقة أخرى سُميت بالطريقة القادرِيَّة؛ ولكنّها لم تتل حظا كافيا لدى أتباع هذه الزاوية مقارنة بالطريقة الرَّحمانِيَّة، أمّا عن تأسيسها ومؤسّسها فقد اختلف الباحثون في ذلك، حيث إنّ هناك من يقول إنّها تأسّست على يد كلّ من الشّيخ مصطفى الطرابلسي والشّيخ أحمد بوججر، وهناك من يقول إنّها تأسّست على يد الشّيخ أحمد بوججر. "على أنّ الثّابت تاريخيا أنّ ناشر الطريقة الرَّحمانِيَّة بمدينة الكاف، هو الشّيخ الطرابلسي تلميذ الأزهري، ويكون هو من فكّر في تأسيس الزاوية، واستعان بتلميذه الشّيخ أحمد بوججر، فاشترك الرّجلان في التأسيس"²⁹ ومن أبرز شيوخها محمّد الصّالح بوججر؛ لكن لم ترد معلومات كافية عن الشيوخ الذين تردّدوا إلى هذه الزاوية وتعلّموا فيها وتخرّجوا منها.

2- **زاوية سيدي عبد الملك بسليانة:** أسّسها الشّيخ سيدي عبد الملك بن أحمد الحمّادي، بقنطرة سليانة في بدايات القرن التاسع عشر، "تلقّى تعليمه على يد جدّه الشّيخ حمادة بن محمّد العوني، ثم انتقل إلى تونس العاصمة حيث أخذ عن الشّيخ صالح الكواش، والشّيخ حسن الشّريف... عاد إلى قريته سليانة، واتّخذ بها خلوة

للتعب والتأمل... وأعاد تأسيس زاوية جدّه حوالي سنة 1807م. ويبدو أنّه كان من أتباع الطريقة الرّحمانية بزاوية الكاف.³⁰

3- زاوية سيدي مصطفى بنفطة: أسسها الشّيخ مصطفى بن عزوز، وتعتبر من أهمّ مراكز الرّحمانية في تونس، وهناك من يسمّيها العزّوزية. ومن أهمّ الشيوخ الذين تولّوا التدريس فيها نجد³¹: الشّيخ الصّالح الحمّادي، الشّيخ أحمد السنوسي القفصي، الشّيخ إبراهيم التّوزري، الشّيخ محمّد المدني بنعزوز، الشّيخ التّارزي بن عزوز.

ومن أبرز خريجيها: الشّيخ محمّد المكي بنعزوز، الشّيخ أحمد الأمين، الشّيخ عاشور الخنكي³² الشّيخ عبد القادر الياجوري، الشّيخ العربي التّبسي.

وقد استطاعت الزاوية أن تحتلّ مكانة عالية، ونفوذاً واسعاً مقارنة بالزوايا الأخرى في القطر التّونسي، وأقامت علاقات وطيدة مع الزوايا الرّحمانية الأخرى أمثال: زاوية سيدي سالم بوادي سوف، زاوية سيدي علي بن عمر بطولكة، زاوية الهامل، زاوية خنكة سيدي ناجي.

نشير إلى أنّ للزاوية أدواراً نضالية كثيرة، متّبعة في ذلك السيرة السّياسية للطريقة الرّحمانية بالجزائر في مكافحة العدو الفرنسيّ، وبعد وفاة الشّيخ المؤسّس للزاوية تولّى مشيختها ابنه الشّيخ أحمد الحفناوي (ت1853م-1894م) وبعد وفاته أيضاً انتقلت الخلافة إلى أخيه الشّيخ محمّد الأزهري (ت1931م) الذي كان آخر من تولّى إدارة الزاوية.

وما أخلص إليه في هذا البحث هو الإجابة عن السّؤال التّالي: ما هي الأسباب التي أدّت إلى انتشار واشتعال الطريقة الرّحمانية داخل الوطن وخارجه؟ فنقول:

- الطريقة الرّحمانية طريقة ترسّخ القيم الإسلاميّة والوطنية؛
- طريقة سنية معتدلة، وطريقة نضالية مجاهدة؛
- طريقة محافظة على اللّغة العربيّة؛
- طريقة ناشرة للوعي قبل الوعظ، والتّربية بالإصلاح؛

- طريقة تقبل الآخر، وتتعايش مع مختلف الديانات، وترفض كل أشكال العنف والتطرف؛

- وأهم ميزة أنها تفردت في جهودها بتحرير الأفراد من قيود زوايا التخلف.

- الخاتمة: إنّ خاتمة البحث تقتضي منّي ذكر بعض النتائج التي توصلت إليها وهي مجملّة كالآتي:

- إنّ الحرص على نشر الطّريقة الرّحمانيّة هدف أساس لضمان بقائها واستمراريتها؛

- العمل على إحياء الدّور التاريخيّ للرّحمانيّة وتذكير الخلف بما تضمّنته هذه الطّريقة من مبادئ تربويّة وأخلاقيّة؛

- العمل على خلق تقارب روحيّ وتربويّ وأخلاقيّ، بشكل أوسع بين الطّريقة الرّحمانيّة والتّابعين لها والمريدين؛

- إدراك رسالة الطّريقة الرّحمانيّة، بالتّعاون بين الزّاوية والقائمين عليها، وبين الطّريقة والتّابعين لها؛

- إنّ الرّحمانيّة أمانة عظيمة، على الخلف التّابعين لها المحافظة عليها من كلّ عدوّ ينوي زعزعة كيانها؛

- حرص مريدي وأتباع الطّريقة على طلب العلم، الذي كانت تتشده الطّريقة بحيث لم تكون غاية هؤلاء الانتساب للاسم فقط؛ بل العمل بمبادئه وشروطه وأسسّه.

الهوامش:

1. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطّريقة الخلوتيّة الرّحمانيّة (الأصول والآثار، من ظهورها إلى غاية الحرب العالميّة الأولى)، أطروحة دكتوراه. الجزائر: جامعة الجزائر قسم العقائد والأديان ص 20.

2. حنان بلعشاش، دور التّيار الصّوفي في الثّورات الشعبيّة خلال القرن التّاسع عشر ميلادي مذكّرة ماستر. الجزائر: 2012م - 2013م، ص 29.

3. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطّريقة الخلوتيّة الرّحمانيّة (الأصول والآثار)، ص 180 .

4. نسيمه قديده، موقف الطريفة الرحمانية من الاحتلال الفرنسي (زاوية الهامل بوسعادة 1863-1962 أنموذجا)، مذكرة ماستر. الجزائر: 2013-2014م، ص 26.
5. الشيخ بن يوسف النذير بن سيدي محمد "الصحة الروحية بين سيدي بلعموري بن يوسف هي السبب في تأسيس زاويتنا زاوية سيدي بلعموري"، مجلة الصراط المستقيم الكتاب الأول، دار تديكت، الجزائر: 2013م، ص 12.
6. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطريقة الخلوتية الرحمانية (الأصول والآثار)، ص 711 .
7. المرجع نفسه، ص 722.
8. المرجع نفسه، ص 727.
9. المرجع نفسه، ص 730.
10. المرجع نفسه، ص 731 .
11. المرجع نفسه، ص 736.
12. المرجع نفسه، ص 735.
13. المرجع نفسه، ص 768.
14. المرجع نفسه، ص 744.
15. المرجع نفسه، ص 751.
16. المرجع نفسه، ص 756.
17. المرجع نفسه، ص 757.
18. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
19. المرجع نفسه، ص 777.
20. المرجع نفسه، ص 778.
21. المرجع نفسه، ص 779.
22. عبد المنعم قاسمي الحسني، الطريقة الخلوتية الرحمانية، ص 55.
23. ينظر: المرجع نفسه.
24. المرجع نفسه، ص 69.
25. المرجع نفسه، ص 782.
26. المرجع نفسه، ص 784.
27. المرجع نفسه، ص 783.
28. المرجع نفسه، ص 787.

29. المرجع نفسه، ص 790.
30. المرجع نفسه، الصّفة نفسها.
31. ينظر: المرجع نفسه.

الإنجازات الحديثة للطريقة الرّحمانية وآفاقها المستقبلية،

الباحثة: حسبية لعربي.

تعرفنا ممّا سبق على الجانب التاريخي للطريقة الرّحمانية منذ تأسيسها وأهمّ محطاتها وأدوارها التي لعبتها، والدور النضالي والجهادي في الجزائر خاصة والآن سننتقل إلى الحاضر والواقع، ومن خلاله سنلقي نظرة خاطفة على الآفاق المستقبلية المرجوّ تحقيقها إن شاء الله.

يشهد الواقع على تراجع نشاطها ودورها في المجتمع في السّنوات الأخيرة وذلك راجع لعدّة عوامل لعلّ أقواها ما يلي:

أولاً- مستجدّات الحياة وتغيّراتها المستمرة: وبخاصّة أنّنا نعيش في عصر السرعة؛ إذ لا بدّ لنا من مواكبتها حتى نكون في قلب الحدث.

ثانياً- العولمة: التي اجتاحت كلّ الميادين، وفرضت نفسها بالقوّة على حساب الأخلاق النبيلة والقيم والمبادئ الإنسانية؛ فأصبح النّاس يتسابقون لتحقيق غاياتهم ضاربين بالقيم عرض الحائط؛ وبذلك أصبحت الغاية تبرّر الوسيلة.

ثالثاً- الحركات الدّينية التّعسّفية والمتطرّفة: والتي أدخلت على الإسلام طقوس وممارسات الشّعوزة، التي لا تمتّ له بأيّة صلة، وهذه نظرة سلبية مرجعها الفهم الخاطئ للدين.

رابعاً- الحملات التّغريبية: التي تستهدف الإسلام لتشويه صورته، وذلك في اتّجاهين هما:

الاتّجاه الأوّل: يرمي إلى قلب الرّأي العام والعالمي ضدّ الإسلام؛ وذلك بنسبة العنف والاضطهاد والإرهاب إليه؛ وعليه يصبح الدّين بؤرة توتر وخطاً أحمر على المغتربين خاصّة؛ ممّا يولّد سوء المعاملة والعنصرية المفروضة عليهم.

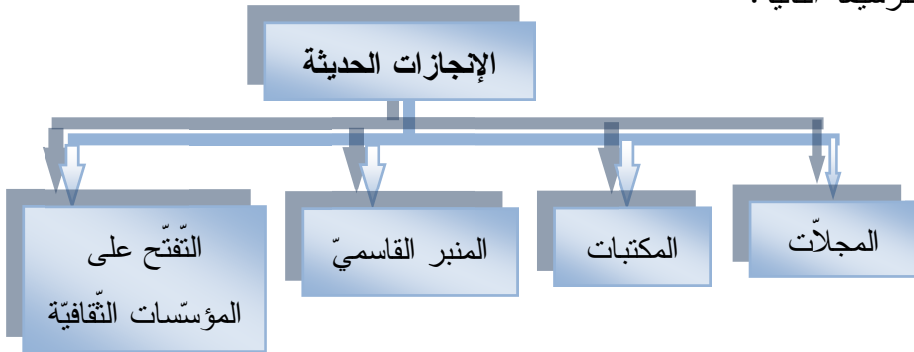
الاتّجاه الثّاني: يرمي إلى تحويل الاهتمام إليها، عن طريق استهداف أكبر قوّة تمتلكها الشّعوب العربيّة الإسلاميّة -وهي فئة الشباب- ولذلك فهي تعمل على

إغرائهم بالماديات التي توفرها لهم، مقابل التخلي عن الإسلام والدخول في دين آخر.

ولكن الأمر لم يبق على حاله طبعاً؛ إذ أقيمت عدّة ندوات، كما نُظِّمت عدّة أيام دراسية وملتقيات لدراسة القضية، والبحث عن سبل إحياء دور الطريقة الرحمانية في المجتمع، وبعث نشاطها من جديد لكن هذه المرة بنظرة جديدة، آخذة المستجدات بعين الاعتبار؛ إذ لا بدّ من مواكبة الأحداث والتغيّرات؛ فإن كان القرآن الكريم ثابتاً في سورة وقيمته وتعاليمه، فإنّه أيضاً متغيّر في دلالاته؛ لذلك هو صالح لكلّ زمان ومكان.

هذا عن واقعها وحاضرها، أمّا عن مستقبلها المنتظر؛ فقد خرجت بتوصيات عديدة ومشاريع مستقبلية من شأنها تحقيق هذا الهدف، لكن قبل الخوض فيها، سنعرض بعض التحسينات والإنجازات الحديثة التي حققتها كبداية لمستقبل زاهر إن شاء الله، من بينها - على سبيل المثال، وليس الحصر - ما يلي:

1. بعض الإنجازات الحديثة للزوايا الرحمانية في الجزائر: تتمثل في تلك النشاطات، والمشاريع التي أسستها، وكذلك التجارب التي خاضتها توضّحها الترسّيمة التالية:



1/1. تأسيس المجلّات: تلعب المجلة دوراً كبيراً في ترقية مكانة الطريقة الرحمانية؛ فهي تعمل على:

- التعريف بالطريقة وأفكارها؛
- تصحيح نظرة الفرد والمجتمع إليها؛

— استقطاب المزيد من المريدين؛

— الحفاظ على الموروث الديني والوطني.

نذكر نموذجين للمجلات هما:

— مجلة رسالة الزاوية: تصدرها تنسيقية

زاويا ولاية تيزي-وزو، بالتعاون مع المركز

الثقافي الإسلامي (فرع تيزي-وزو) وهي

مجلة دينية ثقافية، تتبنى شعار «إدع إلى

سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»

والفئة المستهدفة: الأئمة، طلبة الزاويا وطلبة

الثانويات والجامعات...¹. كما إنها تتناول

المواضيع المتعلقة بالطريقة الرحمانية من



كلّ الجوانب، كذلك تخوض في التراث والتاريخ الجزائري إضافة إلى تركيزها

على إبراز مدى مساهمة منطقة القبائل في خدمة الدين والوطن، وتخضع الأعمال

المرسلة إلى المجلة لهيئة التحرير؛ التي تبثّ في قرار نشرها في المجلة أو عدم

نشرها لأسباب موضوعية²، وهي

تحتكم إلى مقاييس علمية.

— مجلة الصراط المستقيم: وهي

عبارة عن "سلسلة كتب تصدر عن

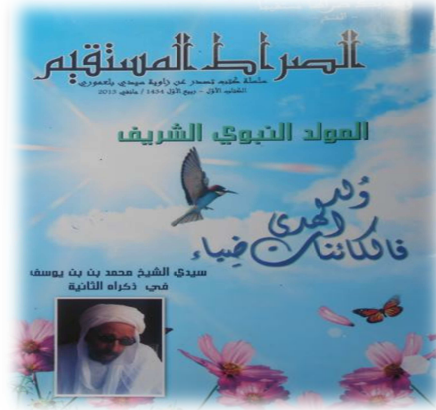
زاوية سيدي بلعموري"³ بولاية البويرة

تعالج مواضيع خاصة بالزاوية من

جهة ومواضيع أخرى تاريخية، ثقافية،

وتربوية من جهة أخرى، والجميل فيها

أنّها تفسح المجال لشريحة الأطفال، من



خلال قصص تجسّد الأخلاق والقيم السّامية على شكل عبر، وهي أيضا مجلّة محكمة علميّة موضوعيّة.



2/1 المكتبات: هي أيضا تؤدّي دورا

فعّالا؛ بحيث تعمل على:

- تثقيف الطّلبة وتوسيع آفاقهم؛
- غرس ثقافة المطالعة، وحبّ القراءة؛
- الحفاظ على الموروث الدّيني والوطني.

وقد كانت المكتبة الخاصّة بالزاوية تحوي مؤلّفات ومخطوطات في مجالات الفقه، السنّة، وعلوم الدّين فقط لكنّها اليوم

تفتّحت على باقي العلوم، مثل المكتبة الوقفيّة بزاوية سيدي بلعموري والتي تتّبع نظاما عصريّا "مع شرط أن لا يخرج الكتاب من المكتبة؛ فإذا أراد طالب علم أو مطالع أو باحث أن يمكث في الزاوية حتّى يتمّ بحثه، فله ذلك، وإن أراد أن يصوّر بالوسائل الحديثة، فله ذلك"⁴ وبنفس الطّريقة حافظت كلّ من مكتبة زاوية طولغة

ومكتبة زاوية الهامل على موروثها من الضّياع.



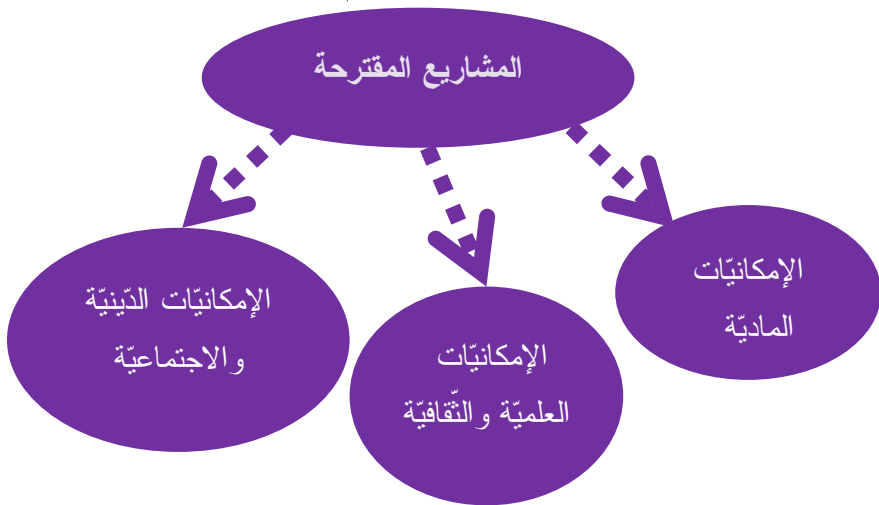
3/1 المنبر القاسميّ: أطلّقت

زاوية الهامل "ويعتبر امتدادا لرسالتها العلميّة والتّربويّة؛ حيث تستضيف لفعاليّاته نخبة من أهل العلم ورجال الفكر... يتناولون مواضيع تتّصل بالواقع الجزائريّ بوجه خاص، وواقع الأمّة الإسلاميّة

بوجه عام⁵ فهو فضاء للفكر الحرّ، تُناقش فيه القضايا بكلّ موضوعيّة، ودون تعصّب تُطرح فيه كلّ الآراء والأفكار ليخلص في الأخير إلى نتائج وتوصيات.

4/1 التفتّح على المؤسسات الثقافيّة: وهي خطوة مهمّة لخلق التّواصل والتّفاعل مع المجتمع، وقد قامت بعض الزّوايا بخوض تجارب مع هذا النوع من المؤسسات، كزاوية سيدي بلعموري في البويرة؛ والتي عقدت اتّفاقيّة مع مركز التّكوين المهني، لتزويد طلبتها بمهنة ما في الحياة.

تعتبر هذه الإنجازات خطوة كبيرة في مسار الطّريقة الطّويل؛ لتحقيق أهدافها التي عقدت العزم على تحقيقها من خلال مشاريع مستقبلية، شرعت في تنفيذ بعضها وتروم تحقيق بعضها الآخر مع الوقت. وبعد اطلّاعنا على توصياتها وآفاقها ارتأينا تقسيمها حسب الإمكانيّات إلى ثلاثة أقسام، نفصلها حسب التّرسّمة التّالية:



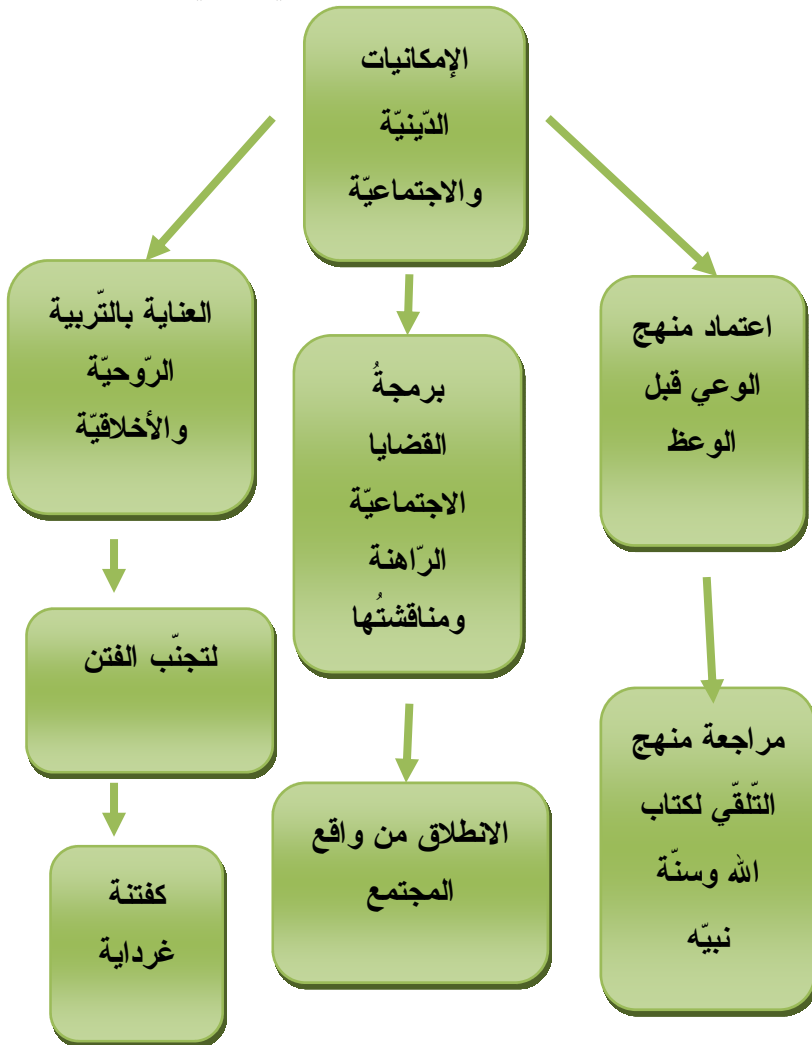
2. الآفاق المستقبلية للزّاوية الرّحمانية

أولاً- الإمكانيّات الماديّة: وتتمثّل في:

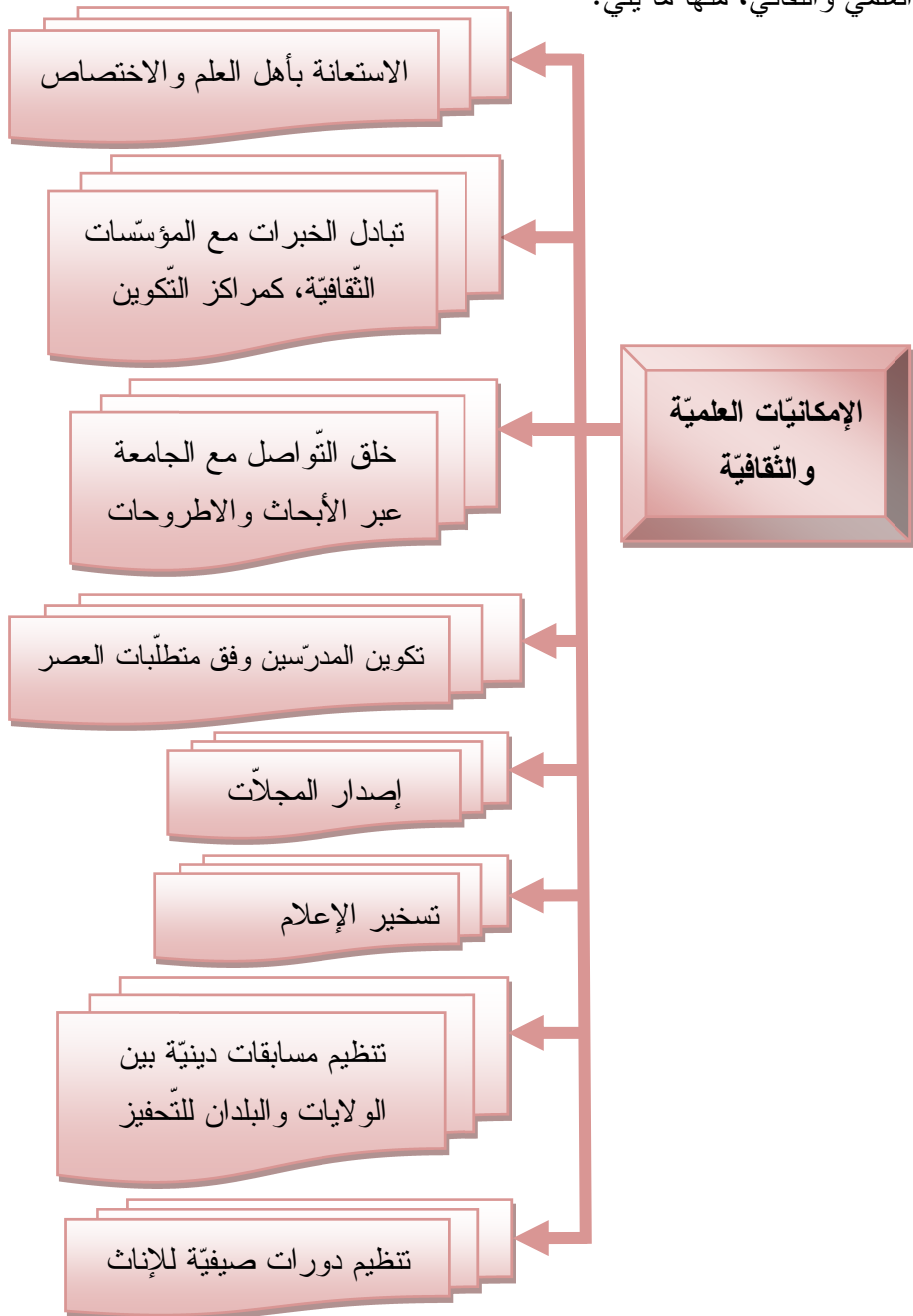
- 1- إيجاد مصادر ماليّة قارّة وثابتة؛ حتّى تتمكّن من تلبية حاجياتها وتغطية نفقاتها فالاعتماد على الهبات والتبرّعات التي يقدّمها المحسنون لم تعد كافية.
- 2- إعادة هيكلة الزّاوية بما يتماشى والمستجدّات الطّارئة على الحياة وأساليبها.

- 3- إدخال التكنولوجيا في التسيير الإداري وطرائق التدريس؛ لتوفير الجهد والوقت، وكذلك التنظيم المحكم؛ ولجذب الجيل الجديد العاشق للتكنولوجيا.
- 4- تجهيز الزوايا بكل المستلزمات، وإدراج جناح للطالبات يتوفر على الإقامة أو المبيت وكذلك النقل.

ثانيا- الإمكانيات الدينية والاجتماعية: نلخصها في ما يلي:



ثالثاً- الإمكانيات العلمية والثقافية: وهي كل الإجراءات المتعلقة بالمجال العلمي والثقافي، منها ما يلي:



نخلص في الأخير إلى أنّ هذه المشاريع تبقى تصوّرات مستقبلية، تسعى زوايا الطريقة الرّحمانية إلى تحقيقها، ومن جملة ما نخلص إليه أيضا نذكر بعض النقاط والتي سبق وأن ذكرها أستاذنا في التّقديم لما لها من أهميّة، وهي:

- تسير الطريقة الرّحمانية على منهج سنّي خالص؛
 - تتباعد كلّ البعد عن طقوس وممارسات الشعوذة؛
 - تتّبع منهج الوعي قبل الوعظ؛
 - تتّسم بالتّكّيّف والتّفتح على الثقافات والطّرق الأخرى.
- هذا ما وفّقنا إليه، فإن أصبنا فلنا أجران، وإن أخطأنا فلنا أجر المجتهد المخطئ عسى أن تهدوا لنا عيوبنا وشكرا.

الهوامش:

1. تنسيقية زوايا ولاية تيزي-وزو، رسالة الزاوية. الجزائر: 2014م، مطبعة les olivier، العدد 10 خاص، ص 1.
2. المرجع نفسه، ص 127.
3. زاوية سيدي بلعموري، الصّراط المستقيم. الجزائر: 2013 م، دار تديكلت، العدد 1، ص 1.
4. المرجع نفسه، ص 39.
5. "المنبر القاسمي"، الموقع: <https://ar-ar.facebook.com> ، اليوم: 02-03-2015م.

الطريقة الرَّحمانية: زاوية الشَّيخ سيدي يحيى العيدلي - أنموذجاً -

الباحثة: دليلة صاحبي



مقدمة: تُعد بجاية اسماً خالداً في تاريخ المغرب العربي بشكل عام، والجزائر بشكل خاص، أقام فيها الفينيقيون، والرومان، والوندال، والبيزنطيون خلال عصور غائرة في أعماق الماضي، وعرفها المسلمون حين أصبحت عاصمة للدولة الحمادية فقد تمتعت بجاية في ظل هذه الدولة بسمعة وشهرة واسعة، استمدتها من معاهدها الثقافية المتعددة، وتجارها الرائجة؛ فأسهمت بذلك في الحفاظ على الحضارة والهوية العربية الإسلامية للمنطقة. وكان لعهود الازدهار الثقافي، والانتعاش الفكري الذي شهدته بجاية لقرون عديدة أثر بالغ في أن تصبح قبلة العلماء وطالبي المعرفة فخرّجت العلماء، وأنجبت المفكرين والمبدعين، رجالاً ونساءً.

مضت الزوايا وكتاتيب القرآن تقاوم المحتلين، وتحرض المؤمنين على القتال وتُعدّ العدة لذلك؛ روحياً، وسياسياً، وعلمياً؛ فشهدت ربوع بجاية تفجّر ثورات عديدة من أبرزها ثورة 1871م، التي قادها المقراني والشيخ بلحداد؛ وعمره يومئذ ثمانون عاماً، يعاونه ولده عزيز ومحمد، وأتباع الطريقة الرحمانية، التي كان بلحداد أبرز

مشايخها؛ حيث طغى على قطاع كبير من الشعب الجزائري إبان عهود مقاومة الاستعمار النزوع إلى التصوّف، واتّجهت نزعتة هذه إلى إبراز المعاني الإيجابية المتمثلة في ربط الإيمان بالعمل، ويمكن اعتبار ثورة الشّيخ بلحداد التي اعتمد فيها بشكل رئيس على أتباع الطريقة الرحمانية أقوى برهان على ذلك.

وإذا كان التصوّف نزعةً تميّز بها الجزائريون في عهود الاضطهاد، وأوجدت منهم شعباً مجاهداً، قلّ مثيله في العصور الحديثة، فإنّ الزّوايا تُعتبر المؤسسات الشعبيّة التي مورست من خلالها حياة التصوّف، وتحقّقت بين أركانها تلك الرّوح الجهاديّة؛ فلم يقتصر نشاط الزّوايا على التربيّة والتّعليم، والتّحصين الثقافي والحفاظ على اللّغة العربيّة، والتّقاليد الإسلاميّة، والهويّة الحضاريّة، وإنّما تجاوز ذلك للقيام بأنشطة اجتماعيّة وسياسيّة، ولا سيّما في عهود الاستعمار. ويمكن اعتبار عام 1510م الذي سقطت فيه بجاية بأيدي المستعمر الإسباني، بداية التّاريخ الجهاديّ للزّوايا؛ ذلك أنّ العلماء وأهل الفكر، والثّقافة حين حاصروهم الإسبان، ودمروا عليهم مدينتهم ومعاهدهم، أخذوا يبحثون عن مواقع جديدة يواصلون منها رسالتهم، التي نذروا أنفسهم لها، فلم يجدوا كما قال شارل فيرو في كتابه (تاريخ المدن) أحسن من حوض الصّومام وقمم جباله، التي بقيت منيعة من الاستعمار الإسباني طيلة الفترة التي قضوها يحتلون بجاية، ولم يعتمد العلماء النازحون من بجاية على دولة لتؤسّس أو تُموّل لهم زوايا يواصلون فيها رسالتهم التعليميّة، وإنّما اعتمدوا بشكل أساس على الجهود الذاتيّة، والمساعدات العينيّة للمسلمين؛ فقد أحسنت المناطق التي التجأوا إليها استقبالهم، ورفعت من شأنهم كعلماء، والتفّ النَّاس حولهم، وساعدوهم بكلّ ما يملكون؛ بل حموهم سياسيّاً حين اشتدّت المحن وكان لذلك أثره في أن تنشأ في حوض الصومام أشهر الزّوايا، وأخطرها في تاريخ الجزائر، كمعهد ثامقرة، وزاوية شلاطة، ومعاهد بني وغيليس، وزاوية سيدي التواتي؛ التي بقيت تعمل كجامعة مرموقة لأكثر من أربعة قرون ويمكن القول بأنّ الإشعاع الثقافي الذي كان ينبعث من قصور حكّام بجاية، ومعاهدها لم يخب حين

دمرها الإسبان، وإنما انتقل إلى الوديان وأعلى الجبال ليشمل حوض الصّومام وقراه.

1 - خريجو الزّوايا: لقد أنجبت زوايا حوض الصّومام أعلاما، كرّسوا أنفسهم له، فهناك: عبد الرّحمن الثّعالبي، وأحمد بن إدريس؛ الذي تتلمذ على يديه ابن خلدون، وأحمد بن القاضي الزّواوي، والشّيخ الفقيه عبد الرّحمن الوغليسي؛ الذي انتشر تلاميذه في القرن الثّامن الميلادي في مختلف أنحاء الجزائر.

إنّ العلماء الذين تخرّجوا من هذه الزّوايا هم الذين حافظوا على الإسلام والعربيّة في الجزائر، وجعلوا من الإيمان والعقيدة قوّة فاعلة، استطاعت أن تصدّ محاولات المستعمرين اختراق الشّخصيّة الإسلاميّة وتشويهها، وكما قلنا سابقا، فقد انطلقت من هذه الزّوايا كتائب الجهاد، وتفجّرت ثورات كثيرة، ومعارك عديدة لمقاومة المستعمر؛ لذلك بقيت الزّوايا ذات قيمة تاريخيّة جهاديّة لدى المواطنين لما أدّته من دور وطني.

2- أعلام بجاية: لقد تخرّج من بجاية أعلام كثيرون في الفقه، والأدب والشعر، والطّب، والرياضيّات وغيرها... ورغم أنّ أبا العباس أحمد بن عبد الله الغبريني وضع كتابه (عنوان الدّارية) لترجمة مشايخ بجاية، من علماء القرن السادس الهجري، الذي يُعدّ من أكثر قرون بجاية ازدهارا في الحياة العلميّة والتّعليميّة، إلّا أنّه لم يأت عليهم جميعا، واكتفى بأن قال بعد أن أورد مجموعة منهم "وقد بقي خلق كثير من أهل المئنة السّادسة ممن لهم جلال، وكمال، ولكن شرط الكتاب منع من ذكرهم".

3- التعريف ببلدية ثمقرة: تقع بلدية ثمقرة بمنطقة آث - عيذل، جنوب ولاية بجاية، وسط سلسلة جبليّة ممتدّة إلى جبال ببيان شرقا، وتبعد عن عاصمة الجزائر بحوالي 230 كلم، أمّا عن القرى القريبة منها، أو بالأحرى المحيطة بها فهي: بوحزمة، امحفوضن، تشوّافث (التي تمثّل القلب النّابض للمنطقة الثّالثة إبان الثّورة والتي عولّ عليها، ووثق بها كثيرا العقيد عميروش قائد المنطقة الثّالثة، وبلغ عدد

شهادتها ما يزيد عن 87 شهيدا، ومن عقلائها المعروفين آيت مزيان محند الصديق، الذي عُرف برزاقته، وسعة معرفته، وبخاصة عدله في حلّ الخصومات بين سكان منطقة آث- عيدل) وثنسوٲ شمالا؁ وشنرة جنوبا؁ وأضرار أومازا شرقا (والذي يبلغ علوه أكثر من 1100م؁ أستمعل هذا الجبل كملاذ آمن للثوار أثناء الحرب التحريرية) وأضرار قالدمان غربا؁ وتقع البلدية على علو أكثر من 800م عن سطح البحر. وقراها ستة؁ هي: فيشير؁ بوكردوس؁ تيزي عيدل (مسقط رأس الشيخ أولحقي جعفر المدعو والمعروف بـ (أبو عبد السلام) نُفُرت؁ بوسوات.

وتمقرة بلدية عريقة؁ عُرُفت منذ القدم بزوايتها الشهيرة زاوية الولي الصالح سيدي يحيى العيدلي؁ كما تشتهر المنطقة بحمام طبيعي؁ يعالج مختلف الأمراض وكذا بإقامة سدّ تيشي حاف¹ على نهر بوسلام²؁ وازدادت المنطقة بهاءً وشموخاً حين علتها زاوية سيدي يحيى العيدلي؁ الّتي اشتهرت بتحفيظ القرآن وتعليم العلوم الدينيّة منذ منتصف القرن التاسع الهجري؁ وليس ببعيد عنها يوجد الحمام الطبيعيّ المعروف باسم الشيخ؁ والمسمّى بـ: حمام سيدي يحيى العيدلي نسبة إلى الولي الصالح؁ وقد جمع هذا الحمام بين الراحة النفسيّة؛ وذلك يعود للموقع الاستراتيجيّ الذي يحتله هذا الحمام؁ وروعة المناظر الطبيعيّة الخلابة المحيطة به؁ والذي يحتوي على مكان الاعتكاف (الخلوة) والمنطقة صنو لبني ورثيلان؁ موطن الشيخ الحسين الورثيلاني³ في العناية بالعلوم الدينيّة بمختلف فروعها.

4- نبذة تاريخيّة عن زاوية الشيخ سيدي يحيى العيدلي:

أ- نسبه ونشأته: تنتسب هذه الزاوية إلى مؤسسها الشيخ أبي زكريا سيدي يحيى بن أحمد العيدلي ولد سنة 1391 م؁ وقد تلقى تعليمه ببجاية؁ وتخرّج على يد علماء أجلاء. وسيدي يحيى العيدلي وليّ صالح من أصل شريف؁ وُلد في منطقة آث عباس؁ القريبة من منطقة إغيل- علي؁ الموجودة في أقبو؁ وقد تربّى سيدي يحيى يتيما؁ بعد أن تركه والده رفقة والدته (يمّا ربيحة) ذاهبا إلى البقاع

المقدّسة لأداء مناسك الحجّ، ولم يعد بعدها، انتقل سيدي يحيى صغيراً إلى منطقة ثمقرة برفقة والدته.

ب- **زواجه وأبنائه:** تزوّج سيدي يحيى العيدلي من سيّدة فضلى من منطقة ثمقرة، فأنجبت له ثلاثة أولاد: الأول **الجودي★**، الثاني **الواضح★**، الثالث: وهو الابن الأصغر ويسمّى **بلقاسم؛** والذي أنجب بدوره **علي والمهدي★** وانطلاقاً من أسماء أولاده سُمّيت أحياء ثمقرة، وذلك على حسب تمرّكز سلالة أحد أبنائه مثل: **آث- الجودي★، آث- الواضح★، آث- علي أوبلقاسم★، آث- المهدي.**

ج- **الدّراسة والشّيوخ:** كلّ ما يُعرف عن هذه الفترة من حياته، أنّه تلقّى تعليمه ببجاية، وتخرّج على يد علماء أجلاء، كانت بجاية قد استضاءت بنور علومهم في عهد مجدها وسؤدها، "من دون أن تبيّن المصادر أسماء شيوخه، ولا سنوات الدّراسة، ناهيك عن المواد التي درسها، ولكننا يمكن أن نخمّن أنّه تلقّى بها التّعليم على يد العلماء الأخذين على الشّيخ عبد الرّحمن الوغليسي⁴ (ت 786 هـ) وهم أنفسهم الذين أخذ عنهم الشّيخ عبد الرّحمن الثعالبي (ت 875 هـ/ 1479 م) الداخل إلى بجاية في بداية القرن التّاسع. ومنهم:

— الشّيخ أحمد بن إبراهيم البجائي (ت 840 هـ / 1434 م)؛

— الشّيخ أبو الحسن علي بن محمد الليلتي (أو البلبلي)؛

— الشّيخ أبو القاسم المشدالي؛

— الشّيخ أبو مهدي عيسى الليلتي؛

— الشّيخ أبو الحسن علي بن عثمان المانگلّاتي؛

— الشّيخ أبو الربيع سليمان الزّواوي؛

— الشّيخ علي بن موسى البجائي.⁵

د- **من تلاميذ الشّيخ سيدي يحيى العيدلي:** باشر الشّيخ سيدي يحيى العيدلي التّعليم في معهده الذي "عُرف منذ القرن التّاسع الهجري؛ أي في الوقت الذي اشتهر فيه مؤسّسه سيدي يحيى العيدلي، وقَدّم خدمات كثيرة للثقافة العربيّة الإسلاميّة

وكان قطبا جاذبا لكثير من مشهوري علماء الإسلام⁶ فلم يمضِ وقت طويل حتّى أصبحت هذه الزاوية قبلة طلاب المعارف، والعلوم من كلّ حذب وصوب، من داخل الجزائر وخارجها، بفضل ما كان للشيخ من توفيق استقطب به كلّ راغب في تحصيل العلم، وبما امتاز به من نصح للطلّبة، وإخلاص في القول والعمل؛ فتخرّج على يده جمع غفير من الأعلام، بلغت مراتبهم الدّرجات العليا في التّحصيل العلميّ. من بينهم:

- الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسيّ الفاسيّ المغربيّ: دفين مسراطه بليبيا، المشهور بزروق، والذي تولّى التّدريس في نفس الزاوية، كما عكف فيها، وتحت إشراف شيخه على كتابة كتبه؛ كشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه، ووضع فيها بعض مؤلّفاته الحكميّة الصوفيّة⁷؛
- الشيخ عبد الرّحمن الصّبّاغ: شارح الوغليسيّة للشيخ عبد الرّحمن الوغليسيّ في الفقه والتّصوّف، وشرح البردة للبوصيري⁸؛
- الشيخ أحمد بن يحيى: مؤسس زاوية أمالو⁹؛
- الشيخ الخروبي: صاحب المؤلّفات الكثيرة، منها: شرح وظيفة الشيخ سيدي يحيى العيدلي؛

- الصّوّفي الكبير الشيخ أحمد بن يوسف الملياني؛
- الشيخ بهلول عاصم؛
- الشيخ إيدير بن صالح؛
- الشيخ إبراهيم بن عمّار؛
- الشيخ عبد الرّحمن الثّعاليّ؛
- الشيخ أحمد بن عبد الرّحمن جدّ أولاد مقران: يذكره الورثيلائي بقوله: "الوليّ الصّالح... أمين بلده وهو - والله أعلم - تلميذ الشيخ سيدي يحيى العيدلي..." ويقول الخبر: ... أنّ أحمد بن عبد الرّحمن هذا رأى يوما حلّما بأنّه

خرجت من بوله نار فعبرها له الشيخ يحيى: بأنه سيكون له من أولاده من يكون من أهل الظلم والجور...¹⁰ وقد كان.

هـ- تصوفه: عاش سيدي يحيى في أواخر حياته حياة صوفية، وعُرف عنه اهتمامه بتربية نفسه وتركيتها، بترويضها على الزهد والعبادة؛ فقد اتّبع الطريقة الشاذلية الصوفية؛ بحيث قضى أربعة عشر عاما من حياته في التصوف داخل مغارة ضيقة، تُسمّى (الخلوة) تقع أعلى الجبل الذي يقع فيه الحمام (حمام سيدي يحيى العيدلي) وفي هذا المعنى أورد (علي أمقران السحنوني) قولاً استهلّ به مقاله الذي نشره في مجلة (الدراسات التاريخية) يقول فيه: "على شاطئ وادي بوسلام، في منطقة بني عيدل بين جبلي: بني عيدل، وبني عباس، بدائرة أقبو ولاية بجاية، حمام معدنيّ يسمى حمام سيدي يحيى العيدلي، وعلى بعد عدة مئات من الأمتار، وفي السقوح الوسطى لجبل بني عيدل، توجد مغارة تشتهر بأنها كانت خلوة لسيدي يحيى، وهي مغارة صغيرة، ذات مدخل صغير، وممر ضيق متعرج يفضي إلى مكان واسع قليلاً في الداخل، يمكن أن يستوعب خمسة أشخاص. ويقال إنّ هذا الممرّ له خاصية عجيبة، وهي أنّ الذي يدخل إلى المغارة وكان صالحاً وذا نية حسنة سليمة، دخلها وخرج منها من أيّ حادث، وإلاّ أُطبق عليه جانباً الممر وضغط عليه، والحقيقة أنّ الممر متعرج؛ فالذي يعرف كيف ينساب فيه دخل، وخرج بدون أيّ حادث، فإن لم يعرف تعرّض لبعض المضايقات"¹¹، وقد توفي سيدي يحيى العيدلي سنة 881 هـ الموافق لـ 1476م عن عمر يقارب خمسة وثمانين عاماً بقرية ثمقرة. وقد نُصبت له قبة موجودة إلى يومنا هذا، والتي تُعرف باسم (تقربت). ولقد اعترف له بالقبطية من لدن سيدي التّواتي، وسيدي عبد الرّحمن الثعالبي، وغيرهما¹².

6 - دور الزاوية في مقاومة المحتل: قاومت الزاوية المستعمر منذ أن دخل أرض الوطن مقاومة شديدة، وحرّضت أبنائها وكلّ السّكان على طرده ومقاومته إلى آخر قطرة من دمائهم، يقدّمون في ذلك النفس والنّفيس، انتقاماً من المحتلّين

الفرنسيين. ونظرا للدور الفعّال في الحثّ على الجهاد الذي دعا إليه شيخ الزاوية ولبي نداه السّكان؛ فقد هُدمت فرنسا مباني الزاوية، واستولت على أرزاقها وأُتلفت خزائن كتبها، ونكّلت بالقائمين على تسييرها، فعطّلت استمرارها في نشر العلم، وبثّ الوعي في النفوس، وبقيت معطّلة طيلة قرن من الزّمن.

7- تجديد بناء الزاوية وإعادة فتحها عام 1937م: وقع تجديد بناء الزاوية وإعادة فتحها في أكتوبر 1937م بمسعى بذله عقلاء وأعيان قرية تمكّرة، وبالتّجديد الجماعي مادّيّا ومعنويّا، بالأموال والمجهود العضليّ من قبل أهل القرية، وأشرف على التّعليم فيها فضيلة الشّيخ محمد الطّاهر أيت علجت، وذلك ابتداء من 1937م إلى غاية 1955م، ساعده الشّيخ الشّهيد عبد الرّحمن بن موفّق والشّيخ أحمد إقروفة في الجانب التّربويّ والعلميّ. ومن الجانب المادّي تولّت جمعية محلّيّة خيريّة رعاية شؤون الزاوية.

سجّلت الزاوية تخرّج دفعات عديدة الواحدة تلو الأخرى، ويقام لكلّ دفعة تخرّجت احتفالات دوريّة؛ فبلغت شهرتها كلّ الآفاق، ممّا جعل الجموع الكثيرة من الطّلبة يقبلون على الزاوية، الّتي أصبحت معهدًا علميًّا مرموقًا يرغبون في التّسجيل فيه، لما شاهدوه ولمسوه من وضع مريح فيها من جميع الجوانب؛ تعليمًا وإيواء. وبالأخصّ الفوز الباهر لكلّ طلبة زاوية تمكّرة في المسابقات الّتي تُجرى لهم حين يتقدّمون إلى اجتيازها على مستوى معاهد الزيتونة، وابن باديس، والكتّانية بقسنطينة، وغيرها من المعاهد.

8- من قدماء طلبة الزاوية بعد 1937م: نظرا للعدد الكبير الذي تخرّج من هذه الزاوية في مرحلتها الثّانيّة، والّتي كانت قبل اندلاع الثّورة، ومنذ سنة 1937م فإنّه يصعب تعدادهم، إلّا أنّ ما يزيد عن مئة شهيد، تتصدّر أسماؤهم اللّوحة الرّخاميّة الّتي على مدخل الزاوية؛ وهذا لدليل قاطع على الرّوح الوطنيّة العاليّة لدى طلبة الزاوية، والتّشبّث بالروح الجهاديّة، والتّضحّيّة في سبيل الوطن والإخلاص له، والإيمان الثّابت في نفوس طلبة هذه الزاوية المجاهدة. فلقد التحق

كلّ طلابها بالثورة الذين كانوا إطاراتها العسكرية، والسّياسيّة في الدّاخل والخارج وعلى سبيل المثال لا الحصر أذكر:

- الشّيخ طاهر أيت علجت وهو ابن المنطقة؛
- المرحوم العلّامة النابغة الوزير السابق مولود قاسم نايت بلقاسم رحمه الله؛
- الدّكتور محمد الشّريف قاهر؛
- العقيد محند الطّاهر بوزغوب وزير الصّناعة سابقا؛
- العقيد الطّاهر زقور؛
- الشّيخ أولحقي جعفر المعروف بـ (أبو عبد السلام) المفتي الجزائريّ المعروف في الأوساط الجزائريّة.

فكما كان طلبتها إيطارات في مختلف هياكل الثّورة التحريريّة، كانوا كذلك إيطارات قامت على كواهلهم الدّولة الجزائريّة بمختلف دواوينها، ومؤسساتها الرّسميّة، والإعلاميّة، والدّبلوماسيّة، والقضائيّة والتّعليميّة.

8- العدوان الفرنسيّ على الزّاوية سنة 1956م: نظرا للموقف الذي اتّخذه شيخ الزّاوية محمد الطّاهر أيت علجت (أطال الله في عمره) وطلبتها اتّجاه الثّورة إذ كانوا من طليعة المناضلين في صفوف الحركة الوطنيّة قبل الثّورة التحريريّة. ونظرا للعناية الفائقة التي كان العقيد عميروش (رحمه الله) يوليها لهذه الزّاوية وكذلك للتّجنيد العام الذي شمل كلّ طلبة الزّاوية في صفوف الثّورة؛ فإنّ المستعمر الفرنسيّ لم تكن عيونه وآذانه بالغافلة عمّا كان يجري فيها من نشاط يهدف إلى التّوعيّة والتّعليم والتّكوين؛ إذ كان يتتّبّع كلّ مجريات الأمور على مستوى هذه الزّاوية، فأطلق عليها تسمية خلية الزّنابير، فوجّه لقتلها ما يزيد عن ستّ عشرة طائرة مقبلة لتُفرغ على الزّاوية، وعلى قرية تمقرة نيرانها وقنابلها المدمّرة والمحركة طيلة يوم كامل من أيام أوت 1956م، لتعاد العمليات مرّات ومرّات فخرّبت مرافقها، وهدّمت مكتبتها العامرة، وأتلفت مخازن تموينها المليئة بالمؤن كالزّيت والحبوب.

9- تجديد بناء الزاوية وإعادة فتحها بعد الاستقلال: بعد أن جاء النصر للجزائر أعاد سكان القرية بناءها عام 1968م، فأقبل للتعلّم فيها العديد من الطّلبة من داخل الوطن وخارجه، كما باشر التّعليم فيها أساتذة كبار من داخل الوطن وخارجه، وبخاصّة من الأزهريين، فأعطت المثل والقوة لغيرها من الزّوايا في الوطن، بما كانت تقدّمه من نتائج باهرة بالفوز في الامتحانات التي تُتظّم على مستوى معاهد التّعليم الأصليّ، وارتفع التّعداد العام للطّلبة ليلبغ خمسمئة طالب أو يزيدون. كان الإشراف العام للجنة المحليّة الخيريّة، والإدارة للشيخ أحمد إفروفة (رحمه الله) كما كان عدد المدرّسين الأزهريين سبعة عشر أستاذًا من مختلف العلوم.

ونكبت الزّاوية بقرار إلغاء التّعليم الأصليّ الذي كانت تحت نظامه، وشملها الإلحاق بوزارة التربية الوطنيّة، التي استغنت عن الزّاوية، لتبقى معطّلة لمدّة سنة كاملة. وفي سنة 1979م تمّ تجديد عمارتها، وستبقى إن شاء الله عامرة إلى ما شاء الله.

10- الوضع الحاليّ للزاوية: تتولّى زاوية الشيخ سيدي يحيى العيدلي الإنفاق على الطّلبة تمويّنا وإقامة، رغم محدوديّة مواردها المتمثّلة في تبرّعات المحسنين وإعانات رمزيّة من الشّؤون الدّينيّة والأوقاف، ومن ولاية بجاية، وبسبب ضعف الإمكانيات الماديّة؛ فإنّ الزّاوية عاجزة عن تلبية جميع طلبات التّسجيل التي تتهاطل عليها من قبل الطّلبة الذين يقصدونها من مختلف أنحاء الوطن، وعند حلول شهر رمضان يتوافد على الزّاوية من مختلف قرى الناحيّة لطلب أئمة يقيمون لهم صلاة التّراويح، كما إنّ الكثير من الطّلبة يفوزون في مسابقات الدّخول إلى مراكز تكوين إدارات الشّؤون الدّينيّة.

الهوامش:

1. تمّ الشّروع في إنجاز سدّ نيشي حاف سنة 1988م، بتمويل جزائريّ كويتي، وتعثّر المشروع أكثر من مرّة لعدّة أسباب، منها تلك المتعلّقة بتبعات حرب الخليج الأولى، ثمّ تدهور الوضع

الأمّني في البلاد، وصعوبة إيصال المواد المتفجّرة إلى مكان المشروع لإتمامه، ويعوّل على السّد أن يزود 22 بلدية واقعة على حافة وادي الصّومام بالمياه الصّالحة للشّرب، بالإضافة إلى تخصيص كمّيات لسقي مساحات واسعة من الأراضي الزراعيّة، والممتدّة على مسافة 6400 هكتار، والواقعة ما بين ولايتي بجاية والبويرة وتقدّر السّعة الإجماليّة لهذا السّد بـ 150 مليون م³.

2. التعريف ببلدية ثمّقرة. [http:// tamokra.blogspot.com](http://tamokra.blogspot.com)

3. ترجمة الوليّ الصّالح سيدي يحيى العيدلي. [http:// alborj.blogspot.com](http://alborj.blogspot.com)

4. جاءت تسميته الوغليسي نسبة إلى بني وغليس، ذكر الوانوعي نقلا عن ابن الأثير في كتابه (ذكر الأعيان في أصل عمارة البلدان والأوطان) ما يلي: "إنّ وادي بجاية من أقبو إلى تكيلات يُسمّى عند قدماء العجم وادي الصّومام، وكان خاليا من العمارة، فأتى إليه رجل يقال له: وغليس فاستوطنه، فولّد له عشرون ولدا، فتفرّعت من الأولاد الفروع وعمر كلّ واحد مكانا، فنسبت القرية إليه، والدوّار إلى أبيهم، فقبل له: بنو وغليس. وكان هذا الرجل في بدء أمره جاهلا بأحكام الإسلام، ثمّ أسلم، وحسن إسلامه وأولاده كذلك، إلّا أنّه كريم حاذق فاهم، عارف بأسبابه، فظهر أمره إلى سائر الأقطار واشتهر فضله فقصده الأشراف والعلماء، والأولياء والصّالحاء للسّكن معه في وطنه لكثرة جوده، وجود أولاده، فاجتمع عنده من الأشراف ما لم يوجد عند غيره" ينظر: علي أمقران السّحنوني "هذا الشّيخ المجهول (الشّيخ أبو زكرياء يحيى العيدلي) 881 هـ-1476م" مجلّة الدّراسات التّاريخيّة. الجزائر: 1988م، معهد التّاريخ لجامعة الجزائر، ع 04، ص 50.

5. ترجمة الوليّ الصّالح سيدي يحيى العيدلي. [http:// alborj.blogspot.com](http://alborj.blogspot.com)

6. علي أمقران السّحنوني "هذا الشّيخ المجهول (الشّيخ أبو زكرياء يحيى العيدلي) ص 31- 32.

7. ينظر: علي أمقران السّحنوني "هذا الشّيخ المجهول (الشّيخ أبو زكرياء يحيى العيدلي) ص 32.

8. "ألّفها شرف الدّين البوصيري (695 هـ - 1296 م) وهي عبارة عن نظم في مدح الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) واهتمّ علماء المغرب الإسلاميّ ذوو الميول الصّوفيّة بشرحها" ينظر: محمد محمدي "المساجد والزّوايا ببجاية ودورها في حفظ الدّين والفكر الصّوفي" مجلّة حوليات التّراث. الجزائر: 2013م، جامعة الأغواط ع13، ص10 نقلا عن: عبد الرّحمن بالأعرج، العلاقات الثّقافيّة بين دولة بني زيّان والمماليك، مذكرة ماجستير. الجزائر: جامعة تلمسان، قسم التاريخ ص172.

9. أمالو: منطقة من بني- عيـدل تقع في السفوح العليا لجبلهم المقابل لجبل أكفادو بـجـرجرة، وفيها معـهد زاوية سيدي أحمد بن يحيى وهو معـهد قديم أيضا، ومنها أسرة (فارس) الشهيرة بالمنطقة. ينظر: علي أمقران السحنوني "هذا الشيخ المجهول (الشيخ أبو زكرياء يحيى العيـدلي) 881 هـ / 1476 م"، مجلة الدراسات التاريخية. الجزائر: 1988 م، معـهد التاريخ لجامعة الجزائر العدد الرابع، ص 49.
10. المرجع نفسه، ص 45-46.
11. المرجع نفسه، ص 31.
12. ترجمة الولي الصالح سيدي يحيى العيـدلي . [http:// alborj.blogspot.com](http://alborj.blogspot.com)

الإبراهيمي فارسُ اللغةِ والبيانِ

— المقدمة: الحمد لله ذي التدبير اللطيف، والعون المُطيف، نحمده بمحامد جميلة التفويف، حسنة التأليف، مكملة التكيف، بريّة من التطفيف، حرّية بكلّ شكر منيف، وذكر شريف، وبعد،

يا سادة يا كرام، ماذا عساني أقول في فارس اللغة والبيان؛ الشيخ البشير الإبراهيمي الطنّان، فهو كتلة من العجب، فمن أين يحصل المبتدا عند الحديث عن بيانه وفصاحته، فبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق على مُلك خزائن مصر وبها استولى البشير على الذين تحلقوا حوله، ومن قرؤوا له، فهل أقلل من الكلام ذلك ما لا أستطيع؛ لأنّ الإبراهيمي ملك اللغة العربية، ونشأ في البلاغة، واحتضن البيان، وأقام الحجة بالبرهان، وأنا عنهما قصور، فإذا أقللتُ فلن أفي اللغوي البليغ حقّه؛ حيث اللغة والبيان ميدانه، وإذا أكثرْتُ فلا أقطع إلاّ بسوابق الأذهان، ولا أسلكُ إلاّ ببصائر الأبصار، فأنا لستُ من حدّاق الميدان، وتروني عاجزاً عن التبليغ أمام لغة الشيخ الهمام، ولكن ما بيدي حيلة، لا بدّ من انتهاج قاعدة نقول: خير الكلام ما قلّ ودلّ ونال. ولذا أجدني أعصر المُخض؛ لأسوق المفيد من خلال هذا القول الذي وسمته: الإبراهيمي فارسُ اللغة والبيان.

1- في وصف الشيخ: يلهمني إحساسي كلّما دفعتني الرُّغبة إلى تصفّح آثار البشير؛ فأجدها عميقة، صعبة الوصول إلى قاموسها، فأتعامل معها بالتركيز مسلّحاً بالمعاجم لاستقبال الجديد، وتارة تعجزني الكلمات، فهل كلماته شعر، كلاً كلماته نثر مسجوع لطيف، فأراه من خلالها شامخ الهامات يمشي، كما كان صاحب العمامة البيضاء، والحلة الزهراء، والعصا العقفاء، وكأنّه طود اللغة لا يهاب بل يُهاب، فيبدو شخصيةً طليعةً متجذّرة في بيئتها، متأصلةً في هويتها، تواقّة للحرية شخصيةً ترفض الاغتراب، بصيرةً بأعقاب الأمور في خطبها، مدركةً لعواقبها. في فيه فضول البلاغة ففرّقها على قرائه، ومن حوله حضور، ويُسمعون غير الحضور

ومن ذوي الفضول فلسانه أعقد من أن تحلّ شمائل سننه، فإنّ المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فالبشير إنْ نطقَ ببيان، وإنْ صالَ صالَ بجنان، فلا يقول بغير تفكير، ولا يعمل بغير تدبير، فهذا هو يقول الرأي السديد في العصر الشّديد، فيلبس لبوسه، ويتدنّثر بدثاره ويتعمّم بإحدى عماماته.

لقد كرّس الإبراهيمي حياته للإصلاح الاجتماعي، وتكوين الرّجال، كان يجوب البلاد، ويدعو إلى نبذ البدع، والتمسك بالدين الحنيف، ويؤسّس الجمعيات، أحسّ المشرق العربي بالظّروف الصّعبة التي تعيشها الجزائر، واستطاع أن ينسج علاقات متينة مع طلائع الحركات الوطنية في المغرب والمشرق، وأن يستفزّ إيجابياً مشاعر المسلمين والعرب، وما كان يحصل هذا إلّا بسلاح القلم، وتطويع العربية لمخطوط القلم، فاستعمل اللّغة العربية التي لا نجد فيها ضعف الالتزام بالمطلوب، ولا قلة الحرص على تطبيق القواعد والأحكام، رغم أنّه من أبناء عصره الذي قلّ فيه الاهتمام بالعربية وأصولها إلّا عند أبنائها الحريصين المحبّين والمنافحين، فيتمثّل لك من يفرّق بين: ماز/ ميّر/ انماز/ تميّر/ واستماز، فما ظنّك بعربية صافية كأنّك تقرأ للشّيخ الخليل، وابن السراج، وابن جني.

2- الإبراهيمي واللّغة العربية: إنّ الحديث عن فضيلة الشّيخ الإبراهيمي من جانب اللّغة والبيان مفيد وممتع وشيق، فهو علم من أعلام الجزائر، ورجل من رجالاتها الأفاض، عرّفته محافل العربية منافحاً، وهذا ما لمستّه من التّحابير التي تصفّحت بعض الأشتات في مجاميع مطبوعة سهلت عليّ الوصول إلى كنه لغته فوجدته واحداً من السّاهرين على ثغور اللّغة، فقد هيّأه القدر للتبحّر في مدوّنة العربية بتدوّقه لمصادر التّراث نظماً ونثراً، بنى إستراتيجيته على النّظر التاريخي للسلك اللّغوي، فهو يوغل لغته في صميم الأصول، ويستكنه جماليات السّرد والحكي والنّسج على المنوال الطبيعي الرّنان، حتى وجد في هذه اللّغة اقتداراً ذاتياً وتأهيلاً علمياً وانفعالاً وجدانياً حيّاشاً، فقادها لخدمة القضية، عمل على القّي بها في مدارج علوم البلاغة وفنونها اللّغوية.

إنني أمام رجل يمثل علامة في العربية؛ حيث يتعقب اللغة تعقّباً، ويدقق في اختيار الكلمات، ويميل إلى التمثيل والتوسيع في إيراد المعنى، له وقفات متلصصة على التراث والقرآن الكريم، حتى بز أصحاب الكعب العالي، وما ينطق معه أهل المشرق ذوي الشهادات؛ حيث يحاضر أمام أقطاب الفكر العربي المستنير وأرباب القلم والبيان البديع، فتخشع الأصوات وترهف له الأسماع، فكان صاحب البيان بحق فملك اللغة وأصبح حافظاً وأديباً ولغوياً بامتياز، وكما يقول عنه أبو القاسم سعد الله "... مليئة بقوة البيان وبلاغة الأسلوب، وهو أمر قامت عليه شهرة الشيخ الإبراهيمي أيضاً **كحافظ وأديب ولغوي**". فأراه أديباً بليغاً حقاً، بأنّ مقالاته قليلة الألفاظ كثيرة المعاني، فهو يخيّط الألفاظ على قدر المعاني اقتداءً بمقولة القدماء بأنّ الكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكرةً.

وإنّ تركيز حديثي في خصوصيات لغة البشير الإبراهيمي؛ هو حديث عن شيئين متكاملين في مكنى العدد والعدد، فلقد عرفته محافل الثقافة والأدب محاضراً على منابر العديد من الجمعيات، خطيباً مفوّهاً لا يشقّ له غبار، فلا غرابة أن يكون على هذا المقدار الجليل من العلم والأدب ودمائة الأخلاق، وأن يكون فخر العلم والأدب في وقته، فهو رجل قلّ نظيره في اللغة والبيان، حيث خرج من مدرسة الإصلاح، ومن أفكار ابن باديس، يستقبل السائلين بابتسام، ويغدق عليهم بعلم يشفي العليل، وبلغة بليغة قلّ أن تسمعها في زمانه، وكانت أحاديثه ومحاضراته فريدة في بابها من حيث مضمونها ولغتها، وكان صوته جهوريّاً يجلجل كالعاصفة، صوت يأسر مستمعه لفصاحته وبيانه فبلاغته لم نعهدها قبله عند الجزائريين، وكلّما يلج قاعة المحاضرات إلّا وتشرب الأعناق لتكتحل بمنظره المهيّب، وتتصوّب الأذان وتتركّز لسماع بيانه، هو هدير عاصف؛ هدير بياني تلقائي لا يتغيّر ولا يتلكأ أو يتوقّف، أُعطي موهبة لا وجود الزّمان بمثلها إلّا نادراً. كان الشيخ البشير من فرسان الخطابة والبيان، تهتّزّ له المنابر خارج الجزائر في تونس وفي مصر، فشهرته ليست ممّا يكتبه فقط، بل من قدرته الفائقة على

الخطابة؛ حيث تأتيه اللّغة وتنتال أمامه انثيالاً، وتخرج دُرراً متسلسلة طيّعة تجرّ بعضها البعض، كأنّها صف مرصوص، وتسيل الكلمات على شفثيه كالماء الزلال كما تترقرق من فمه عذبة سائغة للسامعين، ومما يزيد لها قوة حضوره الشّخصي القوي، وحديثه عن التّربية التي أعطى لها النّصيب والنّصاب باعتبارها صناعة الأجيال، وهي معمل الأفذاذ الذين عليهم الاتّكال واليوم الموعود الذي عن طريقه تحصل المناعة والتّغيير، كما هزّ بلغته الجماهير التي يشحنها بخطب رنانة بليغة تبلغ القلب؛ لأنّها تصدر من القلب، فلا مهادنة للمستعمر إلاّ بانجلاته، وموالاته المستعمر كُفر ما بعده كُفر، فلا بدّ من الجهاد مهما كثرت الصّعاب، فنصر أو استشهاد.

3 - الإبراهيمي ينماز ولا يتميّز: الإبراهيمي صنو وحده في اللّغة والبيان؛ بما يحمله من لغة يعجنها في يديه حتى كأنّي أراها ترتعد فرائصها، وبذلك أصبح مقصد الشّباب المتعطّش إلى معرفة دقائق اللّغة وما تحمله من ركام معرفي لغوي عال، وصارت دروسه معهداً تتلقّى فيه التّوجيهات الوطنية قبل التّوجيهات اللّغوية والعلمية، ومحاضراته كان يلقيها ارتجالاً، وفي المساء يعود لتقييدها مداداً، وبذلك توالى المؤلفات، ونما هذا الفنّ عنده نمواً كبيراً، حتى توفّرت له أسباب التحكّم وأتى مقدرة فنيّة، ومادة علمية وتاريخية خصبة. ولقد كان في هذا المجال فارس الميدان بلا منازع؛ يتّخذ اللّغة عنواناً لتلك العوارض والأحداث والوقائع، فيكشف عنها بوصف مبدع بليغ، فهو ليس من دعاة الإصلاح فقط، بل من دعاة التّجديد والتّطوير اللّغوي والأدبي، ونراه يتأثّر بالحركة الأدبية وبمعالمها الكبرى، وبخاصّة في تونس والتي كان يتزعمها الشّيخ محمد الفاضل ابن عاشور. وهذا صفة التّميّز التي لم تحصل في زمانه، وأما صفة التمايز فقد كما كان الشّيخ مشاركاً في النّهضة الأدبية والفكرية والجهادية، فشكّل سلسلة قويّة ضمن كوكبة المصلحين الجزائريين، وهمّهم الشّعور بالوطنية والعيش داخلها، والتّحصّن وراء القومية الواسعة على نحو ما تقتضي عظمة الماضي المجيد، ماضي الأجداد النبيل، فهم

القُدوة والمَنالة في كلِّ الأعراب، فتجد في تلك النخبة الراشدة القاسم المشترك الذي يحملونه تجاه اللُّغة العربيّة على أنّها لغة الأجداد وحضارة الأجداد، فهي جزء من الكيان الذي لا كيان للجزائر بدون العربيّة.

هذا هو سيّ البشير الإبراهيمي الذي ألقى بقلمه في الجزائر، فكانت له مآرب في اللُّغة فنالها، قصد قسنطينة وتونس والقاهرة، خطّ منهاجاً في الكفاح، فلم يفصل لغته عن وطنه، فهي جزء منه، وخدمة اللُّغة هي تحرير لوطنه، فأراه يغوص في درر اللُّغة وفي عمق الألفاظ، فيعود حاملاً سجعها، وينحت العناوين ويولي شطرها الحروف لتتكامل في أمواج اللُّغة، وتتعاقد انحلالاً وارتحالاً ونضالاً واقتتالاً فكلماته كبريت محترق إذا أومض اشتعل، وهي حروف تجرّ الفعل الماضي بحكم الحبّ الذي أعطاه للعربيّة، فكانت إضافاته لطيفة في اشتياقها ومذاقها وانعتاقها وطباقتها وعناقها وتلاقيها وسباقها. فأرى فيه الشّاعر الإسباني غارسيا لوركا والذي أوصله إلى ساحة الإعدام ما كان يرده من قصائد مؤثرة عملت على التّأثير في الجمهور، وأراه يقول: "أنا ليس لديّ دبابّة ولا بندقيّة، ولديّ قلم؛ فيه أستطيع تغيير العالم" كما يتمثّل لي الشّاعر الفرنسي Voltaire فولتير الذي يقول: "ماذا عليّ إن لم يكن لديّ صولجان، أليس لي قلم". وفي مقام آخر يتمثّل لي أمير البيان شكيب أرسلان، وما كان يكتبه في مجلته (الأمة العربيّة). وها هو الشّيخ يقول: (هذا هو الصّوت الذي يسمع الأذان الصمّ، وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضة وهذه هي اللُّغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة، وهذا هو المنطق الذي يقوم القلوب الغلّف، وهذا هو الشّعاع الذي يخترق الحُجب والأوهام).

— الخاتمة: إنّ البشير الإبراهيمي أحاط بالبلاغة من معاقلها، وتأنّب أوجاع الآخرين من خلال ما يصعد من كلماته، فقد أسهم في جوانب إيجابية في ممارسة الإبداع اللغوي، وخاصة في الكتابة النثرية، فإنّك تقف أمام شاعر كبير ينثر شعره وينسجه في مقامات يريد منها المتعة والتبسيط والتغيير، بالإضافة إلى الحمولة اللغوية التي هي المقصد، فأرى محاضراته تتولّد من بساطة قرية أولاد إبراهيم

وتواصلت عبرها محاضرات جمالية عبر متاهات الكلمة المخطوطة في القاهرة وسورية، وفي أعماقه مناجم الذهب التي تنتثر وتتواصل، فأراه يساير مختلف التجارب الأدبية، فكان شاهداً على الجوانب البلاغية ومُضيفاً إليها، فلا يقرّ بالبدعة التي عند الفقهاء ضلالة، فعنده البدعة إضافة، فهي في نار الإبداع خالدة، فهو مُبدع في الأساس؛ يمثل همزة الوصل لانطلاق اللغة في عنفوانها.

إخواني الحضور: تسكرنا تلك الكلمات البشيرية، وكأنّ أمّ كلثوم تقول: هل رأى الحبُّ سُكاري مثلاً، فليس ثمّ من يفوتنا، بالفعل لغته هي الحبّ مع تأجيل التنفيذ هو صوت يقيني في صمت الأوهام زدني منها يا شيخ، فأنا أحمل هذا التخصيص من عالم ينفث السحر دون مقابل، ويربّي الجمال اللغوي دون إكراه. وإنّي حاولت أن يتميّز هذا العمل بالاستحواذ والنفاذ، فكنّيت للاستظهار مُستوعباً، ولإعمال العقل مُستوثباً، والكشف عن الصواب مُستصحباً، أرجو أن يلقي ما دبّجته في حقّ الشّيخ الإبراهيمي هوّى في نفوسكم؛ فإن لم يكن كذلك، فحسبي أنّها محاولة صادقة، أكتفي من ورائها بالأجر الواحد، فعسى أنّي أجدتُ، وبالله المنالة والختام.

في رحاب البشير الإبراهيمي ♥



— المقدمة: في البداية أَسْتَفْتِحُ بِاسْمِ اللَّهِ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ يَا رَبَّاهُ، وَالرَّحْمَةُ عَلَى كُلِّ مَنْ جَعَلَنَا نَلْتَمِسُ بَارِتِيَّاحُ، وَالْفَاتِحَةُ مُهْدَاةٌ لِكُلِّ عِلْمَانَا بِلَا أَتْرَاحُ، وَبِخَاصَّةِ عِلْمَاءِ الْقَضِيَّةِ الْوِطْنِيَّةِ أَيَّامِ الْإِحْتِلَالِ الْمَرْوَاحُ، وَلِشِيُوخِنَا الْمُعَاصِرِينَ الْمِلَاحُ، نَتَمَنَّى لَهُمْ كُلَّ الْفَلَاحُ، وَالسَّيْرُ عَلَى مَنَهِاجِ السَّلَفِ الْمِفْلَاحُ. وَأُسَلِّمُ عَلَى كُلِّ الْحُضُورِ: مَسْؤُولِينَ وَمُمَثِّلِي الْمَوْسُئَاتِ الْأَكَادِيمِيَّةِ، وَإِطَارَاتِ الْوِلَايَةِ، وَأَسَاتِذَةِ، وَبَاحِثِينَ، وَطَلَابٍ، وَكُلِّ مَنْ دَخَلَ رَحَابَ جَامِعَةِ التَّطَلَّابِ، وَمَنْ يَقُومُ عَلَى خِدْمَةِ الشَّأْنِ الْعَامِّ، وَمَنْ عَيْنَاهُ لَا تَتَامُ فَلَكُمْ مَنِّي أَزْكَى التَّحِيَّاتِ أَيُّهَا الْأَنَامُ. وَاعْذِرُونِي إِنْ نَسِيتُ بَعْضًا مِنْكُمْ، فَإِنَّهُ مَسْتَتِي بَعْضُ عِلَامَاتِ الْكَبِيرِ، وَهِيَ: نَسْيَانُ مَا حَضَرَ، وَتَذَكُّرُ مَا غَبَرَ، وَانْحِنَاءُ الظَّهْرِ، وَارْتِيخَاءُ الْوَتَرِ، وَكُلُّ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى عُودٍ مِنْ شَجَرِ.

إِخْوَانِي: شَرَفَنِي الْإِخْوَةُ فِي هَذَا الْمَحْفَلِ مِنْ هُوَ أَجْدَرُ بِالتَّنَوُّرِ، وَفِي الْقَاعَةِ مِنْ أَجْدَى بِالتَّصَدُّرِ وَأَجْدَنِي فِي قَائِمَةِ الْمُحَاضِرِينَ، لِلْحَدِيثِ عَنِ الشَّيْخِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ أَمَامِ الْبَاحِثِينَ، فَأَصْدُقُكُمْ بِأَنْ بَضَاعَتِي بَسِيطَةٌ، وَعُدَّتِي لَيْسَتْ وَسِيطَةٌ، فَأَرَانِي فَقِيرَ الْكَلَامِ عَنِ شَيْخِ الْعَرَبِيَّةِ الْهَمَامِ، وَعَنِ فَارِسِ الْبَلَاغَةِ الْمِكْلَامِ، فَمَاذَا عَسَانِي أَقُولُ، وَكُلِّ مَا

أقول، لا يفي بقدر المقول، عن العالم الصّديد، عالم الجزائر المّديد، ولذا تخونني عباراتُ التّأليف، ولا كلماتي تفيه حقّ التّوصيف، كما أنّ لِنفسي فرّطاتٍ، ولا بدّ لها من سَقَطاتٍ.

أيّها الحضور: كنت أودّ أن يتصدّر شيخنا قسوم، وهو أحقّ بالتصدّر على العموم، بل كان الأجدر تطبيق مبدأ: لا يتحدّثُ صالحٌ، والأستاذ قسوم في علمه مانح، فشتان بين الثّرى والثّريا، وبعدت اليد العليا عن اليد السّفلى، ومع ذلك أطلبُ من شَيْخي السّماح؛ لاستكمال كلمات الاستفتاح، وإلاّ سأسكت عن الكلام المتّاح فهلاًّ أنتم سيدي المِسماح؟

أبدأ قولي بثلاثة أبيات قالها الشاعر مُفدي زكريا في جمعية العلماء المسلمين:

جمعيةُ العلماء المسلمين ومَنْ للمسلمين سواك اليوم مشهُودٌ
خابَ الرّجاء في سواك اليوم فاضطّلي بالعبء، مذ فرّ دجالٌ ورعدي
أمانةُ الشّعبِ شدّت بعاتقكم فما لغيركم تُلقَى المقاليدُ

— كلام عن الجمعية: هي جمعيةٌ وطنيةٌ رَفَعَت مبادئها الوطنية على تخليص الجزائر من الاستعمار، ونَشَرَ جبهات القضاء على الجهل الجبّار، وعملت على تطبيق مشروع طويلِ النّفس باستمرار؛ بالقضاء على التّجهيل والتّقير والتّجنيس والتّبعية والتّفريس. مذ ذلك الحين، وجمعيةُ العلماء لا تستكين، وتعمل دون أن تستهين، بما لها من أفكار الإصلاح، والتّربية والهداية والإرباح؛ تعمل على تنوير الشّعبِ الجزائري، وتجاهد من أجل تبليغهِ الدينَ الإسلامي، في نطاق مكارم الأخلاق، وبما لها من إغداق.

هذه الجمعية؛ قادها رجالٌ مؤمنون بقضيتهم، جادون في أعمالهم، وكانوا يحملون شعارها: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا؛ ثلاثية متعاضدة متكاملة لا تتفصل لُحمتها؛ جاءت في وَهَج النّهوض، وَهَج التّوير الإسلامي

العربي الرّضوض، من رجال أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الحميد بن باديس، ورشيد رضا، والبشير الإبراهيمي، وخير الدين التونسي... وإشعاع مؤسسات التّثوير: الأزهر الشّريف، وجامع الزيتونة العفيف.

أيّها الحضور، نقف في رحاب شهر التّراث، وقبلها احتفلنا بما هو من الميراث بيوم العلم الذي استذكرنا عبد الحميد، وصُحبه من الشّيوخ الأماجد، وتداولنا على المنابر، ندبج خطباً على المآثر، فهل كانت لنا سيرتهم مشاريع، وهل اتّعظنا بما لهم من أفكار وروائع، وما كانوا يَعنُون به من الشّأن العامّ، وما تعلّق بهم من مَهمّ.

هذا مُجملُ الكلام، بعد مُفتتح السّلام، وسيكون حديثي في شذراتِ مَقطوفات على شكل مُفضليات وقد رأيتُ أن أُلَمَحَ بمُلَحٍ من الأدب، إمتاعاً لذوي الأرب؛ لأنّ النّفسَ ملول، والأذن ذلول، فكما أنّ القلوبَ تَميلُ إلى الهوان، فابتغوا لها طرائف الحكمة يا إخوان.

تقف كلماتي في رحاب البشير الإبراهيمي المُبِين، وفي كلامه الرّصين، فألقي كلماتي بهذه المناسبة، في جامعة البشير المضيافة، وفي ملتقاها عن شخصية البشير المحلّي، وما سجّله خارجياً من تعلّي، فأقول: فعن المحلّي؛ فإنّ الإبراهيمي يحمل ثقافة رَصينة بفضل تكوينه الدّيني، فامتلك اللّغة بما كان يعمل بآليات اللّغة، نراه فيها يصول ذهاباً وإياباً، بما كان يردّده في مجالس الخطابة، وهذا ما جعله ينسج تراثيّه على منوال السّلف، حِفْظاً بما أُلِف. فتجد الإبراهيمي في مؤلّفاته: كتاب التّسمية بالمصدر + كتاب نظام العربية في موازين كلماتها + رسالة في ترجيح أنّ الأصل في بناء الكلمات ثلاثة أحرف لا اثنان... يوحي لك بأنّه موسوعة، وحافظته عجيبة، فلم تخفَ عنه مسألة، ولا نسي الحلول السّهلة، فأعجب بما يملك من ردود وبما تسدّه من سدود؟

ولقد وهب الشيخ سجايا خطابية: لسان فصيح+ شجاعة أدبية+ زاد ديني كبير+ محفوظ وفير. فأنمازَ عن أقرانه بِحَمَلٍ بلاغيٍّ مُميّز، وبصراحة نقدية، كما نقرأ عن لغته بأنه يُراعي المستويات، من حالٍ، ومقامٍ ومتحدّثٍ إليه؛ فيجمع بين اللفظ الغريب المقعوس، واللفظ المأنوس، في خرجةٍ أسلوبية يصبح الغريب مأنوساً، والمأنوسُ مطلوباً، فهوَ بلغَ القمةَ، ولم يُبالغ في تقعر اللّغة. كما نراه في بعض المقامات يضيف المَسرّات، فتتألُّ منه الأساليبُ انثيالاً، وتنزل منه البلاغةُ نزولاً لا إنزالاً، وتحسّ كأنّه يدفعها عنه، وهي تندفع إليه، فيقع التّكاملُ في البُنى ويتلاقى المعنى في المبنى.

وبفضل مقالاته الرّنانة، كان لمجلة (البصائر) الصّدى، فأضحت مدرسةً أدبيّةً لغويّةً تُحتذى، ويشتاق إليها القارئُ المنتهى قبل المبتدأ، وينتظر صدورَها بفارغ الصبر، ويحصل عليها رغم الفقر والجور، مجلةٌ مُتنوّعة عالمة، بما تحمله من لغة ساحرة، ومن بيان رفيع، ولسان سريع، فكانت مُجلى الفصاحة والبيان، وأضحت قُطوفة الجنان، في نمطها العالي، وفي بيانها الداني، ووضوحها الصّافي.

مجلة كانت قوامَ وجودنا المعنوي، وأساسَ امتدادنا الفكري والتّاريخي، وحجرَ زاوية أَمَنّا التّقافي والحضاري؛ باعتبارها السّجّل الذي يحفظ للجزائريين مَقوماتهم: التّقافية والتّاريخية والحضارية والتّراثية والنّفسية والرمزية عبر الزّمان، فهي بحقّ صَمَامُ الأمان، في ما تحمله مقولاتها من رهان، ففيها الحديثُ عن ترابط المجتمع الجزائري وتماسكه وانسجامه الاجتماعي.

مجلةٌ حصل لها الامتداد العربي والإفريقي إلى الفرنسي والأوربي، ولم يكن لها ذلك الامتداد، لولا إيمان الأعضاء الأنداد، ومن بينهم البشير المنداد، حيث كانت مقالاته عُرُوبية، مُرسّخةً للوطنية، مقدّمةً العربية، وهي لغتنا الحيّة، بل سبب الوجود ولغة الجدود، ولا بديلَ لها ولا حدود.

وعبر توظيفه لهذه اللغة الخالدة، كَسَبَ الشَّهْرَةَ العالية، وذاع اسمُه في كتب الأدباء، وفحول الشعراء ويقول عنه عبد الملك مرتاض: "إنَّه أكبرُ أديبٍ عَرَفَتْهُ الجزائرُ طوال القرن العشرين... إلى أن يصفَه **بالعَمَلَق**" وفي مقام آخر يقول عنه: "إنَّه **أميرُ البيان، ومفخرةُ الجزائر عبر الزَّمان**". وهذا ما أكسبه **المحلية** التي أعلتْ من شخصه كإنسان، ووطني، ومُخلص، وعالم. حمل سي البشيرُ المبادئَ الكبرى لرسالة الجمعية في إطار العمل على تحقيق المواطنة التي لا تكون إلاَّ بالحفاظ على التَّاريخ الوطني، والتَّراب الوطني، واللُّغة العربية، والإسلام، وبذلك عملت الجمعيةُ على إبطال مُخططات فرنسا في مَحْو المواطنة اللُّغوية، عن طريق تعميم اللُّغة العربية في التَّعليم، واستعمالها في الصَّحافة، وفي التَّأليف، وفي الخطب المُنبرية، وفي الاقتصاد، وفي مصالح المال، وفي المُعاملات اليومية. فقد قام البشير بالتدريس، وكان هذا حاله في أثواغليس، كما دعا إلى الإصلاح، وحَمَلَ همَّ المواطنة دون أفراح، بما يراه من غفلة الاندماجين، وسكوت بعض المُتقفين وتفرُّج المُتفرِّجين، ومع ذلك يفتخر، وللعربية ينتصر، وهو الذي يقول: "اللُّغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبةً، بل هي في دارها، وبين حُماتها وأنصارها، وهي مُمتدَّة الجذور مع الماضي، مُشدَّة الأواصر مع الحاضر، طويلة الأُفنان في المستقبل". ويقول شعراً في هذا المقام:

نغارُ عن أحسابنا أن تُمْتَهَنَ	والحرُّ عن مَجْدِ الجدودِ مُؤْتَمَنَ
ولغةُ العُربِ لسانٌ مُمتَحَنُ	إن لم يَدُدْ أبناؤه عنه، فَمَنْ؟

إنَّه السَّيِّدُ البشيرُ الإبراهيمي، فإذا ذُكر اسمُه في الداخل؛ تضطربُ له زوايا الإهمال، وتكايا الدَّجل، وما يعلِّقُ بها من شَطَحٍ ودُرُوشٍ وهَرُولٍ، كما كان البشيرُ يردُّ على أهل الأهواء بالتَّراجع عن أقوالهم، ويصحِّح لهم أفعالهم، وينصحُ الأُمَّةَ بالتَّوحيد، ونشدان الدين الوحيد، وطَلَبَ الدينَ الصَّحيح، في الإسلام والفقهِ الصحيح.

فانبرى يُحذّر المُسلمين من بعض الطّرق الصوفية التي تتخلّى عن الإسلام، وفي هذا خاطب أهل الطّريقة التّيجانية قائلاً "إنّ العاقل لا يتّصل نسبةً أو وصفاً إلّا إذا اعتقد أنّه يكتسب بذلك شرفاً لم يكن له، وأنتم قبل أن تكونوا تيجانيين كنتم مُسلمين أقلّم يكفكم شرفُ الإسلام حتى التمسّتم ما يكمله من هذه النّسب المتفرّقة! أم إنّ الإسلام -في نظركم- قاصرٌ على أن يصلَ بأهله إلى درجات الشّرف الرّفّعة فجنّتم تلتسمون الشّرف والرّفعة في غيره". وهكذا كان الإبراهيمي يقرأ المستقبل ويدرك مع صحّبه بأنّ مرجعية الأُمّة تحتاج إلى توحيد، في فقه وحيد، تحت إمام **خطيب**، لا إلى إمام **خطير**، ولا إلى إمام **خطيه**. كما أنّ للشيوخ دوراً، فالأحقّ أن يُصنّفوا طوراً، وعلى الأُمّة الحذر، فهناك شيخ شيخه القرآن؛ فهو عالم فألزموه. وهناك شيخ شيخه الشّيطان؛ فهو خطير فاحذّروه، وهناك شيخ شيخه الأقران؛ فهو نائم فأيقظوه، وهناك شيخ شيخه الإعلام؛ فهو مُغلّ فنبّهوه، وهناك شيخ شيخه الأعيان؛ فهو مُريد فاتّبِعوه، وهناك شيخ شيخه السّلطان؛ فهو زائد فاطرّحوه. وهكذا تفتح الجمعيةُ العيونَ، وتقول للجزائري لا تخون، عليك تحدّي المطلوب؛ لتصل إلى المرغوب، واطلب الشّهادة حياً توهب لك الحياة ضمناً.

وعوداً إلى رحاب البشير، فبعدما أمعنتُ -في بعض أعماله- النّظر، بصرتُ بأنّه عبقرى وقته، وسابقُ عَهْدِه، وطفرةٌ من طفرات الزّمان، ويا ليتها نالت المكان وللأسف كان السّراج المنير، لكنّه يضيء النورَ المبرير، لزمّن غير زمانه، ولرجالٍ دون غيره، ومع ذلك أحاطَ برسالته، وبلّغ مرغوبه. ولذا فإنّ التاريخ لا يعيد نفسه ولا يمكن أن يُجدّد جلده. إنّ البشير إذا وصفته أقول: علّامةٌ مُجدّد، فيصدق عليه ماثور "كلّ مئة (100) عام يبعث اللهُ للأمة من يجدّد لها دينها" بالفعل ظهر في أولاد إبراهيم؛ ووضعهُ سقيم، ورزقه الله لساناً يصدع بالحقّ، ويمنع الرّق، ويدمغُ الباطلَ، ويصارغُ الجاهل ويستنهض الهِممَ ويثير الأُممَ، ويتغنّى بأمجاد الماضي

والحاضر، ويعانق الأمل الباهر. إنه قائدٌ مُصلِحٌ، وإمامٌ لغويٌّ مفلحٌ، وخطيبٌ جمهوريٌّ مصقَّقٌ، ومجمَّعيٌّ علميٌّ مقننٌ. وإنَّ اللَّيْبَ بالإشارة يفهم، والإبراهيمي غنيٌّ عن كلِّ ما لا يُعلم.

وأما عالميته؛ فقد تحمَّلَ مسؤوليةَ الطَّلبة الجزائريين في الخارج، بالإضافة إلى تلك المحاضرات الوطنية والثَّورية التي كان يُلقِيها على العُمال الجزائريين في فرنسا. وتبنَّى أفكارَ تحريرِ الشَّعوب من الاستعمار، وحارب كلَّ ما يُميت بالصِّلَة إلى الاستعمار، وأسَّهم في تأسيسِ المَجْمَعِ العلميِّ العربيِّ، وكان أوَّلَ جزائريٍّ ينالُ عضويةَ مجمعي: دمشق والقاهرة. وإنَّ الإبراهيمي عندما يُذكرُ اسمُه في الخارج يرتجُّ مجمَعُ اللِّغَةِ العربيَّة بالقاهرة لفصاحته، وينبهرُ المَجْمَعُ العلميُّ العربيُّ السوري لرجاحة فكره، وتُبارك المدينةُ المنوَّرةُ آثاره، ومكةُ تأخذُ أحكامه، ويخيب الأزهريُّ الذي لا يملك مثيلَه، وتأسفُ الزيتونةُ على أنَّه لم تُنتجْ نِدَه. كما يشهد له جبابرةُ اللِّغَةِ بذكائه، وشِدَّةُ حفظه، فقال عنه (علي الطنطاوي): "إنِّي ما ذكرتُ له بيتاً إلَّا ذكرَ لي القصيدةَ وقائلها". ويقول البشيرُ عن نفسه:

وما أنا إلَّا البحرُ يَلْقَاكَ ساكناً ويلقاكَ جيَّاشاً مهوُلُ الغواربِ
لقد ذاعت شهرتهُ في فرنسا والقاهرة والشَّام والحجاز، ذاعت شهرتهُ لما يُنتجُه من أفكار، رغم أنَّه لا يحملُ القرار، ولكنه يحملُ همومَ التَّربيةِ والتَّعليم، ورَأبَ كلِّ تنلِّيم، دون أن ننسى تلك الرِّوائع التي يُدوِّخُ بها المَجْمَعيين، وبها يستثير الأزهريين، وما أدراك ما الأزهريون؛ أزهريون مُتَشَبِّعون بفقهِ اللِّغَةِ، ومُتَوَنِّحون نحو العربي من كلِّ جهة، فَبَزَّهمُ الإبراهيميُّ العالي، وما ترك لهم المكان خالي، حتى لم يصبح لهم كلامٌ في حضرته، ولا موقعٌ في جلساته؛ وبخاصَّة عندما يرفع المستوى أمامَ أهلِ المستوى؛ حيث يعودُ إلى روائعه الرَّعْدِيَّة، فتَلجُمُ الألسنةُ القوية، وتشدُّ العرقوب، وتأسرُ القلوب. فمن روائعه قولُه: "إنَّ عبيدَ الشَّهوات لا ينحرِّرون أبداً

فَلَا تُصَدِّقُوا أَنَّ مَنْ تَغْلِبُهُ شَهَوَاتُهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغْلِبَ عَدُوًّا فِي مَوْقِفٍ، ابدؤوا بتحرير أنفسكم من نفوسكم وشهواتها ورذائلها، فإذا انتصرتُم في هذا الميدان، فأنتم مُنتصرون في كلِّ الميادين". دون أن ننسى تلك المُساجلات الشعريَّة التي يُطِيع الإبراهيمي بأصحاب فذلَّكات الشعر، بل يُخرجُهم من مملكة النثر، وهم من الكثرة بـمكان، وفي منظورهم لا يُدانيهم مهما كان وتبقى الغلبة في الأخير، للشيخ البشير الأثير.

ولقد ذكرتُ رائعةً من روائعه النثرية، فإنِّي أعرجُ على بعض فذلَّكاته الشعريَّة حيث أقتطفُ أجزاءً من قصيدته الطويلة؛ وفيها حديث عن المشيخة والمدرسة، وما يُجاورهما من أشياء خاصَّة، فيقول:

وَهُوَ بِمَا تَتَوَنَّهُ خَبِيرٌ	حَمْدًا لِمَنْ جَمَعَكُمْ (فِي الْبَيْرِ)
مَا صَفَرَ الْقَطَارُ فِي أَشِيرِ	وَصَلَوَاتِهِ عَلَى الْبَشِيرِ
وَهَبَّتِ الرِّيحُ فِي أَمْشِيرِ	وَمَا جَرَى الْمَحْرَاثُ فِي الْهَنْشِيرِ
مَنْبِرَةٌ فِي الْقَصْدِ كَالْهَلَالِ	وَهَذِهِ بَرَاعَةٌ اسْتَهْلَالِ

وفي مقام آخر يقول:

وَحَامِلِ الْأَثْقَالِ مِنْ غَطْرَسْتِي	مُؤَدِّبِ الصَّبِيَّانِ فِي مَدْرَسْتِي
إِذْ طُمِسَتْ مِنْ جَانِبَيْهَا الْأَحْرَفُ	مَسْكَنُهُ فِي زَنْقَةٍ لَا تُعْرَفُ

وفي مقام آخر يقول:

كَأْسٍ مِنَ التَّائِي اللَّذِيذِ قَدْ حَلَا	أَبْدَأُ بِالْأَكْلِ مُصْلِيًّا عَلَى
مِنْ وَاقِعٍ فِي صَحْنِهِ وَطَائِرٌ ¹	وَأَفْتَحُ الْجُلْسَةَ بِالْفَطَائِرِ

وإنِّي لا أَسْتزِيدُ، فالوقت يحتم علينا عدم المزيد، فقد جُلْتُ بالافتتاح بما فيه الكفاية، ولا نحتاج إلى كلِّ الدراية، وسيدخل زملائي في عُقْمِ الرَّجْلِ، وقد يَقْبِضُونَ عَلَى الْوَجَلِ؛ لأنَّ الرَّجْلَ محيط، يستوعب كلَّ ما يُقال ولا يُحاط، فأجدُ هذا

المحيط لا تفيه المحاضرات، ولا تسدّه المُلتقيات، وكفي أننا نعمل على أمثال هذه اللقاءات، التي نكتفي فيها ببعض الإشارات.

وليسمح لي الحضور، في ما لمسوه من جسور، وأقف هنا دون تجاوز الحدود كي لا تأتيني الصدود، وينتهي كلامي المباح، قبل أن يعلن شهريار ختام الافتتاح وقد تسبقه شهرزاد إلى رفع المكروفون، إن لم تُمنشِرني في السمّرتفون.

— **الخاتمة:** وفي الختام أقول: رُحماكُم يا عظماء الأمة، يا أيّها الخالدون لا تموتوا، نحن بحاجة إلى الباديسي والإبراهيمي والورثلاني والميلي والعقبي والبيوضي والزواوي والسّوسسي والأحمدي والشّيباني والفضلاني والمطاطلي، أفلا تعودون؟! خابَ هذا الزمانُ إن لم تكنْ نخبةٌ تكمّلُ عملَ السلف، فأين مقولة "خيرُ خَلَفٍ لِخَيْرِ سَلَفٍ" أينَ الغرسةُ الخضراءُ التي تركّتها تلكَ التّلةُ النّجباءُ التي خلّدت بأعمالها، أفلا تكونون أنتم أيّتها الطّالبات والطّلبة، كونوا ولا تخافوا، فيا أبناء الجزائر، كونوا أو لا تكونوا، كونوا شباباً طامحين، كونوا إنييين مُحِبّين، ففي البداية يتجاهلونكم، ثمّ يستهزئون منكم، ثمّ يُحاربونكم، ثمّ تنتصرون. كونوا دائماً معطائين، ولو تجحدون، كونوا مُنتجين ولو تنقّدون، فهل عقرتِ الجزائرُ على ألاّ تستكملَ فيها الحلّقات، وهل يُعقل ألاّ تأتي فيها السّلسلات؟

إنّ الأملَ معقودٌ فيكم وعليكم، فأنتم الحاضرُ، وأنتم الغدُ. وأنتم جمعيةُ العلماء من القسومي والطالبي والرّزّيقي والبوسني والجيدلي والفضيلي... نروم منكم التّوجيهَ لفعلٍ وجيه، ومشروعٍ صحيح، لمستقبلٍ ربيح. فلا نعدمُ بأنّ فيكم رجالاً أكفّاء، وأنّ فيكم من الأصفياء، فننتظر منكم المنهاج، لهذا الشّباب الوهاج، كما لا نعدمُ بأنّ الحياةَ في استمرار، وأنّ الخيرَ مدارر، بما حبّلت به جامعاتنا من نخبة واعية، وجمعيات واعدةٍ فأنعِم بالجميع خيراً! واستبشّرْ بهم فالأ.

أَيُّهَا الْجَمْعُ الْكَرِيمُ؛ أَعْضَاءَ جَمْعِيَةِ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْجَزَائِرِيِّينَ، مَسْؤُولِينَ
أُسَاتِذَةً، وَطَلَبَةً جَامِعَةِ الْبَشِيرِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ، شَرَفٌ عَظِيمٌ، وَمَفْخَرَةٌ كَبِيرَى لَكُمْ، وَلِهَذِهِ
الْجَامِعَةُ أَنْ تُسَمَّى بِالْعَلَامَةِ الشَّيْخِ الْبَشِيرِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ، شَيْخٌ يُذَكَّرُ بِخِصَالِ الْعَالَمِ
وَالْتَّقَى وَالْوَرَعَ وَالنِّضَالِي، افْتَخَرُوا بِمَنَاقِبِ هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي سُمِّيتَ بِهِ جَامِعَتُكُمْ
الشَّابَّةَ، وَارْقُصُوا جَذَلِينَ بِأَنَّ الْبُرْجَ جَادَةٌ، وَاعْلَمُوا بِأَنَّ الْجَزَائِرَ لَمْ تَتَحَرَّرْ إِلَّا بِأَمْثَالِ
الْمُقْرَانِي، وَبَعْدَهُ جَاءَ الْإِبْرَاهِيمِيُّ. فَرُحْمَاكَ، رُحْمَاكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، وَبَارَكَ اللَّهُ
فِي هَذَا الْجَمْعِ الْكَالِيلِ، وَسُعدَاكُمْ بِهَذَا الْمُلْتَقَى النَّبِيلِ، وَسَلَامِي لَكُمْ فِي هَذَا الْمَسَاءِ
الْجَمِيلِ.

الهوامش:

-
- ♥ — أُعِدَّتِ الْمَدَاخِلَةُ لِلْمُلْتَقَى الْوِطْنِيِّ حَوْلَ: الْبَشِيرِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ بَيْنَ الْمَحَلِّيَّةِ وَالْعَالَمِيَّةِ. الَّذِي اِنْعَقَدَ
فِي جَامِعَةِ الْبَشِيرِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ، بِبِرْج-بوعريرج، يَوْمِي: 28-29 أفريل 2015 تَنْظِيمَ قِسمِ اللُّغَةِ
العَرَبِيَّةِ وَأَدَابِهَا.
- 1 — مَقْطُوعَاتٌ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ تَجَاوَزَتْ الثَّلَاثُمِئَةَ (300) بَيْتًا، مَأْخُودَةٌ مِنْ مَجَلَّةِ الْبَصَائِرِ
الْجُزْءِ الثَّانِي، 1940-1950.

القُطْبِيَّةُ عِنْدَ اَطْفَيْشَ

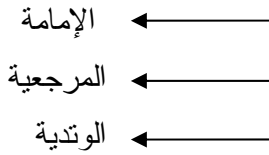
الحمد لله الملكُ المحمود الودود، ومصوّر كلِّ مولود، ومألّ كلِّ مطرود، وموطدُ الأوطاد، ومرسلُ الأمطار، ومسَهِّلُ الأوطار، وعالمُ الأسرار، وبعد؛

سأتحدّث في هذا المحاضرة التي وسمتها: **القُطْبِيَّةُ عِنْدَ اَطْفَيْشَ**، عن لقب (القُطْب) ولماذا لُقّب اَطْفَيْشَ بـ (قُطْب الأُمّة) وهل بالفعل يحمل صفات القُطْبِيَّة التي تعني: علوُّ الإمامة والآية والمرجعية والطريقة المتجلّية في الصُوفية التي تنزل صاحب اللقب المكانة العُلّيا التي تقرب إلى درجة اليقين، والتّعالّي عن سقطات البشر، كما تجيز القُطْبِيَّة للمريد نقلَ خبرات الإمام والقول بها أو فعلها وتبريرَ أفعاله بما هو جائز له دون غيره. وهذا ما أَسعى التّحقيق فيه؛ باستكناه أفكار محمد بن يوسف بن عيسى اَطْفَيْشَ العدوي الجزائري المُلقّب بالقُطْب.

ولقد استنتقتُ كلمة (قُطْب) في المعاجم اللغوية فوجدتها تعني: قُطْب جمع أَقْطاب؛ وهي حديدة في الطبّق الأسفل من الرّحى؛ يدور عليها الطبّق الأعلى. ويقال: هو قُطْب الأمر؛ أي مداره. وصاحب الجيش قُطْب رَحى الحرب؛ أي مدارها. **القُطْب**: سيّد القوم الذي يدور عليه أمرهم. كما يقال: هو كوكب بين الجَدّي والفرقدين يدور عليه الفلك. كما يعني القُطْب المحوَر؛ أي نقطة ثابتة على كرة متحرّكة على نفسها. ويقال: جاءت العربُ قاطبةً؛ إذا جاءت بأجمعها. وقُطْب السَّمَاء: نجم يدور عليه الفلك. وهذا قُطْب الدار: أساسه وسيّده.

وأما في المعاجم الصُوفية فتعني: **المرتبة والمقام**؛ وإنّها بمثابة السلطة التنفيذية للعلم الإلهي الذي يمثّل السلطة التشريعية؛ ينالها العالم وتسمّى (العالمية) وتخوّل له التصرّف في الكون، وتصرفه تنفيذي يحكمه العالم الإلهي، وتتجاوز مرتبة المَشِيخَة حيث المَشِيخَة وظيفة دنيا، محدّدة بالزّمان والمكان وينالها كثير من الخاصّة، بينما القُطْبِيَّة مرتبة **عُلّيا لا نهائية**، ولا ينالها في الزمان والمكان إلّا خاصّة الخاصّة وتُسخر العقلَ لخلق مبرّرات لأفعالها. ومنْ تُطلق عليه الكلمةُ يعدّ قُطْباً، فمرتبته في

الحقيقة المحمدية؛ لأنه القطب الذي تدور عليه حقائق الأقطاب من حيث إنه المصدر والفيض والممدّ لكل الأقطاب. كما أنّ القطبية ترتبط بصيغة (المجنوب) وهو من اصطفاه الحقّ لنفسه، وأطلعه بجانب قدمه، ففاز بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب. فالقطبية في نظر الصوفية تعني ثلاثة أمور وهي:



— مترادفات القطب: بحثت في المعاجم الصوفية ووجدتُ أنّ لها عشر (10) مرادفات، وهي: الغوث — الخليفة — قُطب الزمان — قُطب الوقت — واحد الزمان — شخص الوقت — صاحب الوقت — عبد الله — الحجاب الأعلى — مرآة الحق¹. ومن خلال هذه المرادفات أريد استتقاق دلالاتها لمعرفة مدى تمتلّها في العالم اطفَيش، وأربط ذلك بعلمه وأفعاله وخصاله، كما أقرّها شيوخ الصوفية من مثل: محي الدين بن العربي، وابن الفارض، والنفّري، والحلاج وغيرهم.

1- الغوث: في تعريفات الشريف الجرجاني يقول عن القطب: عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كلّ زمان وهو على قلب إسرائيل عليه السلام². فنجد القطب عنده يساوي الغوث. والغوث من الإغاثة، وهي الإعانة والنصرة عند الشدّة، يقول تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ﴾. يطلقها المتصوّقة على كلّ شخص يُلتجأ إليه، أو على كلّ من يقصده الملهوف لنصرته. فنجد العالم اطفَيش كما تذكر المصادر بأنّ له رقائِق ممتدّة إلى جميع قلوب الخلائق ممّن يقربونه أو ممّن يتكلّمون معه، فهو جَذاب وإنساني الأخلاق، فقد كان كريماً عطوفاً صديقاً صدوقاً. تجتمع أمام بيته جحافل المتسوّلين ومن بهم خصاصة فيغدق عليهم بما وسعه الله عليه من النعمة إضافة إلى تقديم حلول لمشاكلهم من وجهة دينية دنيوية؛ حيث يغيث النّاس في السراء والضراء، وكأنّه غيث ينزل من السّماء. وإنّ اطفَيش في هذا المجال كان السيّد الأشرف الأسمى والصيت البعيد

المرمى، في مقاسم النعمى؛ حيث جعل غيَّته نوال الدهماء، ومسّ حلاوتها الغوغاء ودامت كواكبُ سعودها تمزّق جلايببَ الظلماء.

2- الخليفة: نظر إليها المتصوّفة على أنها نيابة مجرّدة عن شخص النائب والمنوب عنه، كلّ متصرّف بالنيابة؛ فهو خليفة المنوب عنه في ما ملكه التّصرّف فيه. والخلافة عندهم تَقَرُّب إلى الولاية والإمامة، وليس المقصود هنا دلالة الخلافة النبوية؛ حيث إنّ ما يقصده المتصوّفة خلافة الإنسان في الأرض؛ على أنّه مسير بعقله ونقله، وله صفة الكمال في المخلوقات. إنّ المتصوّفة يربطونها بالولي الذي توالّت طاعته من غير أن يتخلّلها عصيان. ففيمَ كان اطفّيش خليفةً أو ولياً؟ الخلافة والولاية عنده هي معرفة الله بحسب ما يمكن المواظبة على الطاعات، وهو مجتنب للمعاصي، وبعيد عن الانهماك في الشهوات، إضافة إلى أنّه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يعمل كلّ شيء للشأن العام، وكأنّه لم يفعل شيئاً، فلا يبحث عن أكبر لذة، بل عن أشرفها. كما تمثّلت الخلافة والولاية في شخص اطفّيش في تطبيق الإيثار، فكان يؤثّر الناس على نفسه، ويقدمهم على عياله، ويؤاسيهم في السراء والضراء.

3- قُطب الزّمان: يقصد بالزّمان في توصيف المتصوّفة: ما يقتضيه الاستعداد لغير المَجْعول ويرتبط الزمان بالمقام الأعلى (السلطان) باعتبار القطب مركز الدائرة ومحيطها ومراة الحقّ، وعلى القطبية مدار العلم ومنبته، فأطفّيش فريد زمانه، ويطلب في محيطه وخارج محيطه. ومن هنا استحقّ لقب (قُطبُ الزّمان) بغرض توصيل الأفكار التي لم يستطع أهل زمانه توصيلها إلى محيطه، ولذا التفّ عليه الجمع وأسبغوا عليه لقب (القُطب) لاستحقاقه؛ فحيثما نظرت إليه غابت عنك مراتبُ أخرى، فكأنّه مكعّب سحري، فأية جهة أدركتها لم تستطع إدراك جهات أخرى. ومن هنا لقّب بقطب المغرب والمشرق. ففي المغرب كان قطباً يقصده علماء المنطقة للإفتاء، كما كان يُستشار من علماء المغرب الأقصى ومن أهل شنقيط، وفي الخارج نعرف أنّه حجّ سنة 1886م وسمع به مفتى الحرم الشريف

فقدّمه لإلقاء الدروس، فكثُر القومُ على حلّقه، ودعاه المفتي لمزيد من البقاء في بيت الله الحرام، ولما سمعَ به سلطانُ زنجبار استدعاه معلّماً ناصحاً. وهكذا كان يدور في العالم الإسلامي، ومن خلال تنقلاته أقام علاقات علمية مع كثير من أعلام النهضة العربية، وأعلام الفكر الإسلامي، وبخاصة الشيخ محمد عبده، وعلماء عُمان.

4 - قُطِب الوقت: كما رأينا فإنّ اطفَيْش فريدُ زمانه، فهو قُطْبُ وقته؛ فالوقت هو الحال القائم بالإنسان بحسب الاستعداد، أو التجلّي الإلهي بحسب استعداد الشخص فالوقت هو الحال الحاضر للعبد، الحاضر فقط دون الماضي والمستقبل. فالعالم اطفَيْش كان مهياً لفتح داره للتدريس والتأليف قبل أن تكون له الدار، وفتحها بعد أن كانت له، وأصبحت محجّ الباحثين عن العلم والإيواء والتّطلاب، كما فتح مكتبته للباحثين، وأفرغ جهده في إصلاح المجتمع، بهدف خدمة الإسلام قولاً وفعلاً، فكان يغتنم أوقاته لتفريغ معلوماته في زمانه بحسب توزيعها على جبهات: جبهة إلقاء دروس الوعظ والإرشاد كلّ صباح بعد صلاة الفجر، وجبهة التدريس من الصّباح إلى الزّوال، وجبهة استقبال الطّلاب بعد صلاة العصر، وجبهة التّأليف ليلاً.

5 - واحد الزّمان: إنّ اطفَيْش من الأفاض الذين قلّت نظائرهم في العالم الإسلامي؛ فقد لُقّبَ بقُطِب المغرب والمشرق بحكم أنّه فقيه وعالم ومفتي وصاحب عدل وحافظ متون، فلم تخفِ عنه الأدلّة الشرعية ولا أخلف الأدلّة النّقليّة، كان يقيم المسائل من خلال القرآن والسنة الشريفة، ويعتمد آراء المذاهب الإسلامية، جمع بين سعة العلم ودقة النظر، وصدق الحكم، حتى سطع نجمه أمام أترابه بعصاميته فتمكّن كلّ التّمكّن علماً وفقهاً وتصفواً؛ حيث فقه المسائل، وأدرك أسرارها ومحص صفاتها فاستحقّ لقب القُطبية المحدودة في الزّمان والمكان.

6 - شخص الوقت: إنّ القطب اطفيش كان قد شمرّ عن ساعد العمل، فجذّ في البناء التّربوي؛ حيث أسّس معهداً إسلامياً في بني يزگن بغرض إصلاح المجتمع الميزابي، ومن خلاله إصلاح المجتمع الجزائري والإسلامي، وعمل على توجيهه توجيهاً إسلامياً حنيفياً، فحملّ طلابه تبعة نشر أفكاره القطبية في بني يزگن وفي خارجها، وحملهم كذلك رسالة تبليغ المعرفة العلمية الصحيحة المصاحبة للورع العلمي الذي هو عماد الدين، وهو الكفّ عما يوجب النار؛ حيث كان يؤكّد على أنّ العلم يبنى على التقوى وإخلاص النّيّة والالتزام بالقيم الأخلاقية الإسلامية ومحاربة الجهل.

7- صاحب الوقت: هو الصديق والقرين؛ فتعني اللفظتان: شخص مفرد متعيّن في الزّمان والمكان، يتحدّ بالقطب من حيث إنّ هذا الأخير واحد في وقته، له التّحكّم في العالم بشرع زمانه (فريد زمان) ويقال:

لكلّ زمان واحدٌ هو عينه وإنّي ذاك الشخصُ في العصر أُوحدُ

هذا على وجه العموم، وأما على وجه خصوص الخصوص فتطلق الكلمتان على من جمعت له الحالات، وأقيم مقام الشفاعة، فهو سيّد القوم وصاحب الوقت وخليفة الله في أرضه. إنّ الحاج اطفيش لم يتلقّ القطبية عن غيره (عصامي) كان قطبٌ الرّحى حيث يدور حوله العلماء، فهو قلّكٌ واسع يدور عليه المريدون، خاض الكفاح معهم، ورفض معهم كلّ مظاهر الجمود الفكري والتعصّب المذهبي؛ داعياً إلى العلم النافع، وتطهير النفوس الإسلامية من الجهل، ولهذه الخصلة الكبيرة استحقّ لقب (صاحب الوقت).

8 - عبد الله: إنّ ما سوى الحقّ هو عبدُ الله، فالعبدُ الإلهي الذي اكتسبَ صفة الإلهي للصورة التي خُلقَ عليها. فعبدُ الله هو العبدُ الذي استخلصَ نفسه من عبودية كلّ ما سوى الله، فكان خالصَ العبودية. والمقصود هنا هو الإِسوةُ الحسنةُ بأخلاق الرسول ﷺ حيث حُسُنُ الخلق أحدُ مراكبِ النّجاة، ومن لا أخلاقَ له فلا دينَ له. ومن هنا فقد شمرّ اطفيش عن ساعد العمل إسوة بعباد الله العلماء العاملين؛ فالعالم

العامل هو عبد من عباد الله الذين رضي عنهم بأن مدَّهم الوعاء العلمي الفيّاض الذي لا تنتهي عجائبه وخيراته، فلذا كان اطفيش فيضاً من الإلهام العلمي في العلوم النقلية والفقهية والشرعية.

9- الحجاب الأعلى: الحجاب هو المنع والحاجز، وهو باب وطريق موصل للمحجوب به، فلا وصول إلى المحجوب إلّا من الحجاب؛ فالحجاب هو الفاصل لكنّه الموصل إلى الحقيقة، وليس الفاصل المانع. الحجاب عند المتصوّفة ما لا يمنع الإنسان من الوصول إلى مطلوبه، بل يحجبه ثمّ يصبح عين القصد؛ لأنّه الدليل والطريق الموصل للمعرفة. لقد اجتمعت في اطفيش صفات العالم العامل، وهذا ممّا مكّنه من العلم الأصيل، العلم المجاري لأحداث العصر استقاءً من الأصالة، ولذا لم يكن من أولئك النساك الزاهدين الذي تحجبهم الاستغراقات الدروشية في المَلَكُوت حتى ينقطع عن العالم وعمّا حوله، بل كان من أولئك الذين يعيشون أوقاتهم مع أهله وقربته وطلابه، يتأثّر بما يتأثّرون، ويعمل على كشف الغمّة عليهم، فكان يضيره كلّ مساس بما اتّفقت عليه الجماعة، وما أقرّته حلقة العزّابة، بل وكلّ مساس بالإسلام فلا يسكت عن باطل، ويستنكر البدع والجهل، وكان يستجيب لحركة النهضة في المشرق، بل دخل عضواً فاعلاً في كثير منها. ومن خلال أفعاله هذه يتملّل أمامي قول أبي الحسن الحصري الذي يقول: الصوفي وجده وجوّهه، وصفاته حجابّه.

10- مرآة الحق: المرآة هو الوجه المشرق للإنسان؛ حيث تعكس أفعاله الصّدق والوجوب والنصيب والحظّ، وما وجب للشيء بعين الاستحقاق. والحقّ هو الله من حيث ذاته المجردة عن كلّ وصف ونسبة، بل من حيث ألوهيته للخلق. الحقّ عند اطفيش هو العدل والإنصاف وهو صفة الإنسان الكامل، بل هو الأمر والنهي، والحقّ يتجلّى على الدوام، فلا يسقط ولا يُتنازل عنه، فمن يتنازل عن حقّه يتنازل عن واجبه، فالحقّ يعلو ولا يُعلّى عليه، والحقّ لا يحصل إلّا عند وجود خميرة صالحة؛ فحيث وجود خميرة فاسدة تعني عجبناً فاسداً، والإنسان ابن التربية.

ومن هنا كان اطفيش يركّز على التّربية التي تأتي من البيت أولاً، ثمّ تربية الكتاب ثانياً، وتختتم بتربية المدرسة، فيوصي بأنّ الصغير عليه أن يتربّى في البيت، ثمّ عند الكتاب وما يأخذه من المدرسة، ولا مانع أن يحضر جلسات حلقات العزّابة حيث يتربّى رجل الغد. وتشير المصادر أنّه كان عضواً في حلقة العزّابة؛ ومهمته إلقاء الدروس والتّوعية وتولّي غسل الأموات، وىروى عنه أنّه كثير التّردّد لبيت:

إذا أُصيبَ القومُ في أخلاقهم فأقمُ عليهم مأتماً وعويلاً

وبهذا التأكيد والتركيز على التّربية أرى اطفيش عالماً مجداً لم يصب بالحلول الذي تبناه الحلاج في أنّه الحقّ، أو ما في الجبّة إلّا الله، فهو إنسان يرى الأمور من منظور البشر بإعمال الحكمة في مقام وإعمال الحيلة في مقام، حيث الإمامة تقتضي ذلك، كما أنّ الخلوة لا تأتي بالحلول. ولهذا نراه عضواً في تشكيلات وطنية ودولية؛ بغرض إفادة المجتمع في ما وهبه الله من علم يُنتفع به.

— الخاتمة: من وراء كلّ هذا نعلم أنّ العالم العصامي اطفيش لم تحصل له القطبية إلّا بحقّ اليقين دراسةً وتدريباً وممارسةً ونُصحاً، وكذلك بعد دراسته لأمّات الكتب الدينية والعلمية والمنطقية والصوفية، حيث كان ينام في المكتبات مُتصفحاً قارئاً، ومُلخصاً سريعاً، فدرس ودرّس، ونفّح وحقّق فحصلت له القطبية العلمية باعتبار فرادته في أهل زمانه وفي مكانه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ صوفيته لم تكن صوفيةً مُتنسكة زاهدة دروشية؛ حيث كان يقف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً، وهي الأخلاق الإلهية الصحيحة، إلى جانب أعماله وأخلاقه وإيمانه القوي الذي لا يفتّر أمام الحواجز والصعوبات والتي جعلته يرفع دعوة الإصلاح والاجتهاد واستعمال العقل في النّقل، ومتابعة مجريات الأمور في بلدته بني يزكّن وبلده الجزائر، وفي خارج بلاده، والتألم من أذى الاستعمار الذي يعدّه مظهراً من مظاهر الشرك؛ حيث كان يدعو إلى محاربته بمقاطعة سلعه أولاً وعدم التعامل معه في أيّ شيء ثانياً، بل الثورة عليه في كلّ مكان وزمان ثالثاً وعدم مهادنته حيث وجد أو ارتحل رابعاً، فهو الشّرك المشرك المذنب الذي لا

يجوز التعامل معه، بل إنَّ معاداته واجبةٌ، وفي شرع الله أمره وفي سنة رسوله طاعة.

ومع كلِّ هذا فلم يهدأ من المناوئين له، وكان يصنّفهم مع جبهة الاستعمار، ولم يستكن لهم، بل كان يحاربهم بقلمه، وفي كلِّ خطبه كان يقول بالقول الناصح والكلمة الطيبة، ويدعو لهم بالهداية إلى الرشد والصواب، وغاية أمره الحلم والتواضع، وأتملّ فيه الشريف الرّضي الذي قال:

ولكن أوقاتِي إلى الحلم أَقْرَبُ	وللحلم أوقاتٌ وللجهل مثُها
ويُعجم في القائلون وأَعْرَبُ	يصول عليّ الجاهلون وأعتلي
لواعجَ ضغن أنني لستُ أَغْضَبُ	يرون احتمالي غُضَّةً ويزيدهم

وأخيراً هي كلمة أهديتها لروح أطفيش فأقولها: رُحماك أيها القطب؛ فبفضل فطرتك الدينية، وثاقبِ فطنتك العلمية، وما ميّز الله به من حنكتك وتجربتك، نلت لقب (قطب الأمة) وما جاورها من القطبية العلمية، فكم لك من منقبة تجلّى وتعظّم وكم لك في خدمة البلاد الإسلامية من مآثرة تُؤثر، فيغري الثناء عليك ويلهج، وإنه لا توجد خلّة فضلٍ بارعٍ إلّا وقد جمعتها، ولا مكنة جبرٍ إلّا مهّدت محبّتها فاجتماع المآثر سمحت بما كنت به ضئيلاً، وبذلت ما كنت عليه شحيحاً، فاستحققت جدارة إمامة؛ حيث وحدت بالإجماع، وتوليت المحامد بما شاع وذاع. فإنّ دولتنا المجيدة بقطبك مُحْتَفِيَّة، بأمثالك مُتَبَاهِيَّة وبأتباعك مُفْتَخَرَةٌ، وبمن يكتب عليك راضيةً، فسوف يقلّدك المجلس الأعلى أعلى المنازل ويمنحك وسام الفطاحل، وخذ ممّا أعمال هذا اليوم وفاخر، وزدّه إلى محامد أعمالك وكابر، ولنجعل من الصدقات الجاريات، لفيض علمك في القطبيات، ولسوق موادك الخالدات.

الهوامش:

- 1- سعاد الحكيم، المعجم الصّوفي، ط1. لبنان: 1981، ندرة للطباعة والنشر، ص 909.
- 2- الشريف الجرجاني، التعريفات، د ط. القاهرة: 1938، ص 235.

العودة إلى مسألة (ترجمة معاني القرآن) من جديد ♥

— المقدمة: قبل الشروع في كتابة هذا الموضوع تساءلت وقلت: ماذا يمكن أن أقدم من جديد في موضوع ترجمة القرآن الكريم، وقد بحث فيه مراراً وتكراراً؟ وأحجمت نوعاً ما خوفاً أن يكون كلامي من قبيل تسويد أوراق، وما أقوله قد لا يخدم الموضوع، وعند ذلك سينشطر زمانه، ويذهب رونقه، ولا يصبح له وقْرٌ في الأذان، ويقول المستمع: حضرتُ هذا الموضوع طالباً المزيد، وخرجتُ وما استزدتُ جديداً، فما الداعي للانتكاس، والعودة إلى أشياء عفا عليها الزمان. فالموضوع تاريخ من التاريخ؛ أتخّم بحثاً، وما بقي فيه ما يُقال، فهل لدينا وقت لقضائه أمام القول المكرور، وهل عقارب الساعة يمكن أن تعود للوراء؛ حيث تُضيف الجديد. فأراني من خلال هذا الذي قلتُ أدبجُ الموضوع، وأدافع عنه بصيغة مُعاصرة، وهي: العودة إلى مسألة (ترجمة معاني القرآن) من جديد.

إنّ العودة لأيّ موضوع سبق أن عُولج، ليس من الضروري أنه يكون قد عفا عليه الزمان، وقد يكون، ولكن في الحقيقة إنّ كلّ ما طُرِح قد يُطرح من جديد وهذا لعدة اعتبارات: ومنها أنّ اللغة تتغيّر وتتطوّر للأفضل، وتقنيات الشرح والسرد والتحليل تتحسن باستمرار، وأنّ المُعطيات المُعاصرة بالضرورة تحمل الجديد، وأنّ العودة إلى طُرِح الموضوع قد يدخل في باب تصحيح الخطأ، أو التنبيه على قضية كانت جانبية، وهي أساسية، أو الانتصار لرأي في مسألة خلافية، أو ترجيح رأي على آخر نظراً لحُجّيته.

وأما العودة للحديث عن ترجمة القرآن/ معاني القرآن في هذا الوقت أكثر من ضرورة؛ حيث تزداد الترجمات ظهوراً، بما فيها تلك الترجمات إلى بعض اللغات التي لا ينطق بها إلّا أقلّ من 2500 نفس، وقد تُرجم مؤخراً إلى لغة الإنترنتو Esperanto وهي لغة اصطناعية تاريخية، وعدد مُستعمليها قليل جداً، بل يمكن أن نقول ما عاد لها وجود، كما أنّ الموضوع يحمل الجديد من حيث تطرّقه

لترجمة معاني القرآن الكريم إلى البربرية/ المازيغية، وهو موضوع مُعاصر لم نجد فيه الدّراسات التي تُشبع نهمَ القارئ، وهذا لما تحظى به المازيغية في البلاد المغاربية من بحوث تعمل على إحيائها، والدّفع بها لتتال حَقّها الطبيعي والهويّاتي في مناطقها.

وإني لأقرأ باستمرار؛ بأنّ السّوق العالمية مُغرقة بالعديد من التّرجمات، ومن الأجدر مُتابعتها ودراستها وبيان مَحاسنها، وتصحيح مَفايدها، بل التّنبية إلى مَضار بعضها. ومن هنا، فإنّي أرى الموضوع لا يدخل في القول المكرور، ولا في التّأريخانية، بل يُقصد به التّدقيق والاحتراز من موضوع خطير وله قيمة مُعاصرة فعن طريق هذه التّرجمات للقرآن الكريم يتمّ نشر خطاب الله تعالى في مختلف الأُمم والشّعوب، وتجعل من لا يفهم العربية يفهم القرآن الكريم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أرى ضرورة العودة لموضوع ترجمة القرآن/ معاني القرآن لما يُحظى به القرآن الكريم من اهتمام كبير من العرب، ومن غير العرب، ومن شتّى الأجناس والديانات؛ حيث لم يُحظَ كتاب من الكتب بمثل ما حظي به القرآن الكريم من الدراسة، ومع ذلك لا تزال أبحاثٌ تُجز في تفسيره وإعجازه؛ فهو مُبهر كان وسيبقى؛ بدليل إعجازه وارتفاعه مستوىً بلاغياً خارج طاقة البشر، وخارج إمكانيات التّقليد والمحاكاة؛ لما له من ألفاظ ومعانٍ مُتّسقة بلاغية رفيعة لا تصدر عن بشر، وكلماته وجمله ذات شمول خاصّ؛ حاملة لأغراض لا طاقة لها في مقدور أيّ مخلوق. كما أنّ الاهتمام بالدين الإسلامي حمل الكثير من الباحثين على تعلّم العربية، والعيش في ديار العرب؛ للتعرف على دينهم وحياتهم، دون أن ننسى بأنّ القرآن الكريم كتاب مُقدّس، وهو هدف نبيل في العصر الحاضر للدراسات العلمية، ولوحدات البحث في العديد من مخابر العالم، وقرأتُ أنّ باحثين مُعاصرين في الغرب درسوا جزئياته، ووصلوا إلى نتائج باهرة باستعمال الحواسيب الجبّارة وهذه الأجهزة التي يُدعمها الذّكاء الاصطناعي تصل إلى عمق الكثير من الأشياء

في بحر القرآن الذي لا ساحلَ له. ومن وراء كلِّ هذا نطمح بأنَّ العودةَ إلى هذا الموضوع سوف تكون له النتيجةُ الإيجابيةُ.

وفي وقتنا المعاصر؛ تكمن أهميةُ العودةِ إلى مناقشةِ مسألةِ ترجمةِ القرآن/ معاني القرآن لما يُطرح حالياً من سجالِ مُعاصر حول الإسلام/ الإسلامية/ إسلامفوبيا وما يلصق بالإسلام من أفكار خاطئة، ولكنها برّاقة وخاطفة، وبطبيعة الحال يُلصق ذلك باللغة العربية، ويُضاف إلى ذلك ما يلحقها من أهلها من تهاونٍ وتسامحٍ ولا مُبالاة، وعدم الدّخول في الحوار العالِيّ المستوى لتوضيح ما يلصق بهتاناً على الإسلام واللغة العربية؛ حيث الإرهابُ والتطرّفُ موجودان في كلّ المجتمعات، وما تعيشه الأمةُ العربيّةُ من صراعات كان بسبب الاستعمار الذي لا يزال يُغذي النّعرات، ويُوَقِّظُ الفتنَ النَّائمة... ومن هنا لا يجب أن نغيّب دورَ وسائل الإعلام العربيّ الذي لا يزال بدائياً في تعامله مع المسألة اللّغويّة، وأشهد أنّه لم يكن في المستوى المطلوب؛ ليجلي الحقيقة كما هي، لا أن ينقل الحالات الشّاذة التي عفا عليها الزمان، ويقيم عليها الدّنيا، ومن وراء كلِّ هذا أراه لا يزال في بيّاتٍ طويلٍ لا نهارَ له. نعم إنّ ما يثار حول الموضوع من التّعصّب الديني، والعولمة، وحوار الأديان، ورفض الغرب للإسلام، ومُهاجمة المسلمين والمساجد، والمُنَاداة بعدم أسلمة الغرب، وما يُصاحب ذلك من كتابات غربية حول الإسلام على اعتبار أنّه بُعِثَ لا يُقرب والتلويح من خلال بعض تلك الكتابات بأنّ الإسلام دين إرهاب وتطرّف، وما يشاهد أو يسمع في الأعلام على مستوى بعض الدول الأوروبية التي تصوّر الإسلام على أنّه الشيطان، ويتجرّؤون على تشويه رسول الإسلام بصور تتعدّى الأخلاق، ويعدّون ذلك في حرية التعبير... كلّ ذلك كان بسبب تهاون المسلمين والعرب تجاه المسألة الدينية، فلم تحتوِ في البداية، حتّى أصبحت الآن خارج أيديهم. ومع ذلك فإنّ كلّ ما يُقال في هذا الموضوع، فإنّ له أهميةً مُعاصرةً لما يشكّله الإسلام في وقتنا الحاضر من توسّع يومي في كلّ القارات، وسعي

العقلاء إلى فهمه وإدراك علاقته بالأديان الأخرى، واستكناه سرّ ظهور الإرهاب لدى المسلمين، وما يطرح في كلّ ذلك من فهم الخصوصية الإسلامية.

وهناك نقطة هامة ومصيرية في الوقت الحاضر، وهي مسألة الصراع العربي الصهيوني؛ فيحتاج فيه العلماء العرب المترجمون أن يلعبوا دوراً كبيراً؛ فالأحرى بهم أن يعملوا على ترجمة القرآن إلى اللغة العبرية من جديد، وهذا أفضل من الاتكال على بعض الترجمات التي عملت على التحريف، وأن القرآن صالح لكلّ زمان، ولكلّ مكان، ولكلّ شخص مهما كانت جنسيته، وأنه كتاب مقدّس، وليس مقتبساً مثل التوراة والإنجيل؛ فالقرآن يؤيّد ما فيهما من أحكام، وليس ضدّهما ويأتي تأكيدي كذلك على الترجمة العلمية للعبرية للحدّ من المدّ الاستعماري المشوّه للقرآن الكريم ولتراثنا والذي ارتبطت به حركة الاستشراق العالمي؛ حيث لا يمكن تأريخ ترجمة القرآن للغات أخرى بما فيها العبرية دون ربطها بالاستشراق.

وكذلك تكمن أهمية ترجمة القرآن الكريم إلى مختلف اللغات باعتباره ديناً للعالمين فلا يمكن أن يُعرف إذا لم يُترجم إلى لغات العالمين، ويُضاف إلى ذلك ما نحن بحاجة إليه في وقتنا المعاصر من تفسير وقراءة معاصرة، وبصيغة تفسيرية جديدة؛ يحصل فيها اتّفاق النّقل بالعقل. ويمكن أن يُستشف ذلك من اتّخاذ النّبي ﷺ للترجمة وهي علامة دعوية وضرورة يتواصل بها المسلمون مع غيرهم، وينقلوا لهم لسانهم ودينهم. وورد في (مختصر الطّحاوي) عن زيد بن ثابت، أنّه قال: أمرني رسولُ الله ﷺ أن أتعلّم كتابَ يهود، فما مرّ بي نصفُ شهرٍ حتى تعلّمتُ. وقال لي رسولُ الله ﷺ "والله ما آمن يهود على كتابي، فلما تعلّمتُ كنتُ أكتبُ إلى يهود إذا كتَبَ إليهم، وإذا كتَبوا إليه قرأتُ له كتابهم"¹. وهكذا تأتي أهمية ترجمة القرآن الكريم في هذا الوقت مثملاً كان في عصر الرسول ﷺ الذي كان فيه صحابة الرسول ورسله يخاطبون وينقلون إلى النّجاشي وكسرى وهرقل والمقوقس رسائلهم ويشرحون لهم آيات الذّكر الحكيم بلغاتهم وفي لغاتهم "وعلى الرّغم من أن النّبي ﷺ خاطبَ زعماءَ الإمبراطوريات والكيانات السّياسية القائمة آنذاك -كقيصر وكسرى

والنجاشي والمقوقس وغيرهم - باللسان العربي في رسائل مَوْجَزَةٍ جامعةٍ لأسس الدعوة والإيجاب؛ فإنه ارتأى أن يُسهّل نقل تلك الرسائل إلى ألسُن من خاطبهم وأنه أدرك ﷺ ضرورة وجود الترجمة العارفين بلغات أكثر الأمم والشعوب المُصاحبة لدولة الإسلام الوحيدة في يثرب²، بله الحديث عن أن الإسلام منذ ظهوره كان قد تواصل مع العديد من اللغات؛ وكانت الدروس تلقى آنذاك بلغات أهل البلد، وما يزال هذا التقليد قائماً في بعض بلاد المغرب؛ فتلقى الدروس باللغات غير العربية، وتلقى الخطبتان فقط بالعربية. علماً أن النصّ القرآني لم يقدّس العربية في حدّ ذاتها كلغة، بل قدّس ما تحمله من مضامين الدين الإسلامي وإن كان اختيارها ليس صدفة، فالله تعالى اصطفى من اللغات العربية لما لها من مميزات لا توجد في اللغات الأخرى، وهذه آية من آيات الله في شؤونه، فلا تناقض المسألة.

1 - مُسَلَّمات لا بدّ من تأكيدها:

1/1 - نزول القرآن بلسان عربي مبين: وهذا ما تؤكّده إحدى عشرة آية، وهي:

1/1/1 - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف 2.

2/1/1 - ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ

اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ الرعد 37.

3/1/1 - ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لُسَاتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

أَعْجَبُوا وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ النحل 103.

4/1/1 - ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الشعراء 195.

5/1/1 - ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذَرُوا لَمْ

ذَكَرُوا﴾ طه 113.

6/1/1 - ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الزمر 28.

7/1/1 - ﴿كَتَبْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصلت 3.

8/1/1 - ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۚ فَصَلَّتْ 44.

9/1/1 - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۚ الشورى 7.

10/1/1 - ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۚ الزخرف 3.

11/1/1 - ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَتُؤْمِنَ لِلْمُحْسِنِينَ ۚ الأحقاف 12.

يعني هذا أن القرآن نزل باللغة العربية قطعاً ولموساً، وهذا يعني بتلك اللغة التي كانت قبل نزول القرآن فنزل بمتداول العرب، وحسب مستوياتهم ومداركهم المعرفية، فلم يحمل الطلاسم التي لا يمكن فكها.

1/2- ثبوت الإعجاز اللغوي: لقد تحدّى القرآن العرب في مسلكين هما:

1/2/1- مسلك عدم الإتيان بمثل هذا القرآن في تعابيره وأسلوبه؛

2/2/1- مسلك التحدّي بلغة عربية كانت مستعملة لدى العرب.

وهكذا، فقد جاء التحدّي لعرب بضاعتهم الكلام، فلو لم يتحدّاهم بلغتهم لما سميّ ذلك بالتحدّي، يعني إنّ القرآن جاء بلسان يفهمه العرب كلّ، وإلاّ فهو طلاسم. وأما من يقول بأنّ في القرآن كلمات أجنبية، فرأي غير مردود؛ إلاّ أنّها كلمات قديمة ودخلت في مناويل كلام العرب، فأصبحت منها دون شعور أنّها دخيلة بفعل الاقتراض والاحتكاك وطول المدة، وهذا بالقياس: من تكلم بالعربية فهو عربي فنقول: من أدخل كلمة أجنبية إلى العربية أصبحت منها.

وإنّ أصحاب التأنيل أو إعادة كلّ الكلمات الأجنبية إلى أصولها العربية (على أساس أنّ العربية أمّ كلّ اللغات) فليس له محلّ في العقل، بل هو من الكلام القومي والعاطفي، ولا يؤيّد المنطق. وهذا يجرّنا إلى الحديث عن قدسية اللغة العربية عند

هؤلاء، فلا قدسية إلا للقرآن الكريم، رغم ارتباط العربية بالقرآن، وهو ارتباط ليس عضوي، بل العربية عبارة عن غلاف مُختار، والدليل أن الدين الإسلامي والعربية دخلا إيران وتركيا وأجزاء من أورپا، وبلاد السند... بقي الإسلام فيها، ولم تنق العربية. فأين القدسية في هذا؟

3/1- الإقرار بوجود الكلمات الأجنبية، وهذا من الطبيعي بمكان، بفعل الهجرات والرحلات والتجارة والاحتكاك، فلا غضاضة أن يتم الأخذ بصورة طبيعية، ودون إحساس بالنقص، ونعلم أن المأخوذ في معظمه عبارة عن كلمات أو مسكوكات وطال زمانها استعمالها في اللسان العربي؛ حتى أصبحت لا يفرق بينها وبين الكلمات الأصلية، فهي من جسم اللغة العربية. وإذا عملنا بنظرية تصفية العربية من الدخيل يمكن أن نقول: إننا نظم القرآن ونظم العربية، ويعني أننا نطرد قسماً كبيراً من الألفاظ من لغتنا، فماذا يبقى بعد ذلك؟ ألا يشكل ذلك فراغاً واسعاً يصعب أن نسدّه بكلمات عربية أصيلة. وكان علينا الخروج من القضايا الخلافية التي لم تعمل إلا على تخلفنا. وما وقع الإجماع عليه هو أن العربية التي نزل بها القرآن الكريم كغيرها من اللغات؛ تفاعلت معها، وكانت لغة من بين اللغات القديمة؛ حيث تقلّبت في بيئات متباينة؛ تأثرت وأثرت، فأعطت كما أخذت "إذا نظرنّا - مثلاً- إلى العلاقة التي جمعت العربية بطائفة من اللغات واللهجات التي شاركتها في الأرض والأوطان، واستعملتها فئات من المجتمعات العربية الإسلامية والقوميات غير العربية التي كونت مع العنصر العربي مجتمعاً واحداً في ظلّ حضارة موحدة (كالفارسية والتركية والكردية والسريانية والآرامية والآشورية والقبطية والتركمانية والأمازيغية والإسبانية والعبرية... وغيرها) وجدنا أنّها كانت في الغالب علاقة تمتاز بقدر كبير من التسامح والتناقص وتبادل الوظائف والأدوار. ممّا جعل البيئة اللغوية المشتركة تحقق تنوعها الطبيعي التلقائي الذي لا يؤدي بالضرورة إلى التنازع والتنافر"³.

1/ 4- الإقرار بضرورة ترجمة القرآن/ معاني القرآن، باعتباره أمانة لدى العرب، ورسالة عالمية، فترجمته لازمة، وتتعاظم أهمية الترجمة بما يطفو على الأحداث من وقائع سوء الفهم والصراع بين الأديان. وإنّ التفاعل الحضاري يشجّع على التنافس في الترجمات القرآنية، فإذا كثرت الترجمات يكثر المريدون. وترجمة القرآن تأكيد نوعي على الوجود والبقاء والإضافة والهداية والإصلاح والتغيير نحو الأحسن.

1/ 5- الإقرار بأهمية الترجمة كفعل حضاري قديم، مارسه العرب منذ المأمون إلى متى، ومحمد علي والطهطاوي، فقيمة الترجمة لا تُناقش في ذاتها، بقدر ما ننظر إلى ما تقدّمه من رقي علمي وحضاري للتصدّر أو للحاق. ومن هنا فالقرآن قيمة حضارية كبرى، على كلّ البشر أن يكونوا على دراية بمحتواه.

3 - ارتباط الدين الإسلامي باللغة العربية: لقد اختار الله العربية لتكون لسان القرآن، وهذا ليس صدفة، بل هناك أسرارٌ ومُعجزاتٌ، فالعربية لغة قرآنية بامتياز وهي مختارة لكلام الله نظراً لخصوصيات لا توجد في غيرها، وهي لغة محفوظة من الخالق، ورغم أنّ كلام القرآن لم يخرج عن مألوف كلام العرب الجاري على الكثرة؛ فكلماته كلماتهم، ولكنّ أسلوبه زائد عن أسلوبهم في مسالك التعبير التي لم تكن في مألوفهم، فأعجزهم ذلك الأسلوب الفذّ، والنظم المتخَيّر، الوارد بالانسجام الصوتي في أساليبه المتنوّعة، وبخطابه العقل والعاطفة، وتأثيره في العامّة والخاصّة، وذلك سرّ إعجازه البياني. بالفعل لقد تأثّرت العربية تأثراً خاصاً بالقرآن من حيث اللفظ والمعنى، وفي أغراض الأساليب، فتلقّت هذا الأثر بصعوبة، ولكنّها استطاعت استيعابه، وذلك ما عمل على تنويعها وتطويرها واستعدادها لعوامل النمو. ولقد عمل القرآن على توحيد العربية الأدبية وجعلها لغة العالم، ولغة التّواصل بين المسلمين، وذلك ما جعلها تستوعب الجديد وبه ترتقي وتحصّف تلقّت العربية هذا الأثر العظيم، وفيها من الحصافة وعندها من الاستعداد - وأعني بذلك عوامل النّمو فيها- ما يدافع عنها خطورة الانتقال من جُحر ضب إلى مُلك واسع

الرقعة مترامي الأطراف، فلم يعجزها أن ترى ما لم تكن رأَتْ. فقامت به، واتَّسعت له مُستعينة على ذلك بالنَّحت طوراً، والتَّجوَّز تارة، والتَّعريب أخرى، فانْتصرت على ما كان خليفاً أن يعيِّبها ويقفها منه موقف الدَّليل الضَّعيف⁴، كما أنَّ الإسلام أَعَدَّ العربيةَ لتكون لغةَ العالم، فكتبت بحروفها الكثير من لغات العالم آنذاك، وما زاد في شموخها، خروجها من طَوْق شبه الجزيرة العربية إلى كلِّ قارات العالم حيث كان الدينُ الإسلامي عاملاً من عوامل الاختلاط بالأُمم الأخرى، وبخاصَّة ذات الحضارات القديمة، فأخذوا عنهم علمهم عن طريق التَّرجمة، ومن كلِّ بلاد العالم التي دخلوها عن طريق التَّجارة أو عن طريق الفتوحات الإسلامية، فكانت الهند من الدَّول التي دخلها التَّجار، فاستوطنوا فيها، ونقلوا إليها سماعة معاملة الإسلام للذمي، وقبول الآخر، والعيش معاً، فنالت شبه الجزيرة نصيباً من هذا الدين السَّمح، وعمل أهلها على قبوله ونشره على نطاق واسع. كما أنَّ المسلمين تعارفوا مع الهنود، وترجموا إبداعاتهم رغم بُعد المسافة بين شبه الجزيرة العربية وشبه الجزيرة الهندية، ولكن ليس بين المسلمين حدود، فقد التقت القلوبُ، قبل التَّقاء التَّقافات عن طريق التَّرجمة، وحكمتهم في ذلك (الحكمة ظالة المؤمن؛ حيثما وجدها فهو أحقُّ بها) "وترجموا عن الهندية الكتاب المسمَّى (بالسند هند) في علم النُّجوم و(بيافر) في الموسيقى و(كليلة ودمنة) في إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق ويعلَّ القفطي سبب قلة المترجمات عن الهندية بقوله: ولبعد الهند من بلادنا قلَّت تواليْفهم عندنا، فلم يصل إلينا إلَّا طُرف من علومهم، ولا سمعنا إلَّا بالقليل من علمائهم. ويبدو أنَّ كُتُباً أخرى في السيِّوف وتدبير الحروب والأطعمة والسِّموم كانت مترجمة لدى العرب"⁵.

مرةً أخرى، لستُ هنا في موقع تبجيل القرآن الكريم أو لغة القرآن، فهما أشرف وأعلى من كلِّ تعظيم ووصف، فالعربية لغة انحنى لعظمتها المشاهير، ومجَّدها المستشرقون، وقال فيها الشعراء شعراً كبيراً، لغة لا تتازعها فيه لغة أخرى. وأراهما (القرآن والعربية) استطاعا في ظرف وجيز تغيير مجرى التَّاريخ، أليسا

جديرين بالدراسات المتجددة، والنظر إلى القرآن كمعجزة خالدة، له صفة الثبوت في ألفاظه والتغير في دلالاته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الله تعالى أمر رسوله بالتبليغ؛ فوسيلة التبليغ هي اللسان أيّاً كان ﴿يا أيّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ المائدة 67، كما أمر بتبليغ كلامه دون كتمان بالاستناد إلى قوله تعالى ﴿إنّ الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ البقرة 159 كما أنّ الرسول ﷺ قال: "بلّغوا عني ولو آية" وهذا في مجتمع خليط، وفي وقت يتزاحم الناس على دخول الإسلام، ولا شك أنّ التبليغ يحصل بمختلف اللغات، هذا في زمن مضى، فكيف الحال في هذا الوقت الذي يتزايد فيه عدد المسلمين من مختلف الألسنة، ويتداخل وجودهم الجغرافي والثقافي؛ وهم يحملون القرآن عقيدة ورسالة عالمية "إنّ القرآن رسالة إلهية لا يستهدف ثقافة معينة، بل إنّ الله يختار قوماً ويبعث لهم نبياً، ويبعث رسالته في إطار ثقافة هؤلاء القوم لتسهيل فهمها حتى يُبلّغوا هذه الرسالة إلى الأقوام الأخرى وهؤلاء يتلقّون هذا التبليغ في إطار ثقافتهم وينقلونها إلى الآخرين، وهكذا..."⁶. كما أنّ القرآن جاء ليخاطب الناس على مختلف طبقاتهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم؛ يخاطب عقولهم وأحاسيسهم ويهزّ قلوبهم، فيجب التسليم بأهمية الترجمة المعنوية، إضافة إلى أنّ الحديث عن الموضوع في هذا الوقت قد يأتي بهدف تقويم تلك الترجمات، أو على الأقلّ أن يحدث بعض المحاذير التي تُراعى في الترجمات القادمة، إضافة إلى تخطيط لما سيأتي من ترجمات، والسعي لتطويرها وتحسينها، والاستفادة من التقنيات المعاصرة في عمليات الترجمة، وخاصة بالنسبة للمؤسسات والأجهزة التابعة للدول العربية والإسلامية.

ولا يعني أنّ ارتباط الدين الإسلامي باللغة العربية عدم ترجمة القرآن إلى لغات أخرى، بل من باب التذكير بأنّ هذا الارتباط له دلالة وجود، والعربية لغة مركز فالترجمة تجوز منها بشرط أساس؛ وهو غاية التحكم والتّضلع في اللغة المترجم

منها. فالعربية بما لها من خصوصيات، لا بدّ أن توضع ضمن نطاقها من حيث: تاريخها الطويل — قواعدها العامّة والخاصّة — أصولها النحوية — الأثر القديم المتواصل — الرّجوع إلى المدوّنات الكبرى. هذا على المستوى اللّغوي، أما على المستوى التّشريعي، فالمطلوب من المترجم فهم النّص القرآني جيّداً — معرفة الفقه الإسلامي — الاطلاع على الأصول والفروع — الإلمام التامّ بالتفاسير — معرفة التّجديد الفقهي — الوعي بقاعدة: القرآن ثابت في صوره، متغيّر في دلالاته. وعندما تتوفّر هذه الشّروط لا يمكن أن يضل المترجم طريقه؛ وهو ينقل الأثر الإلهي من العربية إلى لغة أخرى؛ عليه أن يتقنها مثل اللّغة المُترجم منها.

4 — مُبرّرات ترجمة معاني القرآن⁷: لا ننكر أنّ العربية لم تعرف الازدهار في عصورها الذهبية إلّا بفعل التّرجمة التي خرجت من بيت الحكمة الذي سنّ استراتيجية ترجمة أمات كتب الرياضيات، ثمّ الكتب العلمية، ثمّ العلوم الأدبية، وما يلحق بها من علوم إنسانية، وفي أقلّ من قرنين تُرجمت كتبُ الحكمة والعلوم اليونانية والبيزنطية والفارسية، وكان ذلك على مراحل ثلاث؛ حيث تميّزت كلّ مرحلة بخطة علمية وبمتابعة من قبل الإرادة القومية. وأما نقل/ ترجمة القرآن الكريم إلى اللّغات الأخرى فقد عالجه علماء اللّغة ورجال الفقه منذ أقدم العصور وكان مُنطلقها دينياً؛ وهو التعرّف على الدين الإسلامي من قبل غير العرب، ثمّ تطوّرت الفكرة فأصبح المراد منها عند البعض مُنافسة الإنجيل الذي تُرجم إلى كلّ اللّغات، ومن ذلك أصبح من الضّروري، بل من الحتمي العمل على ترجمة معاني القرآن الكريم إلى مختلف اللّغات بهدف الاكتشاف والتعرّف على حضارة كبيرة ومدّ الصّلات مع عالم جديد. وفي العصر الحديث وقع تنافس وتسابق كبيرين مع ظهور حركات الاتّصال بين الشّعوب، وعن طريق وسائل الاتّصال الحديثة، وكذا تبادل المعارف والبعثات، وما تحدّثه من أثر قناة الأخذ والعطاء، ولذلك شغل موضوع نقل القرآن إلى اللّغات الأجنبية حيّزاً من تفكير الأفراد والهيّات الدينية الإسلامية، بل ذهب البعض منهم أنّ ترجمة معاني القرآن الكريم إلى مختلف

اللغات واجب ليفهمه كل الناس، وأن الانغلاق على الذات ليس بأفضل من الاستلاب؛ بحيث إن القرآن أنزل بلسان عربي؛ فهذا لا يعني عدم إباحة ترجمته إلى لغات أخرى، أو يعني أنه مطلوب من كل العالمين أن يتعلموا اللغة العربية. ومن هنا فمن الضروري المساهمة في فهم ونشر الإسلام عن طريق لغات تلك الأقوام، واللغات في المقام العام وسيلة ليست إلا، وتتخذ ثلاثة أشكال للأداء: الصوت، الخط، الفعل، وكل قوم يمكنه التعبير عن ثقافته بواسطة اللغة التي يتقنها أو بواسطة الشكل الذي يتقنه، كما أن أهمية ترجمة معاني القرآن الكريم تكمن في زاوية العقيدة، ما دام الخطاب موجهاً إلى الناس كافة مهما اختلفت لغاتهم وأجناسهم في هذا العالم ﴿ما هو إلا ذكر للعالمين﴾ القلم 52. والآن في كثير من بلاد الإسلام تلقى الخطب والأدعية بغير العربية، والمهم أن تكون الحكمة في التأويل والتفسير الذي يحصل عن طريق تلك اللغات، وكيف يمكن تجسيد الحكمة من شرح/ ترجمة/ تأويل الآيات وما تحمله من حمولة دينية بصورة لا تحس فيها بنقلة فارقة، أو بالابتعاد عن النص الأصلي، أو لا يجسد النص المترجم الرغبة التي يحملها النص الأصلي (الآية).

5 - مباريات الترجمة: تذكر المصادر بأن أول الترجمات الرسمية المكتوبة والظاهرة للقرآن الكريم كانت للغة اللاتينية في حدود 1141م، وأولها تلك التي أعدها القس بطرس Pierre le Vénérable. ولقد عرفت تلك الترجمات أربع مراحل؛ حيث تميزت المرحلة الأولى من القرن IX إلى IIX بوضع الحجر الأساس، وتلتها المرحلة الثانية من اللاتينية إلى اللغات الأوروبية، والمرحلة الثالثة كانت الترجمة المباشرة إلى اللغات الأوروبية عن طريق المستشرقين، وتميزت المرحلة الرابعة بدخول العرب والمسلمين مرحلة الترجمة إلى اللغات الأوروبية وهذه المرحلة هي الأحسن؛ حيث نجد فيها الموضوعية والدقة إلى حد ما. ولقد تُرجم القرآن الكريم إلى أكثر من 600 لغة في العالم، كما نجد في لغة واحدة أكثر من ترجمة، فعلى سبيل المثال توجد أكثر من مائة (100) ترجمة إلى

اللغة الإنكليزية وحدها "عدد ترجمات معاني القرآن الكريم إلى حدّ الآن إلى الإنكليزية قارب مائة ترجمة"⁸ وهناك أكثر من أربعين (40) ترجمة إلى اللغة الفرنسية؛ بعضها ترجمات كاملة وأخرى جزئية، وبعض المصادر تقول "... تُرجم القرآن 175 مرة إلى الإنكليزية، و70 مرة إلى الفرنسية، و60 مرة إلى الألمانية"⁹. ولقد كثرت مُباريات ترجمة معاني القرآن الكريم بقوة في القرن XIX وفي القرن العشرين والواحد العشرين. كما ظهر نشاط ترجمة معاني القرآن بقوة بدءاً من القرن التاسع عشر إلى الآن وللمستشرقين نشاط كبير في هذا المجال؛ إذ عملوا جهدهم في ترجمة معاني القرآن الكريم، فقد صالوا وجالوا فيه بالدراسة والفهرسة، ولا ننسى دور الفُرس والأتراك، وهم مسلمون؛ والذين صانوا تراث العربية بالدراسة والتّحقيق والحفظ، والمُنافحة العلمية عنه في كلّ وقت، كما ينظرون إلى القرآن نظرة تقديس، وكانت التّرجمة عندهم في الرّتبة الثّانية إذا استعصى تعلّم العربية، وفي نظرهم أنّ ما لا يتمّ به الواجب فهو واجب، أي أنّ من يدخل منهم الإسلام لا بدّ أن يتعلّم العربية. ولقد تحرّج الفُرس المسلمون الأوائل من ترجمة القرآن حتى عهد الملك الساماني أبي صالح منصور بن نوح، فنمّت ترجمة مُختصرة لتفسير الطبري، وعند الفرس من يريد أن يتعلّم أمور الدين وينخرط في جادة المجتمع عليه أن يتعلّم اللغة العربية، وهي شرط من شروط تولّي الإمامة، ومرجعية آيات الله، ويعتمدون على قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم﴾ إبراهيم 4.

6 - اختلاف في وجهات الرأي: إنّ ترجمة الكتب المنزلة تتطلّب تَصَلُّعاً كبيراً من المعارف اللّغوية، وتمكّناً من دقائق المعاني وخلفياتها، وهذا الأمام مالك يقول: لو أصبتُ من الفهم غاية، ومن العلم في نهاية، فإنّ ذلك يرجع إلى أصلين: كتاب الله العزيز، وسنة رسول الله ﷺ ولا سبيلَ إليهما ولا الرّسوخ فيهما، إلاّ بمعرفة اللّسان العربي، فبه أنزل الله كتابه ونهج لعباده أحكامه، ويروى أنّ طلبته من طلاب ابن هشام طلبوا منه أن يضع لهم كتاباً في تفسير القرآن وبيان معانيه، فوضع لهم

كتاباً في اللغة أسماء (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب). والسؤال: لماذا وضع ابن هشام كتابه (المغني) لفهم القرآن الكريم؛ لأنّ فهم القرآن يعود في غالب الأحيان إلى فهم معاني الحروف والجمل، وعلاقة الكلم ببعضها، وقد أشبعها بحثاً في مؤلفه، كما أنّه وضع الحدود الفاصلة للجمل ومعانيها في العربية، كما وضعها القدامى من خلال اللسان المتداول عنهم، وقسمها إلى أربعة جمل: فعلية واسمية وشرطية وظرفية، ومن هنا فإنّ هذا الكتاب في نظره هو الذي يشكّل مفتاحاً لفهم معاني القرآن أو تفسيراً له؛ لأنّ الإعجاز في القرآن لغوي وبه تحدّى العرب أن يأتوا بمثله.

إنّ القرآن مُعجز في كلمه، مُعجز في ترجمته، ومن هنا نجد فريقين مُتخالفين:

— فريق أول يحرّم ترجمة القرآن أو معاني القرآن، بل يتشدّد في الرأي، بأنّ القرآن ليس كمثله شيء، فلا تجوز ترجمته، وترجمته تُعدّ ذنباً¹⁰، وقد أشفعوا هذا الرأي بالقراءات المتعددة للقرآن، فأَيّ قراءة تُترجم، وكيف يُعالج الفرق بين قراءة ورش عن قالون، ويعتمدون على آراء علماء يُشهِرون خلافهم للمُجيزين من مثل الشيخ رشيد رضا الذي قدّم دراسة ضد ترجمة القرآن أو معاني القرآن ووسمها: ترجمة القرآن وما فيها من المَفاصد ومُنَافاة الإسلام، إلى جانب مجموعة من المؤلّفات، من مثل:

- 1— حادث الأحداث في الإقدام على ترجمة القرآن.
 - 2— الفرقدان النيران في بعض المباحث المتعلقة بالقرآن.
- ويحصر هذا الفريق المانع رأيه في أربع نقاط:
- 1— "إنّ القرآن الكريم مُعجز لا يمكن ترجمته؛
 - 2— إنّ القرآن الكريم بحرفيته غير ميسورة؛
 - 3— إنّ التّرجمة تفقد القرآن روعة النّظم العربي والطلاوة واللذة والتأثير في النفوس؛
 - 4— إنّ في التّرجمة تَوَلّ بعض الألفاظ¹¹.

ويحتجّون كذلك بذلك الفعل للسلطان التركي (عبد الحميد الثاني) الذي منع محاولة لترجمة القرآن إلى التركية، بل منع كتابة الآيات بغير الحرف العربي وحذّر من كلّ الفتن التي قد تُسيء إلى القرآن الكريم وذلك عن طريق مراسيم (فرامانات) تمجيدية للقرآن. وسبق للأزهر في عام 1925 أن رفض دخول نسخة من القرآن الكريم مُترجمة إلى التركية إلى أرض الكنانة، بل أمر بحرق نسخ تسرّبت من هذه الترجمة إلى بلاد مصر. ويرى هذا الفريق الأول بأنّ القرآن تحدّى العرب الفصحاء بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وهذا لإعجازه البلاغي والعلمي والشرعي والترجمي، كما يشفعون رأيهم هذا بقولهم: إنّهُ إذا أُبيحت الترجمة يعني إباحة كتابة القرآن الكريم بغير الحرف العربي، وهذا مُنكر على رأي القدامى، فإنّ الزركشي قال: "هذا ممّا لم أرَ فيه للعلماء كلاماً، ويحتمل الجواز، لأنّه قد يحسنه من يقرأه بالعربية، والأقرب المنع كما تحرم قراءته بغير لسان العرب، وكقولهم: القلم أحد اللّسانين، والعرب لا تعرف قلماً غير العربي، قال تعالى بلسان عربي مبين"¹²، ويعتمد هذا الفريق على مذهب الحنفية الذي يقول: "أجمع الأئمة على أنّه لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلّاة، ويمنع فاعل ذلك أشدّ المنع، لأنّ قراءته بغيرها من قبيل التّصرّف في قراءة القرآن بما يخرج عن إعجازه، بل بما يوجب الركّاة"¹³، كما يشفع هذا الفريق حجّته بأنّ الرسول ﷺ عاش هذا الأمر في ظرف تدافق الداخلين في الإسلام ولم يأمر بالترجمة، بل قال: "خيركم من تعلّم القرآن وعلمه"، ولم يقل: خيركم من ترجم القرآن.

وأما الفريق الثاني فيستند إلى كثير من الدراسات المُمَجّدة والمُجيزة لترجمة القرآن الكريم من مثل:

1— القول السّديد في حكم ترجمة القرآن المجيد؛

2— ترجمة القرآن الكريم وأحكامه؛

3— ترجمة القرآن ونصوص العلماء فيها.

إلى جانب بعض الأقوال من مثل قول الكواشي: "أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية بشرطية وهي أن يؤدّي القارئ المعاني كلّها من غير أن يُنقص منها شيئاً. قالوا: وهذه الشّروط تشهد أنّها إجازة"¹⁴، كما ذكر الإمام السرخسي أنّ "الإمام أبا حنيفة أجاز ترجمة الفاتحة لأهل فارس، فقال: وأبو حنيفة رحمه الله استدلّ بما روي أنّ الفرس كتبوا إلى سلمان رضي الله عنه أن يكتب لها الفاتحة بالفارسية فكانوا يقرؤون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم للعربية"¹⁵. كما يشير مرجع آخر إلى أنّ سلمان الفارسي كتب الفاتحة للفرس بلغتهم بدءاً بسم الله الرحمن الرحيم (بنام خدا كي بخشانده مهربان) وعرضها على النبي فلم يَنكُر عليه ذلك وبعث سلمان بها إليهم "وثابت كذلك أنّه صلى الله عليه وآله أرسل سلمان الفارسي إلى قومه ليعلمهم بالفارسية، ومعنى ذلك أنّ الترجمة ضرورة وكان سلمان رضي الله عنه حسب ما ورد في إشارات فارسية، كان يُجلس العارفين بالعربية على يمينه، ومن لا يعرفها على يساره، وكان ينطق الآية بالعربية ثمّ بالفارسية"¹⁶. وعلى العموم فإنّ الفئة الثانية المُجيزة تنتظر إلى الترجمة نظرة علمية، وتعتمد الحُجج التّالية:

- 1— قول الإمام أبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية لغير القادر على العربية
- 2— تفريق المتكلّمين بين الكلام اللفظي والكلام النّفسي عند قولهم بأنّ القرآن كلام الله غير مخلوق؛
- 3— ادّعاء المجدّدين أهمية فهم القارئ معنى ما يقرؤه في الصّلاة؛
- 4— ضرورة تمثيل القرآن بنصوصه المترجمة أمام الشّعوب المسلمة من غير العرب؛ ليكونوا على بَيِّنَةٍ من كتابهم في عصر تكافح فيه الأديان والمذاهب وتحريم التّرجمة يُعدّ جُبْنًا وفراراً بكتاب الإسلام على ساحة المقايسة بالكتب؛
- 5— حبس القرآن في الدائرة العربية ينافي كونه ديناً عامّاً، ويؤيّد شبهة الذين يدّعون اختصاصه بالعرب¹⁷.

ووراء كلّ هذا قلتُ في نفسي ألاّ يحسن بنا أن نقول: إنّ القارئ الذي لا يعرف العربية عليه أن يجد هذا القرآن بالحروف التي يتقنها، وباللّغة التي يفهمها، بل إنّهُ

من حقّ البشر كافة أن يصلهم القرآن الكريم بلغاتهم في شكل تقريبي عن طريق ترجمة المعاني؛ لأنّ الغرض والمهمّ في المسألة هو إيصال العقيدة ومسؤولية الإنسان تجاه ربه؛ علماً أنّ "ترجمة معاني القرآن لا تُسمى قرآناً، ولا متّسع لأن نؤكّد أنّ التّرجمة بشكل عام مهما كانت دقيقة وحاذقة لا يمكن أن تحقّق الأبعاد المطلوبة، وأنّ ترجمة الألفاظ يمكن أن توقع بالكثير من المخاطر، وتزداد المخاطر أكثر فأكثر عند ترجمة النصّ الديني، هذا إضافة إلى ما يصطّلع عليه عند علماء فقه اللّغة من ارتباط الأصوات بالمعاني، ودلالات الأصوات على المعاني"¹⁸، ولهذا يجب العلم بأنّ التّرجمة لا تعني البديل عن القرآن الكريم، كما أنّ ترجمة معاني القرآن ليس ترجمة للقرآن التي لا يمكن أن تحصل، فتصعب المحاكاة والتّماثل لاختلاف الخصوصيات اللّغوية بين اللّغات، إضافة على النّظم القرآني الذي لا يمكن أن يمثّله نظمٌ آخر، ومن هنا فإنّنا نجد التّفسير أو التّرجمات المعنوية؛ وهي تلك التي يشرح فيها المترجم الغامض والتّعبيرات الرّمزية؛ وفيها يحدث المزج بينها وبين التّرجمة والتّفسير؛ وفيها كذلك توضيح مدلولات بعض المفردات وإعادة صياغة الأفكار أحياناً، وتوضيح الغامض، وعقد مقارنات، والخروج باستنتاجات.

ومن هنا، فمن الضّروري الإسهام في فهم ونشر الإسلام عن طريق لغات تلك الأقوام، واللّغات في المقام العامّ وسيلة ليست إلّا، وتتخذ ثلاثة أشكال للأداء: **الصوت، الخطّ، الفعل**، وكلّ قوم يمكنه التّعبير عن ثقافته بواسطة اللّغة التي يتقنها أو بواسطة الشّكل الذي يتقنه، كما أنّ أهمية ترجمة معاني القرآن الكريم تكمن في زاوية العقيدة، ما دام الخطابُ موجّهاً إلى النّاس كافة مهما اختلفت لغاتهم وأجناسهم في هذا العالم ﴿ما هو إلّا ذكر للعالمين﴾ القلم 52. والآن في كثير من بلاد الإسلام تجري خطب بغير العربية وتلقّى كذلك الأدعية، والمهمّ أن تكون الحكمة في التّأويل والتّفسير، الذي يحصل عن طريق تلك اللّغات، وكيف يمكن تجسيد الحكمة من شرح/ ترجمة/ تأويل الآيات وما تحمله من حمولة دينية بصورة لا

تحسّ فيها بنقلة فارقة، أو بالابتعاد عن النصّ الأصلي، أو لا يجسّد النصّ المترجم الرغبة التي يحملها النصّ الأصلي (الآية). وفي السنوات الأخيرة تزايد عدد التّرجمات لمعاني القرآن الكريم إلى لغات مختلفة، والسبب هو العمل على تبسيط القرآن وفهمه فهماً جيّداً من قبل المسلمين غير الناطقين بالعربية، لأنّ هؤلاء الناطقين بغير العربية كان لهم دور هامّ في نشر الإسلام والإعلاء من شأن اللّغة العربية التي خدموها في دقائقها اللّغوية، بل حدا بالكثير منهم أن هجروا لغاتهم، واتّخذوا العربية بديلاً لما فيها من بيان لم يوجد في لغاتهم، وقال البيروني 362 - 440 هـ: **والله لأن أهجى بالعربية أحبّ إلي أن أمدح بالفارسية**، بل إنّ مصطلحات كثيرة في اللّغات الشّرقية مصطلحات عربية بالإضافة إلى أنّ علماء هذه الأمم يختارون اللّغة العربية لمؤلّفاتهم العلمية وتقول بنت الشاطي في هذا الأمر "وكان من المتصوّر أن تجمع هذه الشّعوب بين العربية لغة الدين، وبين لغاتها القومية التي صانعتها طويلاً ضد الغزو لغة حياة، ولكن لم يمتدّ جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمة واحدة هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلّى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام، بل تركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشّعوب الداخلة في الإسلام"¹⁹. ولماذا حدث هذا؛ لأنّ القرآن أعطى رسالته في بلاغة عالية، وهو ليس بشعر ولا نظم ولا يمكن تقليده، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلف، فهو شامل لخبري الدنيا والآخرة نزل بأسلوب بياني ليس من صنع البشر، وإنّه لا يُعلّى أسلوب عليه.

7- ضرورة وضع قواعد لترجمة معاني القرآن إلى اللّغات الأجنبية: لماذا تُطرح الآن ضرورة وضع قواعد لترجمة معاني القرآن إلى اللّغات الأجنبية؟ لأنّه لاحظنا أنّ السّوق العالمية أُتخمت بالعديد من التّرجمات المُخلّة بالمعنى المقصود في القرآن الكريم، وإزاء هذا الوضع لا أنكر أنّني في كثير من التّرجمات أُستغربُ إقدام أصحابها على المُغامرة، فهي تعجز عن الإيفاء بلبّ الآيات، وما يحزننا في

ذلك مثلاً تلك الترجمة للآيتين 22-23 من سورة النساء ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِبَائِيكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونَا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

N'épousez pas les femmes qui ont été les épouses de vos pères, c'est un crime ! C'est le chemin de la perdition, mais si le mal est fait gardez-les

ونلاحظ أنّ الترجمة مُبتسرة، لم تفِ بغرض الآية التي فصلت في زواج المحارم، ونرى الترجمة/ التفسير هزيلة جداً، بالتركيز على الزواج بزوجة الأب وإن حصل فلا عليه. وهذا الأمر غير منصوص عليه في الآية، فكيف للمترجم/ للمفسر التصرف في أمر خطير مثل هذا؟ كما لوحظت مسألة أخرى وهي كثرة في شرح مثلاً (الواو) وهذا بسبب الخلافات في الاجتهاد، وعدم الوصول إلى الرأي السديد، فنجد ترجمات تعامل واو العطف بذات الترجمة التي تعامل بها واو الاستئناف، أو واو القسم، أو واو بمعنى مع... وهذا كلّ يعود إلى فرط التعمق في المسائل المعجمية التي يحتاج إليها مترجم القرآن، أي بحاجة إلى معجم تاريخي للغة العربية لإدراك كنه الحروف، بله الحديث عن الكلمات، وعن الدلالات المتغيرة. ومع هذا لا ننكر إحكام بعض الترجمات أمثال الترجمة التناظرية للقرآن الكريم لـ (ريكرت) الألماني، بالرغم من أنه ترجم ثلاثة أرباع القرآن فقط "إذ حافظ في الصياغة الألمانية على الأسلوب الذي يميّز به القرآن إلى حدّ كبير، وإن لم يتبع النصّ الأصلي كلمة كلمة، ويمكن أن يقال بلا مبالغة إنّ هذه الترجمة أقرب إلى الجمال الإعجازي لألفاظ القرآن من كلّ الترجمات التي صدرت في أوروبا، فضلاً عن أنّ الشاعر اختار بعض الآيات وصنّف منها أشعاراً وأمثالاً

بالألمانية²⁰. وتتصّر الدراسات على أنّ هذه التّرجمة حافظت على الصّيّغة الأصلية للنّصّ القرآني في التّرجمة، وبالتّأكيد على خصوصيات ودقائق اللّغة الألمانية، فتكاد تكون أقرب إلى الجمال الإعجازي. ولا شكّ أنّ مثل هذه التّرجمة التي نالت إقبالاً لدى الألمان حيث تتبّع فكر فريديرش شلايرماخر Friedrich Schleiermacher الذي قام بتحديد مجالات التّرجمة وأنواعها على أساس الاستخدام اللّغوي، وتهتمّ مدرسته بعلاقة التّطابق بين مكوّنات النّصّ المنقول منها والنّصّ المنقول إليها. ولهذا هناك من اقترح قواعد مهمّة في مجال ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللّغات الأخرى، وعمل بها مع طلابه، وبعض الباحثين وضع قواعد صارمة وزكّتها بعض المؤسّسات العربية والإسلامية العلمية، فكان علينا الاستهداء بها، أو العمل على احتذائها.

ومن خلال تلك القواعد الصّارمة التي عمل بها بعض الغربيين، رأت مَشِيخَة الأزهر سنة 1929م وكان على رأسها (محمد مصطفى المراغي) إباحة ترجمة القرآن إلى اللّغات الأخرى تَسْهِيلاً وتَبْسيطاً لغير العرب بالخصوص، ومن الضّروري اعتماد الشّروط العلمية، وأنّه لا بدّ من لجنة تعمل على ترجمة القرآن وتكون متعدّدة الاختصاصات لإدراك الخصوصيات التّعبيرية والنّفسية التي يحملها القرآن؛ لأنّ القرآن له بلاغة فائقة، ولا تدرك إلّا بامتلاكها "... الذين يترجمونه دون إدراك سرّ بلاغته وامتلاك آليات جمالية أساليبيه، فأغلب هذه التّرجمات خيانة لروح النّصّ القرآني²¹". وفي سنة 1936 أصدر الأزهر في مجلته دراسة لمحمد فريد وجدي وسَمّها (الأدلة العلمية على جواز ترجمة القرآن الكريم إلى اللّغات الأجنبية) وأباح ترجمة معاني القرآن بعد الرّفّض الذي أبداه سنة 1925، ولكن ضمن شروط وحدود. ولقد حاولتُ استجلاءها من خلال دراستي لكلّ الآراء المُجيزة في هذه النّقاط:

1— أن يكون التّفسيرُ خالياً ما أمكن من المُصطلحات والمباحث العلمية إلّا ما استدعاه فهمُ الآية؛

2 — ألاّ يتعرّض فيه للنظريات العلمية، فلا يذكر مثلاً التفسير العلمي للبرق والبرق عند آية فيها رعد وبرق، ولا رأي للفلكيين في السّماء والنّجوم عند آية فيها سماء ونجوم، إنّما تفسّر الآية بما يدلّ عليه اللفظ العربي، ويوضع موضع العبرة والهداية فيها؛

3 — إذا مسّت الحاجة إلى الاتّساع في تحقيق بعض المسائل وضعت اللّجنة في حاشية التفسير؛

4— ألاّ تخضع اللّجنة إلّا لما تدلّ عليه الآية الكريمة، فلا تتقيّد بمذهب مُعيّن من المذاهب الفقهيّة ولا بمذهب مُعيّن من المذاهب الكلاميّة وغيرها، ولا تتعسّف في تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك؛

5— أن يُفسّر القرآن بقراءة حفص، ولا يُتعرّض لتفسير قراءات أخرى إلّا عند الحاجة إليها؛

6— أن يُتجنب التكلّف في ربط الآيات والسور بعضها ببعض؛

7— أن يُذكر من أسباب النزول ما صحّ بعد البحث وأعان على فقه الآية؛

8— عند التفسير تُذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت كلّها مرتبطة بموضوع واحد، ثمّ تحرّر معاني الكلمات في دقّة، ثمّ تفسّر معاني الآية أو الآيات مُسلسلة في عبارة واضحة قويّة، ويوضع سبب النزول والربط، وما يُؤخذ من الآيات في الوضع المناسب؛

9— ألاّ يُصار إلى النسخ إلّا عند تعذّر الجمع بين الآيات؛

10— يوضع في أول كلّ سورة ما تصلّ إليه اللّجنة من بحثها في السّورة أمكية

هي أم مدنيّة؟ وماذا في السّورة المكية من آيات مدنيّة، والعكس؛

11— توضع للتفسير مقدّمة في التعريف بالقرآن، وبيان مسلكه في كلّ ما

يحتويه من فنونه؛ كالدعوة إلى الله، كالتشريع والقصص والجدل، ونحو ذلك، كما يذكر فيه منهج اللّجنة في تفسيرها.

ويمكن أن أضيف إلى هذه الشروط بعضاً من المحدّات -التي قال بها بعض الباحثين الذين يتحرّزون من تلك الأخطاء التي صدرت من قبل بعض المترجمين غير المتحرّزين،- وهي:

1- تُبحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور، فتفحص مروياتها، وتنتقّد ويدوّن الصّحيح منها بالتفسير، مع بيان وجه قوّة القوي، وضعف الضّعيف من ذلك؛

2- تُبحث مفردات القرآن الكريم بحثاً لغوياً، وخصائص التراكيب القرآنية بحثاً بلاغياً وتدوّن؛

3- تُبحث آراء المفسرين بالرأي والتفسير بالمأثور، ويختار ما تفسّر الآية به مع بيان وجه ردّ من المردود وقبول المقبول²².

ولماذا هذه الشروط، والتي قد تبدو للبعض تعجيزية في هذا الوقت، أرى أن العلوم في تطوّر وتحسّن، وأنّ هذا التّحديد ليس تضيقاً على البحث في أمور تفسير أو ترجمة معاني القرآن، بقدر ما هي احتياط في ترجمة نص مقدّس يحتاج إلى أجهزة وفرق بحث تعمل على تقديم البديل النّوعي، بل إنّ العمل في فرق متخصصة قد تصل إلى ما لم يصل إليه الأوائل. ولهذا أقول: أرى من خلال هذه الحوصلة وشبكة القواعد، والشروط التي أبدّاها المختصّون في ترجمة معاني القرآن، نأمل أن تحصل تحوّل علمية من الواجب التزامها لترجمة النصّ القرآني الذي لا مثيل له.

ومن هنا بات الأمر حازماً من الوقوف بقوّة وبنظام ويعلم يقيني للحيلولة دون وقوع هنات أو هفوات أو أخطاء تؤدّي إلى سوء الفهم، أو تعمل على تغيير مضمون النصّ القرآني، وهذا هو مربط الحال في الأمر، فكان لا بدّ من ترجمان مُحترف يتقن فنّ صناعته، ويجمع بين لغتين وعلى دراية عالية مُتكافئة بهما وخاصة اللّغة العربيّة باعتبارها وسيلةً لفهم النصوص واستنباط الأحكام، فهي مفتاح فهم الدين الإسلامي "...الإقبال على تفهّمها من الديانة إذ هي أداة العلم ومفتاح التّفقّه في الدين"²³. كما نصّت كتب التفسير والفقه وأصوله، وكتب مقاصد

الشريعة على وجوب تعلّمها على كلّ من يقبل على دراسة القرآن والعلوم الإسلامية إلى درجة التعمّق والرسوخ "والمجتهد في الشريعة لا بدّ من أن يرسخ في علم اللّغة رسوخ البالغين درجة الاجتهاد"²⁴. إضافة إلى اللّغة التي يُترجم إليها فتكون بنفس الشّروط، ولا بدّ للترجمان أن يتقنهما إتقاناً بحيث ينتقل من الواحدة إلى الأخرى دون إدراك كيفية الانتقال، ويقول الجاحظ 255 هـ لا بدّ للترجمان أن يكون بيانه في نفس التّرجمة في وزن علمه في نفس المعرفة؛ ويجب أن يكون المترجم أعلم النّاس باللّغة المنقولة والمنقول إليها؛ حتى يصير فيهما سواء وغاية وعلى المترجم أن يعرف أبنية الكلام، وعادات القوم، وأساليب تفاهمهم، وقوالب اللّغة ومُصطلحاتها "وعلى العموم تستدعي التّرجمة بادئ ذي بدء، الإحاطة بالقوالب التركيبيّة اللّغوية منها؛ أي الاصطلاحية التي تميّزها، أي المبنية على المصطلح العلمي، والربط بينها لاستخلاص كُنه المعنى وفهم المراد في اللّغة المترجم منها، ثمّ حسن انتقاء القوالب المطابقة لها وإعادة هندسة الجملة لأداء المعنى نفسه، أو أكبر قدر مستطاع منه في اللّغة المُترجم إليها"²⁵. ومن هنا فإنّي أوكد تلك الشّروط، وأراها تعمل على الحدّ من ارتقاء منبر التّرجمة من هواة مُعاصرين يعملون على التّرجمة دون الإلمام التام بقواعد وخصائص ودقائق اللّغة التي يترجم منها، والتي يترجم إليها، ولا هم يحفظون القرآن الكريم، ولا يعمّقون أبحاثهم في أحكامه، ولا في الحديث النبوي الشّريف، ولا هم من خريجي معاهد الشّريعة، أو معاهد التّرجمة، ولا يحملون شهادة في التّرجمة، فكلّ من يقرأ جريدة بلغة أجنبيّة يحاول أن يُترجم إلى العربيّة، ومن هنا نجد تخمة في التّرجمات إلى مختلف اللّغات، ولكنها لا تُسمن، فليست إضافات نوعيّة، بل هي من تسويد أوراق وتخرج كما دخلت فهي رقم من الأرقام لا غير، ونعلم أنّ التّرجمة في عمومها فنّ تتطلّب استيعاب المترجم الحقيقي لرسالة اللّغة المنقول منها، ومن ثمّ إعادة إنتاجها في اللّغة المنقول إليها، ولا بدّ للترجمان من معرفة جيّدة باللّسانيات وبعلم الفيلولوجية لكلّ لغة وعلى حدّ سواء، ويضاف إليهما معرفة ما تحمله كلّ لغة من

حمولة ثقافية في شعرها وأمثالها وتراثها بصفة خاصة وعامة، وأن يكون المترجم كاتباً ومنتجاً في اللغتين على حدّ سواء.

ويمكننا التشديد في هذه النقطة على مؤهلات مترجم القرآن الكريم: اللّغوية والعلمية والدينية والفقهية وأحكام القرآن، إذ يجب العلم بأنّ القرآن الكريم ليس كتاب علم، ولا كتاب تاريخ، ولا مدوّنة نصوص قوانين قد يسهل إلى حدّ ما نقلها من لغة لأخرى، القرآن وحي نزل به جبريل على قلب محمد ﷺ للهداية والفلاح والتعاون، ومن هنا تكون الغاية من تفسيره أو ترجمته في منتهى ما يمكن أن يقدم من متعلقاته التّضمينية أو الظاهرية في اللّغة وفي أسباب النّزول وفي النّاسخ والمنسوخ وفي مكان النّزول وفي المتشابه والمثبه وفي فواتح السّور، وما قيل فيها وفي موقع الآية في السورة ما يجاورها من سورة... ومن هنا أولى الأصوليون عناية خاصّة لقواعد معرفة مدلول آيات القرآن وقسموها إلى مُحكم وظاهر ومُجمل ومُتشابه، والمشكلة في المُتشابه، والتي تستدعي العودة إلى تاريخ نزولها، وأسباب النّزول، والعودة إلى الأحاديث النبوية الشريفة، والتّشبع بخصائص العربية ومعرفة دقائقها، والتّعامل مع تعدّد القراءات، كما أنّ ترجمة الأحرف الموجودة في فواتح بعض السّور، وهي من أسرار الإعجاز فيصعب ترجمتها وفي القرآن ألفاظ لها معنيان: ظاهر وباطن، وفيه ألفاظ تسمى بالمجمل؛ وهو ما احتمل أكثر من معنى، وأمثال هذه تتضمّن مسألة الوقف والابتداء، ومشكلة عودة الضمائر "ومن أمثلتها في آية الكرسي، يقول سبحانه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلى بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء﴾ من هم المعنيون بهذا الخطاب؟ أكثر المفسّرين يتأولونها بالكائنات عموماً، ولكن القرائن قد تدلّ على أنّ المعنيين هنا هم الملائكة؛ وذلك أنّ هذه العبارات وردت ثلاث مرات في غير سورة البقرة، وذلك في الآيات التالية:

- 1— ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ طه 109-110.

2- ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهُ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ الأنبياء 26-28

3- ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ الحجّ 75-76²⁶.

ومن وراء هذه الصّعوبات التّرجمية شدّد الأصوليون في المسألة بشكل قويّ حتى يصبح المترجم أقرب إلى الرّشد، وأحرى بأن يُسهم في تصحيح الفهم وتوضيح المعنى، وتحقيق السلاسة في الأسلوب، وإزالة الغرابة، وتقريب المعنى والمترجم من العربية وإليها؛ يحتاج إلى آليات منتظمة تعمل على دفع المناهج والضوابط لعملية التّرجمة؛ لأنّ التّرجمة ليست تفسيراً، وإنّما هي نوع منه لما يتضمّن من وفرة المعاني ومن تتوّع في التعبير، فالترجمة تتحمّل أكثر من تفسير ولهذا تبدو لنا صعوبة أو استحالة ترجمة النصّ القرآني وأسلوبه الإعجازي؛ حيث القرآن حمّالٌ أوجه، وقد كان أكابر الصّحابة يتردّدون في تفسيره ويقتصرون على ما علّمهم النبي ﷺ ذلك أنّ ترجمة القرآن لا تخلو من سيطرة أهواء المترجم وحسن النّوايا أو سوء النّوايا، وقد تصدر عن تقصير فهم النصّ من مقوّمات الإعجاز وأسرار البلاغة، كما تحمل التّرجمة وجهة نظر صاحبها على المستوى الفردي.

— الخاتمة: ليس عيباً أو مُستقبحاً أن تترجم معاني القرآن الكريم إلى أية لغة ولكن يجب الوعي بأنّ التّرجمة لأية لغة للقرآن الكريم ستكون قاصرة وفقريرة بلا شك، فلا يمكن أن تصل أية ترجمة إلى كنه اللّغة العربية التي لها ما لها من صور وتورية وتشابيه وطباق وجناس لا تتضمّن لغات أخرى، ولما للقرآن الكريم من نظم واتّساق ألفاظه ومعانيه وكلماته وجمله وشمول أحكامه وأغراضه، وانطباق آياته على ما يكتشفه العلم اليقيني الثّابت، ويضاف إلى ذلك أنّ القرآن أنزل لفظاً ومعنىً باللّغة العربية، فهناك استحالة ثابتة لنقل القرآن إلى أية لغة مهما وصلت إلى ما وصلت إليه من تقدّم، وهذا ما أدّه الباحثون المُختصّون، باعتبار القرآن

مُعْجَزة وتحوّلاً عميقين في مُختلف المجالات، كما أنّه من المعروف أنّ القرآن لا يُؤتى بمثله وقوله الحقّ ﴿قُلْ لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعضِ ظهيراً﴾ الإسراء 88... ومن ذلك ظهر لي أنّ التّرجمات مدعاة للتّفكّك، وفتح باب إقامة الشّعائر بلغات أخرى، وهي لا تُؤدّي شرعاً إلّا بالعربية، وعلمتُ بأنّ المسلمين في بلاد غير عربية بحاجة إلى تعلّم العربية، فهم يعشقونها ويَجَلّون من يتحدّث بالعربية، وخاصة لدى الشّعوب الآسيوية. ولذا أقول: ما أراه ضروري التّرجمة من القرآن الكريم إلى اللّغات الأخرى، العمل على ترجمة **المنتخبات من القرآن الكريم** من خلال:

- آيات من العقيدة؛
- آيات من الوحدانية؛
- أركان الإسلام؛
- آيات الحكمة والوعظ؛
- آيات من المعاملات الاجتماعية؛
- آيات الآداب والسلوك الاجتماعي.

ويحصل الاكتفاء بهذه المُنتخبات؛ كونها لازمةً أحياناً لفهم الدين في ظاهره وهذا هو المطلوب بالخصوص بالنسبة للمسلمين النّاطقين بغير العربية، وكذلك بالنسبة لمن ييغون فهم الدين الإسلامي، ومن يريد التّعمّق عليه أن يتعرّب، ويفهم **خصوصيات اللّغة العربية، فيقرأ القرآن باللّغة التي نزل.** وأما أن يحصل الانغماس في التّرجمة ونضيف ترجمات أخرى، والتّرجمات الحالية لو نضعها في الميزان نرى بعضها لا تتوازن مع ضخامة الإنفاق؛ حيث نجد عدد المستفيدين أو المستعملين لبعض اللّغات التي ترحم إليها القرآن قليلاً جداً مقارنة مع قيمة التّكلفة الباهظة. فالمسلم يهّمه حفظ الآيات، واستكناه معانيها كما نزلت، فهل يمكن أن يحفظ الآيات بغير تعلّم العربية، ثمّ إنّ المسلم لا يمكن أن يتعبّد بغير العربية، فلم نضعه في دوامة التّرجمة في البداية؟ ومن هنا يجب أن نسأل السؤال التّالي: كم

عدد المنتفعين بالترجمة؟ وهنا يتدخل عامل الاقتصاد، فكَلَمَّا كان الإنفاق أكثر من عدد المنتفعين، لم تتحقق الفائدة المطلوبة، ولذا فبدل أن نعمل على ترجمة معاني القرآن الكريم، الأحرى أن ننشر لغة القرآن بدل نشر ترجمات معانيه؛ لأنّ الترجمات أحياناً تعمل على محاربة تعلّم العربية، وتترك العالم الإسلامي معزولاً عن بعضه البعض، وما في الأرض لغة توحد المسلمين غير العربية، كما قد تفتح الترجمة باباً ترجمة الصلاة بغير العربية، فتصوّروا لو يحصل الآذان بغير العربية، فكيف يكون، وكيف تستقبله الأمة الإسلامية! فيا لها من مهزلة. ولنعط مثلاً حياً في هذا الأمر؛ ففي إفريقيا حيث ينتشر الإسلام بقوة نجد فيه ما يقرب من 400 لغة، فهل يمكن تحقيق الترجمة إلى كل هذه اللغات، وبعض اللغات لا يتكلمها إلا 1000 نفس، وفي بلد كنيجيريا لها أكثر من مائة لغة مختلفة في ما بينها اختلافاً كبيراً، أليس جديراً بأن يُترجم فقط إلى اللغة الرسمية، والقرآن نزل لمحاربة هذا الاختلاف ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ وكان عليّ في هذا الموقف من توضيح رأيي الخاص بترجمة معاني القرآن الكريم، والذي قد يراني فيه القارئ بأنّي منتصر بحماس إلى ترجمة معاني القرآن لمختلف اللغات، ولكن لديّ رأي أقف فيه على بعض الأولويات؛ وهي من المصالح المرسلّة والتي تستدعي مني كباحث القطع فيها. فأراني أمام مطلب ضروري وهامّ، وبجانبه صعوبات جمّة، فيجب الوعي بأنّ الترجمة بصفة عامّة ضرورة، ولها منافع، ولكن بالنسبة لترجمة معاني القرآن الكريم؛ فمنافعها محدودة جداً، باعتبار الموضوع نال نصيباً منها، والترجمة فيه ليست من الأولويات وريفي هذه الضرورة؛ تكمن في أهمية متابعة حركة ترجمة معاني القرآن الكريم من قبل فرق البحث ذات التخصصات المتعدّدة، والسعي لوضع ترجمة راقية نفية دقيقة لا تحتمل التحريف أو التشويه أو التّضليل، وهذا لتحقيق هدف نشر كلام الله في مختلف الأمم والشعوب، بحيث يتيسّر نقل معاني القرآن إلى غير الناطقين باللغة العربية بصياغة واضحة لا يشوبها غموض ولا لبس، ولكنني أرى هذا الأمر

ليس سهلاً، ولا يمكن أن يحصل في اللّغات المتخلفة، وعند الشعوب الفقيرة، وكذلك ليس من الأولويات المعاصرة، فالأولوية والتّحدّي المطلوبان تكمن في تدريس العربية الحاملة للقرآن، وهذا هو الأصل والأولوية المعاصرة، بل هو المطلوب وأودّ أن يقرأ المسلم وغير المسلم القرآن الكريم كما نزل، فإذا كنّا في أوطاننا العربية نحارب اللّهجات، وهي مستوى بسيط من مستويات الفصحى، فكيف نقبل أن يترجم القرآن إلى لغة بعيدة كلّ البعد عن روح العربية، أو يُترجم بلغة أجنبية مشوّهة، وعندما نترجم معاني القرآن إلى لغة أجنبية، ونطبع منها آلاف النسخ يعني ذلك أنّنا أثبتنا تلك اللّغة إثباتاً، وزكيناها عقائدياً؛ باعتبارها حاملة لمضمون مقدّس، وروّجناها، ودعونا لها، ونشرناها.

أليس الأفضل أن نعلّم شبابنا العربية، ونكوّن متعلمين ينشرون العربية وبتعليم العربية نكون هيئاًنا جيوشاً تقرأ القرآن بالعربية، وعملنا على نشر العربية، وفي ذات الوقت عملنا على توسّع القرآن، ثمّ إنّ ترجمة هذه المعاني لا يمكن أن تؤدّي الغرض مهما علّت، والدليل على هذا فإنّ العارفين بالعربية أحياناً يقعون في حيرة من فهم الحروف، بلّة الحديث عن الآيات القرآنية، وبيقون متسائلين عن جوهر بعض الآيات التي لا تقبل الاستقرار على معنى واحد، فأنتي للترجمة أن تفي بالغرض! وهذه هي الحكمة من الإعجاز القرآني الذي تحمله اللّغة العربية فقط، ولا تدانيها لغة أخرى مهما علّت وارتقت، وهذا ما جعل ابن تيمية مثلاً- يفتي بمكروية استعمال لغة أخرى غير العربية للحياة أو الدين في الإسلام، وأنّ دار الإسلام هي دار العرب حصراً. ومن هنا يبقى القرآن الكريم خاصّاً باللّغة العربية التي هي خير مُعبّر عن مكنونه، وأما التّرجمات فتكون قاصرة عن المراد.

الهوامش:

♥ — أعدت المحاضرة لتلقى في الندوة الدولية الثانية حول: ترجمة القرآن الكريم وتفسيره. بقسم اللّغة العربية بجامعة كيرالا بالهند، أيام 23-25 أفريل 2015.

- 1 — أبو الحسن علي بن محمد الخُزاعي التلمساني، تخرّيج الدَّلالات السَّمعية، تح: أحمد محمد أبو سلامة. القاهرة: 1981 المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص 209.
- 2 — سمير الدروبي، التّرجمة والتّعريب بين العصر العباسي والمملوكي، ط1. السّعودية: 2007 مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ص 12-13.
- 3 — عبد العلي الودغيري، لغة الأُمَّ ولغة الأمّ عن واقع اللّغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية. بيروت: 2014، دار الكتب العلمية، ص 4.
- 4 — أحمد حسن الباقوري، أثر القرآن الكريم في اللّغة العربية، ط4. القاهرة: د ت، دار المعارف، ص 11.
- 5 — سمير الدروبي، التّرجمة والتّعريب بين العصر العباسي والمملوكي، ط1. السّعودية: 2007 مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ص 38-39.
- 5 — عبد الرحيم كوزال "أهمية ترجمة القرآن الكريم إلى اللّغات الأخرى من زاوية موضوع العقيدة" أعمال ندوة (ترجمات القرآن الكريم إلى لغات الشّعوب والجماعات الإسلامية) المنعقدة بين 18-21 أيار 1998.الأردن: 1999، منشورات جامعة آل البيت، ص 308.
- 7 — سبق لي أن كتبتُ مقالةً مطوّلة عن ترجمة معاني القرآن. ينظر كتابي (...يزع بالعالم ما لا يزع بالعالم) الجزائر: 2008، دار هومة للنشر والتّوزيع.
- 8 — محمد عبد الحليم "في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية: مشكلات ومحاذير" العيد الماسي لمجمع اللّغة العربية
- 9 — محمد العربي ولد خليفة "مقدمة مجلة (أهمية التّرجمة وشروط إحيائها)". الجزائر: 2004 منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال ملتقى حول: أهمية التّرجمة وشروط إحيائها.
- 10 — فتحي مهدي "ترجمة القرآن الكريم في يوغسلافيا" تر: محمد مفاكو. مجلة التّراث العربي. دمشق: 1990/1989، اتحاد الكتاب العرب، العددان 37/38.
- 11 — محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص 73.
- 12 — البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: د ت، ج1، ص 380.
- 13 — محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص 56.
- 14 — محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص 61.
- 15 — محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص 62.

- 16— عبد الصّبور مرزوق "التّرجمة أسلوب من أساليب الدعوة الإسلامية" مجلة كلية الدّعوة الإسلامية. ليبيا: 2002، كلية الدعوة الإسلامية العالمية، عدد النّدوة: الدولة حول ترجمة معاني القرآن الكريم، 21—23 أي النار 1370 من وفاة الرسول، 2001 مسيحي.
- 17 — عفت محمد الشرقاوي، موقع /mosoa/balagh.com
- 18— طالب عبد الرحمن، العربية تواجه التّحدّيات. قطر: 2006، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سلسلة (كتاب الأمّة) العدد 116، ص 9.
- 19— ع/ حسين الرحيل "بعض العقبات التي تواجه الترجمات الفرنسية لمعاني القرآن الكريم" أعمال ندوة (ترجمات القرآن الكريم إلى لغات الشّعوب والجماعات الإسلامية) المنعقدة بين 18—21 أيار 1998. الأردن: 1999، منشورات جامعة آل البيت، ص293.
- 20— محمد عوني عبد الرؤوف "ترجمة معاني لقرآن الكريم إلى الألمانية" مجلة الألسن للترجمة. القاهرة: 2003، منشورات جامعة عين شمس، ص 50.
- 21— سالم الحداد، صراع الهوية بين الأنا والآخر، ط1. تونس: 2000، الأطلسية للنشر، ص25.
- 22 — محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص 75—77.
- 23— أبو منصور الثّعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية. بيروت: د ت، منشورات دار مكتبة الحياة ص 2.
- 24— محمد الخضر حسين، الشريعة الإسلامية صالحة لكلّ زمان ومكان، ضبط وإعداد: علي الرضا الحسيني، ط1. دمشق: 2005، مكتبة الفارابي، ص 17.
- 25— عبد الحميد صالح حمدان "نظرة على ثلاثية الديداوي في علم التّرجمة" مجلة الألسن للترجمة. القاهرة: 2003 جامعة عين شمس، العدد الرابع، ص 88.
- 26— محمد المختار ولد أباه "حول ترجمة جديدة لمعاني القرآن الكريم" العيد الماسي لمجمع اللّغة العربية بالقاهرة 1932—2007، ط1. القاهرة: 2007، منشورات مجمع اللّغة العربية، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية، ص 317 — 318.

مشروع قاموس مصطلحات المخطوطات

Lexique des termes de Manuscrits

— المقدمة: إنه لمّا يحزّ في النفس أنّ أمة العرب سبقتُ أمماً كثيرة في الكتابة وملاّت خزائنها بنفيس المنتج الأدبي والعلمي، وبما كانت تجود به أفكار المبدعين وكان النسخة يُجارون حركة الإبداع بما يُدوّنونه بأقلامهم المختلفة، فأقاموا عليها تحابير، وتنافسوا في السرعة والجودة بكلّ تدبير؛ فانمازت كتاباتهم بالتّفسير والإرسال والتّعريض والتّقوير، فمن نسخ إلى رقعة، ومن ثلث إلى مُعلّق... وكلّ ذلك لم يكن له أثر في وقتنا المعاصر، وكأنّ شيئاً لم يكن، فهو من التّاريخ، فنحن لا نغير للتّاريخ اهتماماً. ومن المؤسف أنّ أمة العرب التي جيّستِ الهِمم، وحرّكتِ الرّغائب، وتوسّعت فيها حرقة الوراقة، فأبدع في هذا المجال ابن حوقل، وأبو علي بن مُقّلة، وشرف الدّين بن عبد السلام، والسومري... في تقبيد السّماع في الإضبار، بخطّ مُتميّز مِكبار، وساندهم النّساخون بما كانوا يحملون من أقلام ومداد وورق ولواحق مسطار؛ فمن قلم الطّومار إلى قلم الثّلث، ومن قلم التّوقيعات إلى قلم التّرقيعات، وكلّ ذلك فنحن لم نحفظ لهم ودّاً؛ فلم يكن الخلف على طريق السّلف ولم يكونوا في مستوى هذه اللّغة الشّريفة التي لم نع بعدُ جواهرها، وما كُتب فيها عبر اللّغات، لغةٌ تحمل من كنوز الأجداد الشّيء الكثير، فأنى لنا أن نصل إلى عمقها، ما هي الوصفّة العلميّة التي تُمكننا استكناه خباياها؛ ذلك ما نريده من هذا المشروع الطّموح، بالتركيز على مكنز مصطلحات المخطوطات، والعمل على تعريفها ووضع المقابل لها باللّغات التي لها استعمال في مناطقنا المغاربيّة على وجه الخصوص، ولا نعدم أنّ هذا القاموس تكون لها استفادة من قبل الطّلبة والباحثين في كثير من الاختصاصات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يُؤسف له أنّ علماءنا تركوا لنا كلاماً مكتوباً على الورق الأصفر الذي أصبح يُطلق عليه الآن التّراث المخطوط، ونحن ما استطعنا حصر مصطلحاته، ولا ما يحويه ذلك الورق

الأصفر من مضمون. فهذا المشروع نروم إعادة بعض الاعتبار لمنتوج السلف وإخضاعه للمدرسة والتّدرّيس، وذلك ما يبين حقيقة، ويحيّن وقته .

1- أسباب طلب فتح مشروع البحث في القاموسية: نعلم أنّ تراثنا كبير وغنيّ بقدّم لغته، إضافة إلى أنّ البحث في التّراث من الأمور التي يستصعبها الباحثون المعاصرون نظراً لعدم وجود الدّراية بهذا الاختصاص (القاموسية) وكذلك لصعوبة الوصول إليه وما يلحق ذلك من التّمكّن الجيّد في قراءة الخطوط، وفي استكناه المکتوب على الصّورة الحقيقية التي كُتِب بها، وأحياناً تستعين بالمنظار، وقد تقنى عيونك وأنت تميّز بين الخطوط، أضف إلى ذلك ما يعلّق بهذا المجال من العودة إلى دراسة الجوانب التّاريخية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي أنتجت فيها هذه المخطوطات، وكلّ ما يتعلّق بعلم التّحقيق، دون أن نعرّض لتلك الجوانب ذات العلاقة بالتّوظيف في وقتنا المعاصر، ولهذا لا نجد تلك الأفواج الطّالّية التي تقصد دراسة المخطوط... ولأجل كلّ هذا نرفع طلبنا إلى من يهّمه الأمر بأنّ الفريق عازم على تذليل الكثير من الصّعوبات في قضايا المخطوطات، وتكون البداية من حصر مُصطلحاتها.

وفي الحقيقة إنّ البحث في المدوّنات القديمة ليس صعباً، إلّا أنّه يحتاج إلى التّنبّه والدّقة والعلمية التي يجب أن يعلم بها الباحث وهي شبه محدودة، وهذا ما نريد أن نرّبي عليه طلابنا في وقتنا المعاصر؛ للانتباه إلى تراثنا فهو بسيط وجيّد ويحمل علماً، وليس كلّ من سقط المتاع، بل إنّ أجدادنا كانوا من الفاتحين لكثير من العلوم أليس الأجدر بنا أن نكشف عنها، ونُمنع فيها النّظر، ونرى مواطن الإحسان فنحتذّيها، ومواطن النّقص فننقّادها، وهذا هدف نبيل، ومن متطلّبات واجبات الباحث المعاصر، وليس عملاً مُهاباً كما يتصوّره البعض، بل يحتاج إلى باحث مُؤمن بأنّ السّلف كان الكثير منهم من العباقرة، وأنّجوا الكثير من العبقريات، والطّرافة في هذا كيف نصل إلى الكشف عنها، وتقديمها للقارئ بطريقة سهلة، وهذا هو الجانب الذي دعانا لتقديم مشروع في القاموسية، وبالضّبط في مُصطلحات المخطوطات.

1/1 – دواعي البحث في مدونات مُصطلحات المخطوطات: لا يمكن أن ننكر دور التراث في ما يحمله من كنوز ومعارف شتى، كما لا ننكر أن ليس كل التراث سميناً ولهذا رأينا بعضاً من الخصائص التي يمكن اعتمادها أسباباً لفتح مشروع في مُصطلحات المخطوطات، باعتبار إنجاز مشروع في مُصطلحات المخطوطات كان من العدم، كما أن إنجاز القاموس يدخل في التهيئة اللغوية، وهكذا تفعل الأمم المُتقدّمة فإنّها تتسابق لوضع مدونات لغوية لألفاظ لغتها، ومن ثمّ تجرى عليها الدراسات للتقويم والتقييم، وهذا مُبتغانا في المقام الأوّل، كما تكمن أسباب الالتفاف حول أهمية إنجاز مشروع في اختصاص المُصطلحات يكمن في البحث عن الذات التراثيّة؛ عن تراث الأجداد الكبير، وهو أحقّ بأن يُبحث فيه لخلق تواصل فعّال بين السّابق واللاحق، بين الجاهل بحقائق المخطوط، وصاحب الاختصاص. وهذا ما ظهر لنا بعد أن أعملنا النظر في ما تركه السّلف، وقد ظهرت فيه مُصطلحات جدّ هامة، وكان حقاً علينا التعرّف عليها وعلى دلالاتها، ومن خلالها يمكن التّأصيل لتراثنا في التاريخ العالميّ وفي اللّغات الأجنبيّة، رُغم ما يُمكن أن يلاقيه الباحث من صعوبات في أيّ عمل مُؤسّس. وسبب آخر وهو البحث في عمل شبه مُؤسّس وهو (الكوديكلوجيّة) بحث مُؤسّس عند الغرب، فكيف حاله عندنا، حيث لم تظهر فيه الدراسات التي تجعل منه مادّة يسيرة سهلة، اللهمّ بعض المداخل والمُقدّمات التي لا تخلو من نقائص.

ولهذا فغايتنا من كلّ هذا؛ اقتحام هذا الميدان الجديد رغم الصّعوبات التي قد تعترضنا، ونرفع التّحدّي بالعمل الإضافي؛ الذي نروم من خلاله إضافة غرسةٍ إلى تلك الغرسات القليلات التي زرعها من سبقونا. وبهذا الفريق الجاهز والمُختصّ والمتعدّد اللّغات، نأمل أن نكون في مُستوى تحقيق أمانة الأجداد، وهو إحياء تراثهم؛ بالعمل في البداية على استكناه مُصطلحات المخطوطات، ويمكن الوصول في لاحق من الزّمان إلى فهرسة المخطوطات من خلال مدوناتهم. وغايتنا في هذا المشروع هي إنجاز قاموس لمُصطلحات المخطوطات يكون عامّاً وخاصّاً؛ مُوجّهاً للمبتدئين والباحثين والطلّبة والعلماء، ويمسّ كلّ الطّوائف التّعليميّة، ونأمل أن يحلّ

جزءاً من مشكلة فوضى المصطلحات في اللغة العربيّة، وعلى الخصوص في تراثنا العربيّ، ومن خلاله نعمل على تحبيب هذا الاختصاص للطلّبة، إن لم نسعَ أن يكون وحدة من وحدات الأداء الجامعيّ.

2/1— غيابُ قاموسِ مُصطلحات المخطوطات: ما يُعرَف عن العرب أنّ لهم السّبق في طبع أعمالهم وكان ذلك الزّمان على العظام وسَعَف النّخيل، ثمّ على ورق البرّدي والكاغد، ودوّنوا مُدوّنات هامّة بصمغ من منتوج صوف مواشيهم فبلّغوا شأواً في تلك الأعمال التي أصبحت صناعة وحرّفة بامتياز، ولكن ما يحزّ في النّفس أنّهم أنجزوا معاجم عملاقة، وكتباً ضخمة، ولم نجد من بينها مُعجماً/ قاموساً في مُصطلحات المخطوطات، والعرب أمّة المخطوطات، ولحدّ الآن لم نستطع إنجاز قاموس في اختصاص مُصطلحات المخطوط؛ يتصدّر قواميس الأمم؛ لأنّ هذه المهنة لنا فيها السّبق عن الأمم، بله الحديث عن تراثنا الكبير الذي ما يزال الكثير منه مخطوطاً، فكيف يكون للغرب السّبق، وهم الذين تعلّموا الحرّفة عن العرب، أليست هذه مفارقة؟ والمفارقة الأخرى أنّه في وقتنا المعاصر نرى مكتب تنسيق التعريب يُنجز 42 مُعجماً مُوحداً ثلاثيّ اللغة في مُختلف التّخصّصات ولم يُنجز مُعجماً مُوحداً في مُصطلحات المخطوطات، وهي غرابة كبيرة، وكيف لم ينتبه إلى هذه المسألة، وقد خاض في تأليف مُصطلحات مُوحدة ثلاثيّة اللّغات في الاستشعار عن بعد؛ وهو اختصاص مُعاصر وصعب مرّامه ودقيقة مُصطلحاته ويعجز عن إنجاز مُصطلحات في التّحقيق والتّاريخ وفنّ الخطّ والنساخته والوراقة وهي من علوم العربيّة التي لا تستدعي تلك الدقّة المطلوبة في العلوم.

2 — لماذا الاهتمامُ بمُصطلحات المخطوطات: فإذا ذكرنا هذا؛ فنبتغي الحديث عن أهميّة التّراث المخطوط الذي يُنادينا إلى إنقاذه من الأرضة، ومن سوء التّهوية ومن بيعه بثمن بخس، وكان علينا نحن الباحثين- الحفاظ عليه، وبعثه إلى الوجود بالدراسة والتّحقيق. تراثنا يستغيث، فهل من مُجيب؟ كما نعلم أنّ تراثنا أطول عمراً مثل اللغة التي كُتِب بها، وأضحى عدداً، وأشدّ تنوّعاً، وأقوى انتشاراً وأكثرُ أصالةً

فهو عميق ويحمل ثقافة أمة في عصورها العميقة، ونحن لم نُقَم له وزناً، فهل نترك ذلك دون أن ينال حقه من البحث والاهتمام، وهل من المُجديّ ألا نحتفي بتراثنا كما تفعل الأمم، أليس من حقّ الخلف أن يطلّعوا على تراث السلف، ألا يحقّ للخلف أن يَفْخُرُوا بمُنجزات السلف؛ باعتماد ما تركوه من مخطوطات، فيعملوا على دراستها كوعاءٍ للمعلومات، وعلى فهرستها، والإفادة منها، وتحقيقها، ونشرها، وجمع مُصطلحاتها، وشرحها.

3- الدّراساتُ القاموسيةُ السابقة: إنّ المُنجز القاموسيّ المُختصّ في مُصطلحات المخطوطات قليل، وما يشغل بالنا في هذا المشروع هو جمع مُصطلحات المخطوطات الكثيرة والمُتداخلة في شتّى العلوم، إضافة إلى العلم على الكشف عن مداليلها الحاليّة والماضيّة، كَفَعَلَ (أحمد شوقي بنبين) بمعيّة (مُصطفى طوبي) اللّذين قدّما عملاً تأسيسياً به (1334) مُصطلحاً مُرتّباً على حروف الألفبائية. مُعجم مُصطلحات المخطوط العربيّ (قاموس كوديولوجيّ) في (293) صفحة، وفيه اثنتا عشرة (12) صورةً لمخطوطات الخزّانة الحسنيّة. والعمل مطبوع سنة 2003 في المطبعة والوراقّة الوطنيّة بمراكش، وطُبِع طبعات أخرى مُواليّة. ويبقى هذا المُعجم/ القاموس لبنة هامّة يجب مواصلة البناء عليه، وبتقاديّ النّقائص التي علقت عليه، وهي:

- 1 - خلوّ القاموس من سمّة التوسّع في الشّروح.
- 2 - نقص الكثير من مُصطلحات المخطوطات الفعلية.
- 3 - وجود مُصطلحات لا علاقة لها بالمخطوطات.
- 4 - غموض المُقدّمة، وليس فيها ملامح المُقدّمة، ولا مُتضمّناتها الأكاديميّة.
- 5 - خلوّ القاموس من الخاتمة.
- 6 - اضطراب المداخل.

ومع ما يمكن أن يُقال فإنّ ما أقدّم عليه الباحثان (بنبين وطوبي) من المفيد والجيد؛ إلّا أنّ البحوث النّقديّة التي أُنجِزَت حول عملهما أباّنت عن بعض الهنّات

فيحتاج القاموسُ إلى تدقيق وتخصيص، ويحتاج الانطلاق من المُقدِّمة التي توضح الهدف، وتُقنن المنهجية، وتُحدّد النظرية المعجمية، وتُحدّد المدونة، وتنصّ على ما تقتضيه مُصطلحات المخطوطات... ولذا فهذا القاموس يحتاج إلى تصفية الكثير من المُصطلحات التي تعلق به من بعيد ليقع التّخصيص، لا التعميم؛ لأنّ المُصطلح في خصوصه لا في عُمومه. وكان على القاموس أن يظهر فيه خطاب المُقدِّمة ظهوراً واضحاً، فهو عمدة القاموس/ المعجم، وعلى المُقدِّمة أن تكون جامعةً لحديثات المتن القاموسي/ المعجمي، وتشتمل على المظاهر التربوية والتعليمية؛ بمعنى تتحدّث عن عرض سبب تأليف القاموس/ المعجم، وما هي المنهجية التي تحويه، وما هي المُميّزات التي يحملها، وتذكر الجوانب اللّغوية، وما له علاقة بالمختصرات... وهذا ما كان غائباً ويشكّل نقصاً كبيراً للأعمال السّالفة. ولهذا ليس كلّ مُنجز له السّبق ينال الريّادة، ولكن له الفضل في فتح الريّادة.

وإنّه آنَ الأوانُ أن نتحدّث عن ضرورة إنجاز قاموس مُصطلحات المخطوطات أو ما يسمّى بـ (الكوديكلوجيا) طالما أنّ تراثنا زاخراً بالمخطوطات، وأن الأوان أن تتمخّض المُلتقيات والأيام الدّراسيّة عن المنتج العلميّ الملموس والمُضيف، فلا يجب أن نبقى في التّوصيّات/ يجب الذي يجب/ أمّلنا أن نصل إلى... علماً أنّ الأمانى بضاعة الفقراء، بالفعل نحن فقراء في كلّ شيء؛ لأنّنا اتّكاليون قاعدون ونُمنّي على الله الأمانى، فآنَ الأوانُ أن نكون بالمشاريع الصّغيرة أو الكبيرة، أو الطّويلة النّفس، لا بالأوهام والتّمنّيات والأحلام.

وهناك معاجم أو أعمال جيّدة، تسند هذا العمل، من مثل:

- 1- مُعجم (مُصطلحات الخطّ العربيّ والخطّاطين) لـ عفيف البهنسي.
- 2- مُعجم مُصطلحات المكتبة لـ محمد أحمد حسين + أحمد كابش + محمد الشّنيطي.

ومع هذا، فتبقى هذه الأعمالُ بحاجةً إلى تحسينٍ وتحيينٍ، وإلى مزيدٍ من البحث والتّبسيط؛ لتكونَ مُصطلحاتُ المخطوطات واضحةً معروفة. وإذا ذكرنا هذه

الأعمال لا يعني أنها ضعيفة، إلا أننا ننشد فيها المزيد من العلميّة والمنهجية والإتقان والتّخصص، فنحن لسنا مثاليين، ولكننا ننشد المثالية.

4 – قواميسُ غربيّة في مُصطلحات المخطوطات: هناك ضرورة مُعاصرة ملحة في القيام بإنجاز قاموس لمُصطلحات المخطوطات وهي ضربة لازب واجبة في لغتنا وليس من الصّعب إذا انبرى له فريق من المُتخصّصين، وكلّ يحاول أن يسدّ في جانب من الجوانب، علماً أنّ العمل يمكن أن يقوم به فرد، لكن الوقت المُعاصر يستدعي العمل ضمن فريق مُتعدّد الاختصاصات، مُراعاة للتوسّع والتّدقيق وربح الوقت. وإذا عدنا قليلاً إلى الوراء؛ نرى آباءنا أنجزوا موسوعات بجهود فردية وأنجزوا معاجم ضخمة عبارة عن مُجلدات، وبجهود فردية، ولكن الوقت المُعاصر يختلف في التفرّغ للعمل، ومشاكل الدّنيا كثيرة، وهذا العمل الفرديّ ما يزال لدى علماء الغرب فيأتينا نبأ العالم الموسوعيّ Muzerelle Denis الذي أنجز (قاموس علم المخطوطات Vocabulaire Codicologique) في مدّة عشر سنوات، حيث بدأه عام 1975م وأنهاه سنة 1985م، وترجمَ القاموسُ إلى كثير من اللّغات الأوربيّة وتوالى بعد ذلك أعمال مُكمّلة في إنجاز قواميس المخطوطات العربيّة؛ حيث نشرت دار بريل Brill بليدن بهولنّدة قاموساً للمستشرق البولونيّ آدم جاسيك Adam Gacek خاصاً لمُصطلحات المخطوطات " وهو قاموس ثنائيّ اللّغة: عربيّ – إنجليزيّ وسمّاه: تقاليد المخطوط العربيّ (قاموس كوديكلوجي). وهناك عمل آخر جيّد وعنوانه Introduction à la codicologie, Jaques Lemaire وترجمه الأستاذ مصطفى طوبي عام 2006، إلى العربيّة، وطبعته المطبعة والوراقة الوطنيّة بمراكش: مدخل إلى علم المخطوط. ويتحدّث هذا المدخل في صناعة الكتاب المخطوط في العصر الوسيط، وهو وصفٌ وتحليلٌ لمختلف مُكوّنات المخطوط في عصر ازدهار المخطوط عندنا، وهو عصر الضّعف في الغرب. ومن العجيب أن يكون هذا العالم نزيهاً في التّعامل مع المخطوطات الغربيّة، ولكنّه يأخذ تلك المُصطلحات والأدوات التي كان يستعملها العرب في مُصطلحات المخطوط من مثل:

المَلْزَمَة — الرِّق — الخرم — التَّجْلِيد — الجُذَاذَة ... ويستعملها بسهولة، دون أن يشير إلى أصولها، وكأني به يقول: إنّ صناعة المخطوط صناعة عربيّة بامتياز، فقد استفدنا منهم أيّما استفادة، وها هي كيف كانوا يكتبون، وها هي مُصطلحاتهم، وكأني به يقول كذلك: للعرب السِّبْق، ولكن إنّ تراثهم مسّه التصدّع والضياع، فتوزّع في أصقاع العالم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ اللّغة العربيّة ليست للعرب، بقدر ما هي للحضارة الإنسانيّة، وهذا ما قد يكون سبباً في التوزّع والإهمال. ولكن ما يسجلّ عليه أنّه لم يحمل مُلَحَقَه صورةً واحدةً للمخطوط العربيّ، في الوقت الذي حمل صُوراً للمخطوط اللاتينيّ واليهوديّ، وما يُعرف عن العربيّة آنذاك أنّها لغة شعائريّة رئيسة لدى عدد من الكنائس المسيحيّة، وكُتِب لها أهمّ الأعمال الدينيّة والفكريّة اليهوديّة في العصور الوسطى.

وندع هذا الأمر لنقول: بالنسبة للغربيين فإنّه لم يتوقّف العمل في البحث في مخطوطاتنا، فهناك باحثون يشدّون الرِّحال إلى دُورنا؛ باحثون عن تراثنا، باحثون مُغامرون من أجل الوصول إلى المصادر، وهمهم اصطياد لآلئ المخطوط العربيّ ودراسته، والتعرّف على مكانه، واستكناه خباياه، وكذلك المُصطلحات التي يحملها والعمل على شرحها، والإفادة منها، بل العمل على تطوير لغتهم عن طريق احتذاء علوم أولينا، ونحن عن كلّ هذا غافلون ومُتغافلون، فهل من الصّعوبة أن نعمل نحن على دراسة مُصطلحاتنا بدل الاتّكال على الغرب. أليس من المُخزيّ أن نقول دون أن نفعل، فإلى متى نكون اتّكاليين حتى في الكشف عن تراثنا، فنترك الباحثين الغربيين ينزلون منازلنا، ويُعملون مناهجهم في تراثنا، ويحصلون على نتائج باهرة، ونحن لم نستطع دراسة مُصطلحات التّراث.

وفي هذا الوقت الذي توفّرت فيه إمكانيات تيسير العمل من: أجهزة كتابة — أجهزة النّسخ — مناطق — المدوّنات الإلكترونيّة — مُنجزات كبرى للشّابكة ما يزال يصعب علينا إنجاز المعجم/ القاموس بصيغة فرديّة. وإن حدث أن وقع إنجاز المعجم/ القاموس بصيغة فريق، فنعيش دهوراً حتى يتحقّق العمل، فأين الخل؟

وأمام هذا الواقع الذي نحن نعيشه في أننا لم نُقدِّم ما يجب أن يُقدِّم لتراثنا، وكان علينا - نحن أصحاب المشروع- تقديم هذا العمل الموسوم: قاموس مصطلحات المخطوطات. ونقدّم لكم مواصفاته، وهي:

5 - مُواصفات مشروع قاموس مُصطلحات المخطوطات: كلّ عمل أكاديمي يتطلّب تقديم ركائز منطقيّة ومنهجية ترابطية، وتبريرات علمية لحصول العمل/ المشروع على القبول، وعليه فإننا رأينا أن نبني المشروع على ما يلي:

أولاً: دقّة وضع المُقدّمة: إنّ المُقدّمة هي الوثيقة الأولى التي يطالها القارئ/ المستعمل للقاموس، ولهذا تحتاج إلى تحديد مُواصفات القاموس؛ بدءاً من ذكر دوافع البحث في القاموس، وإلى منهجية وضع قاموس مُصطلحات المخطوطات بكلّ حيثياته، وإلى تلك البيانات المُتعلّقة بالمدخل، والشواهد والحديث عن حدود مُصطلح المخطوط في حدوده اللغوية، ثمّ الشواهد والمُختصرات، والملاحق إن وُجدت. وإنّ المُقدّمة هي خريطة الطّريق التي تكون مُحَدّداتها واضحةً، يقرأها المستعمل ويُفيد في كفاءات استعمال القاموس.

ثانياً: مُميّزات القاموس: كي لا ندخل في القول المكرور، فإنّه من الطّرافة أن تكون للمشروع الحصافة التي يميّز بها عن الأعمال السّابقة، ولهذا نرى في المشروع المُميّزات التّالية:

1- حَمَل الوظائف التّالية: كان علينا أن نتصوّر هذا المشروع ضمن أيّ عمل مؤسّس الذي تعلق به بعض الهنات والثّغرات، ولكن هذا ليس من الصّعوبة التي لا يمكن التغلّب عليها إذا عملنا على تحقيق الصّفات العلميّة الأساس التي ينطلق منها المشروع، وهي التّخطيط لكيفيّات تحقيق الوظائف التّالية:

- الوظيفة التّعليميّة: وهي الغاية من القواميس، يكون له الجانب التّعليميّ باعتباره مُتخصّصاً في صنف معيّن من علوم العربيّة، وهو المخطوط؛

— الوظيفة الحضارية: هذا القاموس يميّط اللّثام عن الحضارة العربيّة التي لها الامتداد الحضاريّ العالميّ، وهذا يرجع إلى ارتباط العربيّة بالإسلام، والإسلام لا جنسيّة له؛

— الوظيفة المعرفيّة: رغم أنّ القاموس محدّد في الفئة التي يستهدفها، إلّا أنّ له صفةً المُعْجَم في الجانب المعرفيّ العامّ، ويجب أن يُوصم بالموسوعيّة؛
— الوظيفة التّاريخيّة: وهي تنوير المُستعمل بالتّاريخ العربيّ القديم، وما جاد به ذلك الفكر وما يزال وجود؛

وكما نلاحظ؛ فإنّ هذه الوظائف لا مندوحة من تحقيقها بُغية الوصول إلى إنجاز قاموس في مستوى القواميس المنشودة، ولا نقع في الإعادة وتسويد الورق، وهذا ما سوف يكون للعربيّة صفة الاعتبار بأنّها لغة التّراث العلميّ والإنسانيّ والحضاريّ، ولا نكتفي بهذا، بل نسعى من خلال المشروع إلى تحقيق الوظيفة المُعاصرة والتي تنشدها المؤسّسات العلميّة من مثل مكتب تنسيق التّعريب وهو توحيد المُصطلحات، وإيجاد المقابل في اللّغتين: الإنجليزيّة والفرنسيّة، وهذا ما سوف ننهجه مع إضافة نوعيّة وهي: إنجاز قاموس في مُصطلحات المخطوطات رباعيّ اللّغة. وهذه ميزة لا توجد في مُنجزات مكتب تنسيق التّعريب.

2 — رباعيّ اللّغات: إنّ واقعنا اللّغويّ يمتاز بالتعدّد اللّغويّ، ولهذا نروم أن يكون مُتعدّد اللّغات والعمل بالتّراتب اللّغويّ؛ كما يلي:

— اللّغة الأمّ (العربيّة في مستواها العالي)؛

— المازيغيّة: (لغة وطنيّة) ولغة التّراث، ونجد الكثير من المصطلحات كُتبت بالحرف العربيّ والمضمون المازيغيّ؛

— الإنكليزيّة: (لغة العولمة) بل هي لغة العلم، ولا بدّ أن ننشد هذه اللّغة لما لها من علم وتفتّح على التّقانات. ونعتمد الإنكليزيّة على أساس أنّها لغة المستقبل لكثير من الشّعوب، ولها من العلميّة ما لها.

— الفرنسية: نعتد الفرنسية لأنها لغة المدرسة في واقعنا، وكان علينا أن نستفيد منها ومن علمها، فنحن مع الفرنسية كلغة نخدمنا وتخدم لغتنا، لغة علم وليست لغة تعليم وطني، إضافة إلى أن البحث في التراث المغربي حصل بقوة عند الفرنسيين كما أن أولى المخطوطات الجزائرية كتبت فيها الفرنسيون، فنحتاجها في المقابل الفرنسي للمصطلح العربي.

3— خدمة الترجمة: إن هذه الرباعية اللغوية تخدم الترجمة التي هي مجال حيوي ونسعى من وراء هذا الوصول إلى الترجمة التأصيلية، وبذلك نعمل على تأصيل تراثنا في التاريخ العالمي، وفي اللغات الأجنبية، ويكون تراثنا يتعدى مجاله العربي، إلى نيل مساحات في اللغات الأخرى.

ثالثاً: اعتماد فريق من المختصين لجمع المصطلحات من مَظَانِها: ويكون هذا الفريق مُتَعَدِّ الاختصاصات، وفيهم أهل اللغات والمعلومات، ويتحملون متاعب البحث والتتقيب والصبر والمثابرة والعودة إلى كثير من المخطوطات، وإلى العمل بالمنهجية الأوربية، والإلمام الوافي بالتاريخ، وعلم الآثار، وبالتوثيق، وعلم النقوش وتاريخ الفن، وبأنواع الخطوط والكتابات، وتاريخ المكتبات، وعلم الفيلولوجية ويستعملون في مُنجزهم الوسائل الحديثة ربحاً للوقت، والتقليل من الجهد، واعتماد برمجة غربية في تبويب وفهرسة المصطلح بشكل آلي، على أن يعملوا على إخراج قاموس دقيق، ويكون إنجازهم تفاعلياً، وتكون قيادة الفريق من قبل مُتَخَصِّص.

رابعاً: وضع منهجية الإنجاز: أن يقوم الفريق المُنجز للمشروع بعد اعتماده بتجسيد منهجية العمل، بالإفادة من المنهجيات الحديثة في وضع/ إنجاز القواميس، واعتماد برمجة مُتَطَوِّرة عملاقة، ويكون العمل عن طريق توظيف الشبكة وملحقاتها والتشاور عن طريق النت التي لا تنقطع بين الفريق. ونروم من هذا الفريق أن يُنجز دفتر المهام/ دفتر التَحَمُّلات باحترام قواعد الشُّروط المنصوص عليها في احترام نوعية المنتج القاموسي، وفي المراحل المُنجز، وفي تاريخ الإنهاء.

خامساً: مدّة الإنجاز: نطمح أن يكون هذا الفريقُ المُتعدّد الاختصاص بالقيام على استيفاء الموضوع من تاريخ اعتماد، والذي يأخذ مدّة ثلاث (3) سنوات، على أن يقع التّمديد في حال تعطلّ إداريّ أو صعوبة الحصول على المصادر. وعلى كلّ حال يأمل الفريق أن ينتهي العمل في مرحلته الأولى خلال السّنّوات المُعتمدة للمشاريع من قبل وزارة التّعليم العاليّ والبحث العلميّ. ولا يعدم الفريق المُنجز بأنّ البحث المُؤسّس ستلحقه في البداية بعضُ الثّغرات والتّأخير.

سادساً: تقسيم أبواب المشروع على السّنّوات الثلاث كما يلي:

1 — السّنة الأولى: يحصل البحث عن المخطوط بنوعيه: العربيّ والمازيغيّ. يتمّ تدوينها وتصوير بعضها. ثمّ يتمّ توزيع المخطوطات حسب اختصاصها من مثل:

— مخطوطات في القرآن والقراءات والفقّه والتّفسير؛

— مخطوطات في اللّغة؛

— مخطوطات في الأسفار؛

— مخطوطات علميّة؛

— مخطوطات في المُعاملات البينيّة؛

...

وعلى كلّ عضوٍ في الفرقة أن يلتزم بمنهجية تتعلّق بالبحث عن المُصطلحات المُختصة، وتدوينها في جُذّادات، وتقسيمها إلى حقول معرفيّة في الاختصاص، من مثل: حقول أدوات الكتابة — حقول التّحقيق — حقول الخطوط — حقول الرّموز...

2 — السّنة الثّانية: تدوين المُصطلحات المُتخصّصة في المِنطَاق المُعدّ لهذا الغرض، وكلّ عضو يتكفّل بميدانه. حيث تتمّ في السّنة الثّانية كلّ العمليّات المُكمّلة للسّنة الأولى من حيث: التّدوين — البحث عن التّعريف — البحث عن المُقابل...

3 — السّنة الثّالثة: تكون الصّيّغة النّهائيّة للتّعريف، مع المُقابل في اللّغات الثّلاث. وفيها يحصل التّسويق وإعادة النّظر في المُنجز بشكل جماعيّ، وصولاً إلى توحيد منهجية التّعامل مع مُصطلحات المخطوطات.

سابعاً: منهجية هذا القاموس: أن يخضع هذا القاموسُ للمُوصفات العلميّة المعاصرة، بدءاً من التّوضيح الوافيّ في المُقدّمة في ما هو مطلوب، وما هي الأهداف العمليّة والإجرائيّة، وما هي النّظريّة القاموسيّة المُنتهجة، والتّنصيب على القضايا اللّغويّة ذات العلاقة بمُصطلحات المخطوط، والحديث عن التعريفات اللاّزمة والسّعي إلى توحيدها، والعمل بمنهجية واضحة في توحيد المداخل، وتوظيف المُختصرات، وما يلحق ذلك من الأمور التقنيّة التي يستدعيها بناءُ القاموسِ المعاصر.

ثامناً: مُوصفات القاموس: وأما مُوصفات هذا القاموس، فهي:

1 — احتواؤه على مُقدّمة وصفيّة لمُوصفات القاموس العربيّ المُختصّ من حيث: الأهداف — الغايات — المنهجية — النّظريّة القاموسيّة — مُلخص لغويّ حول: المخطوط والمُصطلح — التّنصيب على التّفسير — المُختصرات — المصادر — ذكرُ أسماء الفريق المُنجز كلّ في اختصاصه وشهادته.

2 — اعتماده المنهجية العربيّة المكيفة في وضع المُصطلحات، وهذه المنهجية هي التي أُقرّت من قبل المؤسسات العربيّة المُختصة.

3 — ذكر صفات التّمايز، وإلاّ هناك بعض الأعمال السّابقة، فليس من الضّروري تكرار القول المكرور.

4 — اعتماد التّعريف: لغةً واصطلاحاً، وباختصار.

5 — توحيد المداخل اللّغويّة.

6 — اعتماد الشّواهد القديمة والحديثة.

7 — وضع المُقابلات بثلاث لغات: الإنكليزيّة + الفرنسيّة + المازيغية.

تاسعاً: مصادر قاموس مُصطلحات المخطوطات: إنّ المصادر التي يُعوّل عليها كثيرة؛ لأنّ مُصطلحات المخطوطات وُجدت في كثير من العلوم، وبخاصّة علوم العربيّة، لهذا سوف تتعدّد مصادره، وتتوّع معطياته، ولكن هناك الأهمّ، وهي:

— ما حَفَظَ لنا التّاريخُ من مخطوطات؛

— مُصنّفات الفهارس؛

- مُصَنَّفَات علم الرِّسَم والكتابة؛
- مُصَنَّفَات صناعة الإنشاء ودواوين الكتابة؛
- المُصَنَّفَات المُعاصرة في الحضارة العربيّة؛
- المُصَنَّفَات المُعاصرة في علم المخطوط العربيّ؛
- المُصَنَّفَات المُعاصرة في التّحقيق؛
- المُصَنَّفَات المُعاصرة التي تدرّس التّرميم وصيانة المخطوطات؛
- المعاجم المُعاصرة في علم التّأليف والبحث؛
- مجموعة المعاجم ذات العلاقة بعلوم العرب.
- الخاتمة: لقد أجمعنا أمرنا على تقديم هذا المشروع، وفيه ما يقضّ مضجعنا وهو الردّ على السّؤال الكبير؛ سؤال اللّغة العربيّة، لماذا تخلفنا حتى في أدبياتنا وفي معالم تراثنا؟ ويمكن أن نجيب عن السّؤال بما نعرضه من خلال هذه الأفكار التي سمّيناها مشروعاً، ونعمل على تقديم بعض الحلول التي نأمل أن تعمل على تذليل بعض الصّعوبات والمُضايقات التي تُعانيها اللّغة العربيّة، ومنها مُضايقات المُصطلح العربيّ. مشروع نضعه أمام اللّجنة المُختصة، للنّقيص، ونقول كلمتها في ما نقدم عليه من أمر يخدم الشّأن العامّ، وندعو الغيورين على تراثنا بأن ينزلوه منزلة الطّفّل الصّغير، ليحظى بالعناية والرّعاية؛ فيسدّون ما يدور حوله من أوهام وأغلاط، وما حدث فيه من هُنا، ويحملون مشعل الأمانة العلميّة بتقان وإخلاص، ونتمنى أن يعمل هذا المشروع على سدّ الكثير من الفجوات، للوصول إلى إنجاز قاموس لمُصطلحات المخطوطات ذي المواصفات العالميّة، وفي ذات الوقت لا نعدم أن هذا المشروع سوف يَصِلُ إلى الكُنوز المُتناثرة من تراثنا، ويعمل على استخلاص مُصطلحاتها؛ حيث مكتباتنا المليئة، ومساجدنا العتيقة، وزوايانا العلميّة، وكلّها تتادي أن هَلُمُوا إلى كُنوز الأجداد؛ وبخاصّة ما تكتنزه مناطق الزّواوة العاليّة، وقصورنا الصّحراويّة الهادئة ومن خلال ذلك نروم أن نحصلَ فهرسةً عامّةً لتراثنا، ونترك ذلك لهذا الجيلِ علّه يَجْري التّحقيق، في عملٍ عميق، وهو أسمى من الرّقيق.

ممارس

مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر



جامعة مولود معمري، تيزي وزو
مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

رقم الكتاب: 8 - 35 - 381 - 9947 - 978

